

اوراق اندلسية

عبد العاطى محمد الورفلى



أوراق اندلسية

الطبعة الاولى 1990 م

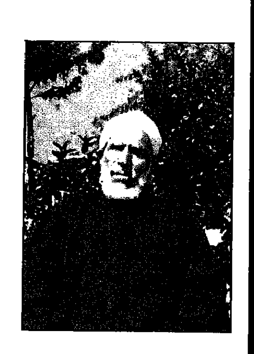
رقم الايداع : 902 / 1990
دار الكتب الوطنية - بنغازي

الصور ملتقطة من قبل المؤلف باستثناء :

1)ـ الصور رقم : 52 / 53 / 54 / 55 / 58 من كتاب « الحمراء وجنة العريف » طبع سنة 1985 م .
2)ـ الصور رقم : 56 / 60 من كتاب « التصوير الفوتوغرافي في اسبانيا حتى عام 1900 م » اصدار وزارة الثقافة الاسبانية ـ مايو 1982 م .
3)ـ الصور رقم : 61 / 62 / 67 / 68 / 120 / 121 / 122 / 137 / 149 من كتاب « كل قرطبة » باللغة الانجليزية 1986 من كتاب « الاندلس ـ الاسلام فى اسبانيا » اصدرته لجنة « الاندلس 92 » الطبعة الاولى 1987 .
4)ـ الصور رقم : 63 / 64 / 65 / 66 .
5)ـ الصورة رقم 81 من كتاب « كل اشبيلية » الطبعة السابعة 1988 م .
6)ـ الصور رقم : 57 / 86 / 87 من كتاب « كل الاندلس » باللغة الانجليزية 1986 .
7)ـ الصور رقم : 77 / 78 / 79 من كتاب « مسجد قرطبة وقصر الحمراء » الدار العربية للكتاب ـ ليبيا / تونس ، 1977 م .
8)ـ الصور التى كتبت عليها عبارة « بطاقة بريدية » .

● الجمع المرئى : عمر الشائبى / صحيفة الدعوة الاسلامية
ـ جمعية الدعوة الاسلامية العالمية

● تصميم الغلاف والاخراج : عبد الفتاح سعد أحمد .



اهــــداء

كان ابى رحمه الله محبا للاندلس .

وما إن عدت من رحلتى الاولى حتى بدأ يطرح السؤال تلو السؤال ، يسأل عن الآثار : عن غرناطة وعن الحمراء وعن قرطبة ومسجدها وعن حواضر الاندلس الاخرى .

كان محبا للاندلس .

سألنى عن الذين التقيتهم هناك : كيف هم ، وكيف علاقتهم بالاسلام ، وكيف هى حياتهم .

كان رحمه الله لا يشجعنى على كثرة السفر والترحال لاسباب خاصة جدا ، لكنه ما ان علم بوجهتى فى رحلتى الاولى والثانية حتى حفزنى على ذلك .

وتشاء الاقدار أن يزور الجماهيرية شباب من « مليلة » التقوا به رحمه الله فى بيتى .. سألهم كثيرا ، وكان دائمـا يردد « لا حول ولا قوة الا بالله » .

حدثه احد الذين تتلمذوا عليه عن تركيا وآثارها واعجابه بتلك الآثار فقال له رحمه الله : هل زرت الاندلس ؟ ولا أظنك فعلت ، وعليك ان تزور الاندلس حتى تطلع على عظمة الآثار هناك .

كان رحمه الله محبا للاندلس .

فالى روحه الطاهرة اهدى هذا العمل عرفانا بما قدمه لى : فعلى يديه تعلمت القراءة والكتابة ، وعلى يديه حفظت ما تيسر من كتاب الله ، وعلى يديه تعلمت ما لم أجده فى كتـاب .

عبد العاطي البوزنلي

بطـــاقـــــة

من الامسيات المتميزة الرائعة تلك الامسية التى جمعتنى بالاستاذ الدكتور على فهمى خشيم ، وكعادته دائما كان مبتسما مشجعا ، وسألنى : لم لا تجمع ما كتبت عن رحلة الاندلس فى كتاب ؟

كان السؤ ال اكبر بكثير مما أتصور .

وروى لى قصة أول كتاب اصدره ، والذى كان بناء على سؤال وُجِّه اليه لا يختلف كثيرا عن السؤال الذى طرحه ، اما صاحب السؤال الاول فهو الاستاذ : على مصطفى المصراتى الذى كان حاضرا فى تلك الامسية ، وكان سؤاله سببا فى عطاء مستمر ومثمر ، جاد ومتنوع .

ساعتئذ فسرت الامر على أنه تشجيع من استاذنا « على خشيم » ، وكانت كلمات الاستاذ « على مصطفى المصراتى » تسير فى نفس الاتجاه .

قلت : انها مغامرة كبيرة ولا شك،لأن ..القضية ليست مجرد اصدار كتاب .

القضية - كما أرى - تتلخص فى أن أول كتاب هو مثل أول مقال : مثل أول خطوة ، مثل أول كلمة فى جملة ، مثل أول حرف فى كلمة .

تتابعت الملاحظات من الزملاء والاساتذة الافاضل ، نظرت الى بعضها من زاو ية المجاملة ، ورأيت بعضها من قبيل الامانى الوردية المتفائلة .

وقبل ان اقدم على هذه الخطوة الكبيرة عرضت مشروع هذه الاوراق على اسباب ودواعى التأليف التى وضعها واتفق عليها اسلافنا والتى لابد لكل من يركب هذا البحر من مراعاتها ، وهى التى أراها الطرق التى يكون السير فى غيرها ضربا من الابحار فى يم لا ساحل له ، ابحار بلا مركب ولا دراية ولا وجهة .

ان اغراض التأليف التى وضعت منذ ان كانت الكتابة علما وفنا وهدفا وقضية لم تتغير ، ولانها ثابتة وراسخة فان الاقدام على اية خطوة من هذا القبيل ليست بالسهولة التى يتصورها كثير من الناس .

ولا ازعم اننى عرضت هذه الاوراق على كل اسباب دواعى واغراض التأليف فتلك مهمة صعبة . . لقد اخترت طريقا آخر :

جمعت هذه الاوراق وعرضتها على الاستاذ الدكتور على فهمى خشيم ، واذ به يكرر تشجيعه .

ثم وضعتها بين يدى الاستاذ الدكتور امين توفيق الطيبى الذى تفضل - مشكورا - بقراءتها والتعليق عليها والتقديم لها .

ولا أريد ان يفسر هذا على انه هروب من المسئولية ، أو أنه تحميل للآخرين جزءا من هذه المسئولية ، كلا فما الى ذلك ذهبت .

صحيح ان من ذكرت ومن اليهم اشرت كان لهم الفضل فى الدفع بهذه الاوراق الى ان تكون بين يدى القارىء الكريم .

وصحيح أننى أقدمت على مغامرة ان كنت أدرى بدايتها فلا أستطيع الجزم بمنتهاها .

لكن كلمة الفصل تظل للقارىء الكريم وحده ، فهو الذى سيقرأ ، ويصوب ، وينتقد ، ويصحح ، ويضيف ، ويلغى .

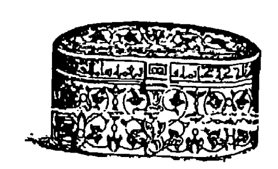
فان كانت فى هذه الاوراق فائدة فهى من فضل الله وتوفيقه ، وان كانت دون ذلك فحسبى اننى حرصت على ان استفيد وافيد ، وبالله الاستعانة ومنه التوفيق .

عبد العاطى محمد الورفلى

طـرابلـــــس

الجمعـة : 30 شوال 1399 و . ر

1990 / 5 / 25 م



تقديم

أتحفني الصديقُ الأديبُ الشابُّ عبدُ العاطى محمد الورفلِّي بإطلاعي على ثلاثين مقالةً جَمعها معًا تحت عنوان « أوراق أندلسية » ، وهي جملةٌ من الخواطر والتأملات ، تناول فيها المؤلفُ جوانبَ من تاريخ عدد من حواضر العرب الكبرى فى الأندلس ، كما تناول فيها موضوعَ الاحتفالات التى يَجْرى الاعداد لها حثيثًا فى اسبانيا بمناسبة حلول عام 1992 ومرور خمسة قرون على اكتشاف العالم الجَديد « القارة الأمريكية » ، وهو عام يصادف مطلعُه الذكرى المئويةَ الخامسةَ لسقوط آخر ممالك المسلمين « غرناطة » فى أيدي العاهليْن الكاثوليكيَّيْن الاسبانيَّيْن فرديناند وإيزابيلا . ويشتمل القسمُ الثالثُ من هذه المقالات على فحوى مقابلات شخصية ممتعة أجراها المؤلف ـ وبذكاء ـ مع عدد من كبار الباحثين والدارسين من عرب وأجانب حول تقييم الحضارة العربية الاسلامية فى الأندلس ، وحول مِحْنة المدجَّنين ثم الموريسكيين . وفى الختام ، أورد المؤلفُ مقتطفاتٍ من خمس قصائدَ معروفةٍ قيلتْ فى رثاء الأندلسَ وحواضرها العريقة لابن الأبار البلنسي ، وحازم القرطاجني ، وأبى البقاء الرُندى من ابناء الأندلس ، وأحمد شوقى ونزار قبانى من المُحْدَثين .

ان هذه الدراسات دراساتٌ متميِّزةٌ ممتعة ، وهي تبعث على التدبر والتأمل ، كما تثير جملةً من التساؤلات ، وفيها يبدي المؤلفُ ـ وهو مُحقٌ فى ذلك ـ غَيْرتَه على تراثنا العربي الاسلامى المرموق فى الأندلس ، وحماسَه الشديدَ لابرازه وتسليط الأضواء عليه والاعتزاز به ، كلُّ ذلك بأسلوبٍ أدبيٍ مُرسَل وشائق ينمُّ عن موهبة ادبية واعدة .

ان اهتمامَ المؤلف بالدراسات العربية الاسلامية منذ صباه ، والخبرةَ الطويلةَ التي اكتسبها فى مجال الاعـلام والصحافة ، منذ ان كان طالبا جامعيا ، أضفيا على اسلوبه طابعَ المنهجية وتوخي الدقة ، فضلا عن السلاسة وسهولة العبارة ، مما يجعلنا نتطلع الى مزيد من عطائه فى مجال الأدب والدراسات الاسلامية .

والحق يقال إنني ـ كأحد المهتمين بالأندلس تاريخًا وحضارةً ـ تمتَّعتُ وأفدت من قراءة ما جاء فى هذه « الاوراق الأندلسية » من خواطرَ وتأملاتٍ ومعلوماتٍ ، ولا اشك فى انها ستحظى كذلك باهتمام القُرَّاء وعنايتهم ومتعتهم ، مهما كانت مواقفهم من عدد من القضايا والاشكاليات المطروحة .

د . أمين توفيق الطيبي



لمحات من ذاكرة الزمن

في المرحلة الثالثة من التعليم الجامعي كنا ملزمين بتقديم بحث مختصر كمادة من مواد الدراسة ، واخترت آنذاك أن اكتب عن الاندلس ، فقدمت بحثاً بعنوان « الاندلس : رجل وأثر وموقف » الرجل كان : عبد الرحمن الداخل ، والاثر هو : مسجد قرطبة ، اما الموقف فكان حول تلك اللحظات التي سجلها التاريخ حين خروج (ابو عبد الله محمد الصغير) من (غرناطة) وكلمة والدته (عائشة) له حينما رأته يبكي : « ابكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال » تلك الكلمات التي حفرت في جدار الزمن .

إن كانت للزمان جدران .

وأذكر أن استاذ مادة الحضارة الاسلامية سألني حين اطلع على (البحث المذكور) : هل تعرف السبب الذي كان وراء خروج الاسلام من الاندلس ؟! مضيفاً قوله : مع العلم بأن الاسلام مادخل ارضاً إلا وبقى فيها !

لم أكن ساعتئذ أملك جواباً محدداً .

ووجدت رأياً في نفس السياق للدكتور / مصطفى الشكعة جاء فيه : « . . . الاسلام مادخل أرضاً وخرج منها ، لقد دخل العرب ـ كمسلمين ـ بلاداً واخرجوا منها كما هو الحال في فارس وطبرستان والهند . . ولكنهم حين خرجوا تركوا الاسلام يعيش في تلك البلاد ولايزال يعيش قوياً حتى الآن . . وأما في الاندلس فقد طرد العرب وحورب الاسلام حتى لم يبق مسلم واحد على ارضها »(1) ، وكذلك الحال في صقلية وكريت قبل الاندلس .

تتابعت السنون ، وبدأت أقتني كتباً عن (الاندلس) : عن ابطالها وعلمائها وشعرائها ومبدعيها الذين كانوا بحق اساتذة حضارة وبدأت اتعرف رويداً رويداً على (الاندلس) .

وأصبح حلم زيارة تلك الربوع املاً كبيراً ـ لعله ـ على الايام ينتصر !

اقتربت من الاندلس فكرياً عن طريق ذلك البحث الجامعي .

واقتربت من الاندلس تاريخياً وادبياً عن طريق عدد من المؤلفات سواء ماكتبه المعاصرون أو ماكتبه بعض ابناء (الاندلس) امثال : (ابن رشد) و (ابن حزم) و (ابن هانىء) و (المعتمد بن عباد) و (زرياب) و (عباس بن فرناس) وغيرهم ممن لايحصون عدداً . . وقبل هؤلاء جميعاً

(طارق بن زياد) الذي لو لم يقل لرجال جيش الفتح والدعوة : « البحر من ورائكم والعدو من أمامكم » لما سطرنا عرباً مسلمين احدى أجمل قصائد الحضارة في سفر الزمن .

إن كانت للزمان أسفار .

ثم اقتربت من الاندلس جغرافياً حينما انطلقت من قناة السويس الى طنجة في رحلة شبابية مابين عامي 1973 و 1975 عن طريق البر . . ولنقف على احدى روابي « طنجة » لنرى بالعين المجردة جزءاً من (الاندلس) .

لم تكد تمضي سنوات حتى وجدت نفسي على أعتاب (الاندلس) حيث كلفت بمتابعة اعمال الملتقى الثالث لدعاة جمعية الدعوة الاسلامية العالمية بأوروبا والامريكتين والذي انعقد في الثلث الثاني من شهر النوار (فبراير) 1988 . . ولعلها من محاسن الصدف أن تكون المهمة الصحفية الاولى التي أكلف بها من قبل جمعية الدعوة الاسلامية العالمية كانت الى (اسبانيا) التي ماعرفتها بغير اسمها التاريخي (الاندلس) ، أو ليس امرأً مهماً أن يزور المرء (الاندلس) وهو في جمعية للدعوة الاسلامية ؟!

وليس من قبيل المبالغة الاشارة الى انني فيما كنت اتصفح كتابا بعنوان « الدولة العربية في اسبانيا » للدكتور : ابراهيم بيضون مساء الاحد 14 / 2 / 1988 إذ بي اسمع وارى في الاذاعة المرئية للجماهيرية العظمى بعد الساعة العاشرة ليلاً الموشح الاندلسي الشهير للاديب والشاعر الاندلسي الاشهر (لسان الدين بن الخطيب) والذي مطلعه :

جادك الغيث اذا الغيث هما　　　　يازمان الوصل بالاندلس

وغادرت الجماهيرية صباح اليوم التالي .

كما انه ليس من باب المبالغة أيضاً أن اسجل بأنني سمعت هذا الموشح ايضاً مساء الثلاثاء 23 / 2 / 1988 م ، في (مدريد) التي غادرتها صباح اليوم التالي (الاربعاء) قاصداً أقليم (الاندلس) !

الاندلس : الاسم والدلالة

حاول عدد من الباحثين مناقشة هذا الاسم : لغوياً وتاريخياً واهتموا بمدلوله جغرافياً . . يرى البعض ان التسمية مشتقة من كلمة (الوندال)[2] .

وحاول البعض إخضاع الكلمة لقواعد الصرف والاشتقاق ليخلص الى انها « **كلمة عجمية لم تستعملها العرب في القديم ، وإنما عرفتها العرب في الاسلام** »[3] .

ولاتكاد معظم الاراء التي قدر لي أن أطلع عليها تضيف شيئاً جديداً . . اللهم إلا ماكان منها يحاول تبيان حدود الاندلس قديماً وحديثاً .

الكلمة الآن تدل على الجزء الجنوبي من (اسبانيا) والذي يحوي مدناً وقرى لاتزال تحتفظ بأسمائها التي لها في اسماعنا وتاريخنا وقع خاص مثل : مالقة ، المرية ، مرسية ، غرناطة ، اشبيلية ، قرطبة ، وغيرها من المدن التي شكلت مجتمعة عقداً ازدان به جيد الزمان .

إن كان للزمان جيد .

كثير هم اولئك الذين وصفوا (الاندلس) وممن وصفها قديماً (الحميرى) صاحب المعجم الجغرافي (الروض المعطار) بقوله : « اسم الاندلس فى اللغة اليونانية اشبانيا . . . . وقيل اسمها فى القديم ابارية ثم سميت بعد ذلك باطقة ، ثم سميت اشبانية من اسم رجل ملكها فى القديم كان اسمه اشبان »[4] .

(Hispania) قديماً كانت تطلق على شبه جزيرة (ايبيريا) حسب التعبير الروماني شاملاً (اسبانيا) الاسم القديم الذي استعمله الرومان و (البرتغال) الحديث .

ووصفها (ياقوت الحموي) بقوله « . . الاندلس جزيرة كبيرة فيها عامر وغامر ، طولها نحو الشهر في نيف وعشرين مرحلة ، تغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة في الحال »[5] .

إننا اذا انطلقنا في طريق وصف الاندلس فلن نستطيع الاحاطة ولو بجزء يسير من المبتغى ، فالاندلس تثير في الذاكرة الماً ، وأملاً ، نشوة ، وحسرة ، ازدهارا ونكبة . . ماذكر الاندلس احد إلا واسهب في وصفها مما يستدعى رصده وسوقه المجلدات .

ان الامر الجدير بالاهتمام هو أن الرحلة شملت : مالقة وغرناطة وقرطبة وطليطلة ومدريد في خط أشبه مايكون بمحاولة اعادة الاستكشاف ، مما جعل سائق الحافلة (اندلسي النشأة والمقام) يقول معلقاً بعدما علم خط الرحلة : يبدو أن النية تتجه إلى محاولة السير على خطى الفاتحين الاوائل .

اندلس اليوم : سُهولاً وجبالاً ، مدناً وقرى ، قلاعاً وقصوراً ، كلمات وملامح . . لاتختلف

عن (اندلس) ما قبل 496 عاماً .

الشيء الملموس هو شكل عودة الاسلام ، ونمط التواصل الذي وصفته احدى العربيات المقيمات في اسبانيا نقلاً عن بعض الاسبانيين بالقول : « لقد بدأ العرب يعودون بهدوء » ممايوحي بأن التاريخ يأبى إلا أن يؤكد حتمية التواصل بين الاسلام والعروبة والاندلس .

إلا ان للوجود العربي هناك جانبا سلبيا . . ويرى بعض الاندلسيين أن خلافاتنا السياسية كعرب تؤثر بشكل واضح في مسلمي الانـدلس . وثمـة اراء تنتقـد مظاهر البذخ والاسراف والانحـراف التى يتصف بها بعض ابناء الوطن العربي الوافدين الى اقليم الاندلس ، وقال أحد المسلمين من ابناء (غرناطة) إذا كان الاسلام سيعود الى ربوع الاندلس فاننا نتمنى الا يتم ذلك عن طريق عرب المنتجعات وعرب الملاهى ، وعرب البذخ والاسراف .

للوجـود العـربي عدة مظاهر ، ثمة طلاب يدرسون ، وعمال يبحثون عن لقمة العيش ، وآخرون طابت لهم الحياة فاستقروا هناك . . . .

وحين اتجهت من (غرناطة) الى (قرطبة) لمحت بعض اللوحات الارشادية تحمل أسماء بعض القرى باللغة العربية مثل (قبّرة) و (قرطبة) . . وفي أحد أزقة (طليطلة) بعض اللوحات المكتوبة بالخط المعروف في الشمال الافريقي بـ (الخط المغربي) .

الكتاب العربي مفقود ، والمكتبات العربية لا أثر لها ، والاغرب من ذلك أنَّ الكتب السياحية عن (قصر الحمـراء) و (مسجد قرطبة) و (قصر طليطلة) وغيرها من المعالم الحضارية العربية الاسلامية في الاندلس أو اسبانيا كما هي الآن مكتوبة بعدد من اللغات حتى الصينية واليابانية إلا : العربية ، وهو أمر يحز في النفس كثيراً .

مع كل ذلك فان شعورا بعدم الغربة يمتزج بشعور بالارتياح يتنابك كعربي مسلم وأنت تجوب القـرى والارياف والازقة والشوارع ، ناهيك عن احساس بالالفة عندما تضمك جدران وأروقة القصور والقصبات والمساجد : وعندما تتناهى الى سمعك كلمة (الاندلس) من الاذاعات المسموعة والمرئية ، وعندما يقع بصرك على كلمة (الاندلس) بأحرف لاتينية كبيرة في مختلف مناطق ومـدن وقرى الاقليم . . وستعلم حينها أن التاريخ في تواصل مستمر ، وستتيقن من ان مشعلاً اضاءه العرب المسلمون لن يخبو نوره ، وستظل نوافذ الزمان مشرعة للعطاء .

إن كانت للزمان نوافذ .

لقد تعودنا كلما تحدثنا عن (الاندلس)أن يجرفنا تيار مأساوي لفقد (منطقة) ترمز الى حضارة

متميزة وعطاء نقل اوربا بكاملها إن لم نقل : العالم بأسره من مرحلة مظلمة الى واقع مستنير عمَّ ضياؤه ارجاء الدنيا . ومهما كان الحديث متفائلاً فيما مضى فان مسحة من الحنين الباكي تأبى إلا أن تصبغ كل حديث .

لكن الواقع الآن يجعلنا نحس تفاؤلاً لاحدود له ، لأننا تأكدنا ـ خلافاً لكل ماقيل في كتب التاريخ ـ من أن الاسلام دين الله الحق لم يغادر (الاندلس) إلى الابد ، بل علينا أن نؤمن بأن الاسلام لم يغادر تلك البقاع على الاطلاق .

ومما أبدعه ابناء (الاندلس) طيلة عقود من عمر الزمان لم تغيره السنون والاحداث . فمن ملايين اشجار الزيتون كاقليم الشرف الشهير بزياتينه الى الغرب من اشبيلية وما يزال يعرف باسمه العربي Ajarafe .. الى آلاف اشجار النخيل الى القصور والقلاع والحصون مروراً بآلاف الكلمات العربية في اللغة الاسبانية كلها شواهد تشير الى أن نور الاسلام ماانطفأ وإن كانت حقب من الزمان قد اسدلت عليه ستارا من التعتيم .

إن كانت للزمان ستائر .

لقد تساءلت في قرارة نفسي : وماذا بعد ؟ عندما سمعت الدليل السياحي يقول لنا ونحن امام محراب (جامع قرطبة) : إن هذا الابداع الفني المعجز في نقوش المحراب والقبة التي تعلوه كان نتيجة لامتزاج ابناء قرطبة بالعروبة والاسلام .. ثم تركنا نتأمل (المحراب والقبة) ، وسجلت في مفكرتي آنئذ مانصه : ماكان ابناء (قرطبة)ليستطيعوا إنجاز عمل كهذا لو لم يمتزجوا بالاسلام ، وماكان الاسلام ليصل الى هذه البقاع لو لم يتحمل العرب مهمة الدعوة اليه ونشره ، وماكان العرب ليصلوا الى هنا ليضعوا أسس هذا الابداع لو لم يعتنقوا الاسلام ويعملوا على نشره !

ثم اتساءل الآن : وماذا بعد ؟

هل أزعم أنني التقطت شيئاً ذا بال من ذاكرة الزمن ؟

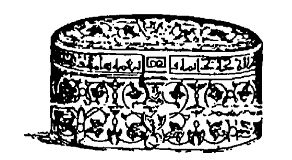
ولقائل أن يقول : إن كانت للزمان ذاكرة !!

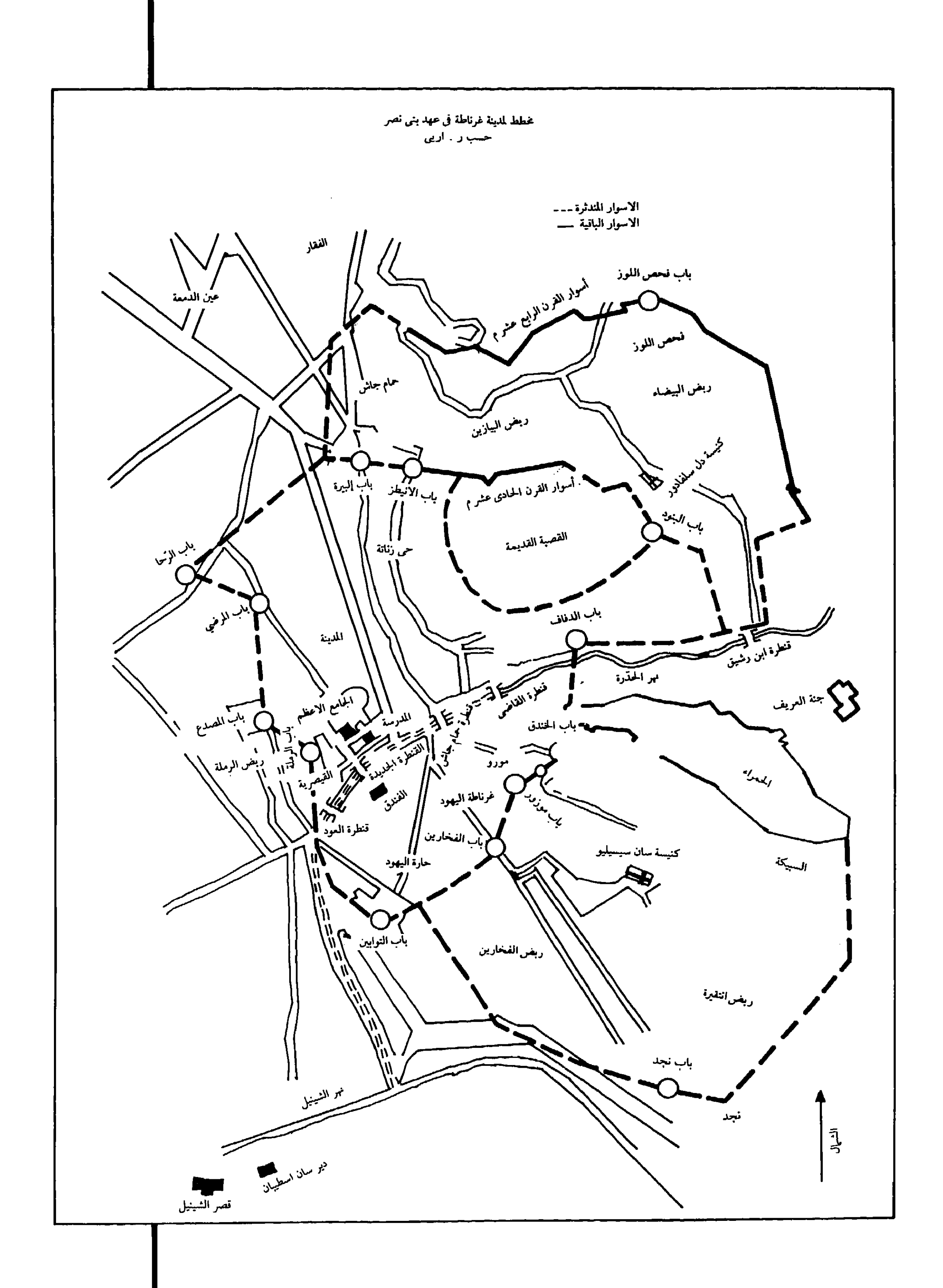
1 ـ الادب الاندلسي : موضوعاته وفنونه / مصطفى الشكعة ـ دار العلم للملايين / بيروت ـ الطبعة الرابعة 1979 م ـ ص 2 .

2 ـ الدولة العربية في اسبانيا / ابراهيم بيضون ـ دار النهضة العربية / بيروت ـ الطبعة الثانية 1980 ـ ص 2 .
3 - 5 ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموي ـ منشورات دار صادر / بيروت 1979 م ص 262 .
4 ـ الروض المعطار / محمد بن عبد المنعم الحميرى ـ تحقيق . احسان عباس ـ بيروت 1975 ـ ص 32 - 34 ويقول الحميرى كذلك : « والاندلس دار جهاد وموطن رباط » .

* ان كلمة « الاندلس » يعتقد بأنها تحوير لـ Vandalicia وهو اسم مشتق من غزاة البلاد : الوندال Vandals قبل مجيء القوط الغربيين وكلاهما من قبائل البرابرة الجرمان W . M .Watt, A – history of Islamic Spain, Edinburgl 1965, p 17







مخطط لمدينة غرناطة في عهد بني نصر
حسب ر . اربي
الاسوار المندثرة ---
الاسوار الباقية ___
الفقار
عين الدمعة
باب فحص اللوز
أسوار القرن الرابع عشر م
فحص اللوز
ربض البيضاء
حمام جاش
ربض البيازين
كنيسة دل سلفادور
باب البيرة
باب الأنيطر
أسوار القرن الحادى عشر م
القصبة القديمة
باب البنود
حى زناتة
باب الرخا
باب المرضى
المدينة
باب الدفاف
قنطرة ابن رشيق
نهر الحدرة
جنة العريف
الجامع الاعظم
المدرسة
قنطرة القاضى
باب المصدع
ربض الرملة
القيصرية
القنطرة الجديدة
الفندق
باب الخندق
مورو
غرناطة اليهود
باب موزور
الحمراء
قنطرة العود
باب الفخارين
كنيسة سان سيسيليو
حارة اليهود
السبيكة
باب التوابين
ربض الفخارين
ربض انتفيرة
باب نجد
نجد
نهر الشينيل
الشمال
دير سان اسطيان
قصر الشينيل

غرناطة : آخر حبات المسبحة !

فى الطائرة من « مدريد » الى « غرناطة » حاولت ان ارسم صورة للمدينة من خلال مايمكن سوقه من حكايا التاريخ ، لكن صورة واحدة ظلت تحتل كامل مساحة الذاكرة . . ولم افلح فى اجتيازها رغم انشغالى بين الحين والاخر بالنظر الى الجبال والسهول والاودية والانهار التى بدت من عل وكانها خطوط لعب بها التظليل والتلوين اكثر من كونها جبالا وسهولا وأودية قد لا يتمكن الانسان من اجتيازها اذا ماقدر له ان يحاول ذلك . . لكننى ـ ومانسيت قط هذا الامر ـ كنت كمن خيل اليه انه يرى جند الفتح والدعوة منذ مئات السنين يطوون هذه السلاسل الجبلية فى يسر وسهولة وايمان .

والصورة التى مابرحت تراودنى هى : كيف سقطت « غرناطة » بعد صمود دام اكثر من مائتى عام من سقوط كل المدن الاخرى ؟!

لقد استعصت المدينة على « فرديناند » و « ايزابيل » تسعة أشهر أو « سبعة » حتى اضطر الجيش الزاحف من الشمال الى بناء مدينة مجاورة « فى الجنوب الغربى من غرناطة سموها « شنتفي Santa Fe » أى : الايمان المقدس ، لاتزال قائمة الى اليوم »[1] وكأن لسان حال القادمين يقول : (لابد من غرناطة وان طال الحصار) .

السؤال الذى راودني لم يكن عن سبب السقوط بل كان عن الكيفية التىء تم بها . . هل كان حقا ـ كما صورته اشعار المغادرين ؟ ام كان كما حاول صناع (الخيالة) ان يصوروه ؟! ام انه كان حدثا ـ جللا مهيبا رهيبا ـ اكبر مما حاولت ان تحكيه القصص والاشعار والملاحم ؟!

يبدو أن « استعصاء غرناطة » على القادمين من الشمال صفة ملازمة لها ، وهو خاطر انقدح فى ذهنى لحظة سمعت « المضيفة » تخبرنا باننا لن نستطيع الهبوط فى مطار المدينة ، وكان لابد من التوجه الى مدينة أخرى ، فكانت « مالقة » .

المسافة بين المدينتين تزيد قليلا عن 150 كيلو مترا وظننت للمرة الثانية اننى أستطيع أن أتعرف على « غرناطة » من خلال كتاب مؤلف حولها . بدأت أتصفحه وبين الفينة والاخرى كنت استرق النظر الى مظاهر الطبيعة . . وجدت ان الامر لن يستقيم على هذا المنوال . . طويت الكتاب واطلقت العنان لبصرى ليخترق آفاقا رحبة تداخلت فيها الالوان . . نهر يرافقنا ـ تارة ذات اليمين

وتارة ذات الشمال . . بيوت بيضاء لامعة متناثرة على بساط سندسي لاحدود له . . اشجار وتلال ، وعبق التاريخ الذى خيل الى انه يفوح من كل شىء .

وبدأ حوار داخلى من نوع غريب يطفو حتى كاد ان يصبح ـ صوتا مسموعا .

« غرناطه » بفتح أوله وسكون ثانيه بمعنى : رمانة بلسان عجم الاندلس ولعل الاسم غرناطة « أغرناطة » إغرناطة مشتق من الرومانية (Granata = الرمانة) ، ولذلك فانه يشار اليها فى المصادر العربية المبكرة بحصن الرمان[2] سمى البلد لحسنه بذلك . قال الانصارى : وهى أقدم مدن (كورة البيرة) وأعظمها وأحسنها وأحصنها ، يشقها النهر المعروف بنهر حدارة [اسمه اليوم Darro] يلقط منه سحالة الذهب الخالص »[3] .

دخل الاسلام « غرناطة » فى المرحلة الاولى من الفتح على يد عبدالعزيز بن موسى بن نصير الذي قدم اليها من (مالقة) .

كانت « غرناطة » من أعظم مدن اوروبا فى القرون الوسطى ، ويبدو أن عدد سكانها قد بلغ سنة 1311 م مائتى الف ساكن* كما قدره مبعوثون من ملك الارغون الى البابا ، إلا أن المؤرخ الاسبانى المعاصر (ل : توراس بالباس) يرى أن فى ذلك العدد مبالغة[4] .

للمدينة إسهام واضح الملامح فى الحركة العلمية والادبية طيلة القرون التى عاشتها فى رحاب الاسلام ، ولم تكن مساهمتها قاصرة بأي حال على جانب احادي ... لقد اعطت للاندلس رجالا ونساء لاتزال اسماؤهم وأسماؤهن تتداعى الى الذاكرة كلما خطرت على البال مدن وقرى الاندلس .

من رجـالها : لسان الدين بن الخطيب الذى الف كتبا جمعت معظم الوان المعرفة : الشعر والادب والتاريخ والموسيقى والطب . . وخصها بعدد من مؤلفاته من بينها : (الاحاطة فى أخبار غرناطة) .

ومن كبار علمائها : ابن اللب والشاطبي والحضار وعلى رأسهم بلا منازع محمد الانصاري السرقسطى (ت 1459) والقاضى ابوبكر بن عاصم .

ومن شعرائها : ابن زمرك الذى خلدت أبيات من شعره على جدران (قصر الحمراء) لاتزال باقية حتى اليوم .

من رجالها الافذاذ : أبو الحسن على بن محمد القلصادى الذى يعد من أنجب علماء عصره وهو آخر علماء الحساب والجبر عند العرب ، ومن علمائها وعلماء الاندلس المشهورين فى علم الفلك : أبو عبدالله الفحام المعروف بأبي خريطة .

كما انجبت غرنـاطة عددا من علماء الطب اعظمهم : ابومروان بن زهر ، وهو آخر كبار الاطبـاء المسلمين بعد الرازي وابن سينا ، من رجالها ايضا : أبوالقاسم أصبغ بن محمد السمح الغرناطي (357 - 415 و . ر) ومن كتبه : المدخل الى علم الهندسة ـ كتاب الهندسة الكبير ـ طبيعة العدد ـ ثمار العدد ـ التعريف بالاسطرلاب ، وغيرها .

نبغت من نساء (غرناطة) الكثيرات ، منهن : حفصة بنت الحاج المعروفة بالركونية فى القرن الحـادى عشر ، وفى القـرن الثـالث عشر : أم العـلاء السيـدة العبـدرية التى نوه بها ابن سعيد الاندلسى ، كما اشتهرت (أم الحسن) بتبحرها فى العلوم .

ومن نسائها من لعبن ادوارا مهمة فى المجال السياسى مثل : (مريم) جارية يوسف الاول ، و (فاطمة) زوجة (أبى الحسن)و (ثريا) جاريته . وإن نسينا اسماء اخرى فلن ننسى بأي حال (عائشة) والدة ابى عبدالله محمد الصغير اخر امراء (غرناطة) .

ومن شاعـرات غرناطة : (حمدونه بنت زياد شاعرة الطبيعة والريف) وأختها (زينب) و (نزوهون بنت القلاعى) شاعرة (المدينة) وغيرهن كثيرات .

بعـد ان عاشت غرنـاطة أزهى ايامها بفضل الاسلام تعرضت لعدد من الاحداث بسبب نشوءالصراع السياسى بين (ملوك الطوائف) فى الاندلس ، حيث سقطت للمرة الاولى بيد النصارى فى شهر الصيف (يونيـو) سنـة 1235 م لكنهـا عادت لتصبح المدينة الوحيدة التى حافظت على ارتباطها بالاسلام حتى عام 1492 م .

ويضيف الاستـاذ الدكتور أمين الطيبى أن « من اسباب سقوط غرناطة اضافة الى ما ذكر وفضلا عن المنازعات بين افراد البيت المالك ما شاب العلاقات بين بنى نصر وبين بنى مرين فى المغرب من ريبة وتذبذب .

فقد كان بنو نصر يستنجدون بسلاطين المغرب فيغيثهم هؤلاء ثم تساور الشكوك سلاطين غرنـاطة ، فيخشون ان يفقدوا ملكهم لبنى مرين ، ولذلك فكثيرا ما كانوا يتواطأون عليهم مع النصارى لابعادهم عن الاندلس .

كذلـك استعمال المهاجين للمدفعية والبنادق فضلا عن حصارهم الطويل للمدينة مما احدث مجاعة بها » .

ودعـونا نعيش لحظة من لحظات الوداع الاخير وذلك عندما « اجتمع الامراء للتوقيع على

معاهدة (تسليم المدينة) بكوا جميعا إلاواحداهو : موسى بن غسان الذى قال للحاضرين « اتـركوا البكاء للنساء والاطفال فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لارسال الدمع ولكن لكي تقطر الدماء ، فلنمت دفاعا عن حريتنا ، ولئن لم يظفر أحد منا بقبر يستر رفاته فلن يعدم سماء تغطيه وحاشا لله أن يقال ان اشراف غرناطة قد خافوا الموت دفاعاً عنها » وغادر المجلس الى داره ولم يره أحد بعدها[5] .

وهكذا دخلت غرناطة الاسلام فى عهد موسى بن نصير وغادرها المسلمون فى عهد رجل اسمه موسى بن غسان .

وكانت (غرناطة) آخر حبات المسبحة التى انفرطت بسبب صراع أبناء الاسرة المالكة وهى اسرة بنى نصر / بنى الاحمر وسقطت المدينة فجر يوم 2 / 1 / 1492 حيث سلم اخر امرائها مفاتيح « قصر الحمراء » الى القائد الاسبانى : دون غريناري .

لقد كانت الايام التى سبقت سقوط غرناطة عصيبة ، تضافرت فيها عدة عوامل نتج عنها اسدال الستار على احدى مظاهر الحضارة المتميزة ، وفى وصف دقيق اثبته « المقرى » نستطيع ان نلمس الصورة المأساوية التى عاشتها غرناطة ، يقول : « وفى ثانى عشرى جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وثمانمائة خرج العدو بمحلاته الى مرج غرناطة ، وافسد الزرع ، ودوخ الارض ، وهدم القرى ، وامر ببناء موضع بالسور والحفير ، وأحكم بناءه وكانوا يذكرون انه عزم على الانصراف فاذا به صرف الهمة الى الحصار والاقامة ، وصار يضيق على غرناطة كل يوم ، ودام القتال سبعة اشهر ، واشتد الحصار بالمسلمين ، غير ان النصارى على بعد ، والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق والطعام من ناحية جبل شلير ، الى ان تمكن فصل الشتاء ، وكلب البرد ، ونزل الثلج ، فانسـد باب المـرافق ، وقـطع الجالب ، وقل الطعام ، واشتد الغلاء ، وعظم البلاء ، واستـولى العـدو على اكثـر الاماكن خارج البلد ، ومنع المسلمين من الحرث والسبب ، وضاق الحال ، وبان الاختلال ، وعظم الخطب ، وذلك اول عام سبعة وتسعين وثمانمائة ، وطمع العدو فى الاستيـلاء على غرنـاطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب ، ففر ناس كثيرون من الجوع الى البشرات ، ثم اشتد الامر فى شهر صفر من السنة ، وقل الطعام ، ثم تفاقم الخطب».

جرت طيلة فترة الحصار عدة مباحثات بين طرفين لم يكونا على قدم المساواة من حيث : القوة والاوضاع العامة ، ونتج عن تلك المشاورات والمحاورات والمباحثات التوقيع على اتفاقية التسليم ، وهـو امـر ذكـره « المقرى » بقوله : « وفى ثانى ربيع الاول من السنة ـ اعنى سنة سبع وتسعين

وثمانمائة - استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد ان استوثقوا من اهل غرناطة بنحو خمسمائة من الاعيان رهنا خوف الغدر ، وكانت الشروط سبعة وستين منها : تأمين الصغير والكبير فى النفس والاهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ، ومنها اقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم احد عليهم الا بشريعتهم ، وان تبقى المساجد كما كانت والاوقاف كذلك ، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا احدا ، وأن لا يولى من المسلمين الا مسلم او يهودى ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل ، وان يفتك جميع من اسر فى غرناطة من حيث كانوا ، وخصوصا اعيانا نص عليهم ، ومن هرب من اسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه ، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه ، ومن اراد الجواز للعدوة لا يمنع ، ويجوزون فى مدة عينت فى مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر ما لهم والكراء ، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره ، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ، وأن من تنصر من المسلمين يوقف اياما حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى ، فان ابى الرجوع الى الاسلام تمادى على ما اراد ، ولا يعاتب على من قتل نصرانيا ايام الحرب ، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى ايام العداوة ، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ولا يسفر لجهة من الجهات ، ولا يزيدون على المغارم المعتادة ، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة ، ولا يطلع نصرانى للسور ، ولا يتطلع على دور المسلمين ، ولا يدخل مسجدا من مساجدهم ، ويسير المسلم فى بلاد النصارى آمنا فى نفسه وماله ، اذ يجعل علامة كما يجعل اليهود واهل الدجن ، ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ، ومن ضحك منه يعاقب ، ويتركون من المغارم سنين معلومة ، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده ، وأمثال هذا مما تركنا ذكره».

لكن الذى حدث اثر ذلك لم يكن يمت الى نصوص هذه الاتفاقية بأى شكل ، ان ما حدث بعد ذلك يعد بحق أسوأ تصرف عرفته الانسانية ارتكز فى اساسه على التعصب الدينى بمباركة مختلف المؤسسات الكنسية وفى مقدمتها بلا ريب الكنيسة فى روما ، فما الذى حدث بعد ان اكتسح النصارى مدينة « غرناطة » ؟ لنقرأ ما يقوله المقرى : « ثم ان النصارى نكثوا العهد ، ونقضوا الشروط عروة عروة ، الى ان آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة اربع وتسعمائة ، بعد أمور وأسباب اعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا : إن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهرا للكفر ، ففعلوا ذلك ، وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة ، ثم تعدوا الى امر آخر ، وهو ان يقولوا للرجل المسلم : إن جدك كان نصرانيا فأسلم فترجع نصرانيا ، ولما فحش

هذا الامر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم ، وهذا كان السبب التنصر ، قالوا : لأن الحكم خرج من السلطان ان من قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا أن يتنصر فينجو من الموت ، وبالجملة فانهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، امتنع قوم من التنصر ، واعتزلوا الناس ، فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما ، فجمع لهم العدو الجموع ، واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا ، إلا ما كان من جبل بللنقة فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة ، وأخرجوا على الامان الى فاس بعيالهم وما خف من مالهم دون الذخائر ، ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله فى خفية ويصلى ، فشدد عليهم النصارى فى البحث حتى انهم احرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ، ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها من الحديد ، وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مرارا ولم يقيض الله لهم ناصرا ، الى ان كان اخراج النصارى اياهم بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر وألف ، فخرجت ألوف بفاس ، وألوف أخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس».

(غرناطة) اليوم لم تنفصل عن تاريخ الامس ، لم تتنكر له ، لم تحاول على مايبدو ان تسدل ستائر النسيان على ماض تولى . . انها مدينة تعيش بعضا من ملامح التاريخ القديمة وهى على اعتاب القرن الحادي والعشرين .

وفى حي (البيازين)** يمكنك ان تلمس صور التواصل من حيث النمط المعمارى السائد ومن حيث الوجود العربى الاسلامى . . ومن خلال بعض « الاماكن المخصصة للصلاة » التى يرتفع من خلالها نداء الحق والايمان خمس مرات كل يوم .

اما خارج هذا الحي فلن تنفصل عن التاريخ رغم انك تعيش حاضرا وترى ملامح غد فيه بعض مما ينبهك الى أن غرناطة لا تزال وفية للتاريخ .

المدرسة لا تزال كما هى منذ قرون : طابعها المعمارى واسمها ، سوق العرب ، القيسارية ، الحمام البخارى العربي . . كلها شواهد لاتجعلك تنسى الماضى وأنت تتحرك مع جيل القرن الحادى والعشرين .

المعلم المهم الذى اختفى نهائيا هو المسجد الجامع الذى كان فى وسط غرناطة والذى حلت محله الكاتدرائية الان وكان قائما فى القرن الحادى عشر ثم وسع وزيد فيه فى القرن التالى وكانت المدرسة او الجامعة تقع امام مبنى المسجد ولا يزال قائما منها منصة التدريس .

وفى العهد النصرى ، أحدث الحاجب رضوان النصرى « ت 28 رمضان 760 هـ / 27 / 8 / 1359 » « المدرسة بغرناطة ولم تكن بها بعد ، وسبَّب اليها الفوائد ، ووقف عليها الرِّباع المغلّة . . . فجاءت نسيجة وحدها بهجة وصدرا وظرفا وفخافة ، وجلب الماء الكثير اليها من النهر »[6] .

يقول السيد هارون كارا جويل أمين جمعية مسلمي غرناطة : يبلغ عدد المسلمين من أبناء غرناطة 300 مسلم تقريبا من أصل 3000 مسلم من جنسيات مختلفة ، بينما يصل عدد سكان منطقة « غرناطة » حوالى 800,000 نسمة .

المسلمون هنا يخشون من التفرق بسبب اختلافات ترجع فى اصولها الى التعصب المذهبي ، اضافة الى مايحدثه الواقع العربى الراهن من شروخ فى صورة يأمل مسلموا غرناطة ان تظل نقية من كل خدش .

وقال الاخ « شعيب محمد عبدالرحمن » أحد مسلمي غرناطة ـ حين التقيته فى بيته ـ عن مظاهر الاختلاف التى يعانى منها المسلمون فى هذه المدينة بأنها ترجع الى بعض الاراء ذات النزعة المتزمتة والتى ترى الاسلام مظاهر وازياء بينما الاسلام كما وجدته ـ يضيف الاخ شعيب دين كامل متكامل دين معاملة وخلق وليس دين مظاهر .

ومع ان المسلمين يحاولون تأمين قدر كاف من التعليم لابنائهم الا انهم لم يصلوا بعد الى مايمكنهم من ذلك . . وما يحصل عليه الابناء من معلومات يتوقف فقط على المجهود الذاتى لكل اسرة . . والمساجد التى هى عبارة عن « اماكن مؤجَّرة » لاتوفر الحد الادنى من التعليم .

ومع هذا فان عددا من ابناء الاندلس المسلمين يحاولون وضع الحلول ولو بشكل نسبى لعدد من القضايا التى تهمهم وتهم أبناءهم .

ان الخطر الحقيقى يكمن فى محاولة البعض استغلال هذا الواقع للتدخل من خلاله فى شئون المسلمين وبث الفرقة وبذر الفتنة فيما بينهم من خلال نشر عدد من الافكار والاراء والمظاهر التى لا تتفق وسماحة الاسلام ، كما لا تتفق وواقع مسلمى غرناطة الذين اكتوى اجدادهم بنار الفرقة والاختلاف .

مع كل ذلك فان مسلمى المدينة متفائلون . . ويأملون ان تكون مدينتهم « غرناطة » هى أولى حبات المسبحة التى ستنتظم مدنا وقرى أخرى فى حركة نحو دين الله الحق : الاسلام .

مدينة « غرناطة » لاتزال تحتفظ بالعديد من المعالم التى أعطتها هوية متميزة لا فى الاندلس

وأوروبا فحسب بل فى الدنيا بأجمعها . . وهوما عبر عنه أحدهم بقوله : اذا حاولنا ان نتحدث عن « غرناطة » دون خصائصها التاريخية الاسلامية فماذا عسانا نقول ؟!

اما « قصر الحمراء فهو المثال المنعدم النظير للعمارة المدنية الاسلامية الذى تتجلى فيه براعة المهندس العربي الذى وضع تصميمه ورسم خريطته وزخرفة جدرانه، وسطر لنفسه بهذه الاعمال الجليلة فيها جمال الفن الاسلامى وعظمة العرب فى صناعة البناء والزخرف »[7] .

---

1 – 5 – 7 ـ الفنون الزخرفية الاندلسية فى المغرب والاندلس . محمد عبدالعزيز مرزوق دار الثقافة ـ بيروت ـ ص 60 + هامش 2 / هامش 4 / ص 92 .

2 ـ الروض المعطار ، ص 33 . الاحاطة ، 1 / 91 – 1 / 131 .

3 ـ معجم البلدان / ياقوت الحموى / دار صادر ـ بيروت 1979 م المجلد الرابع ص 195 .

4 ـ مسجد قرطبة وقصر الحمراء الفكرة والاشراف : محمد المصمودي ، الدار العربية للكتاب ـ طرابلس تونس 1977 ص 102 – 104 .

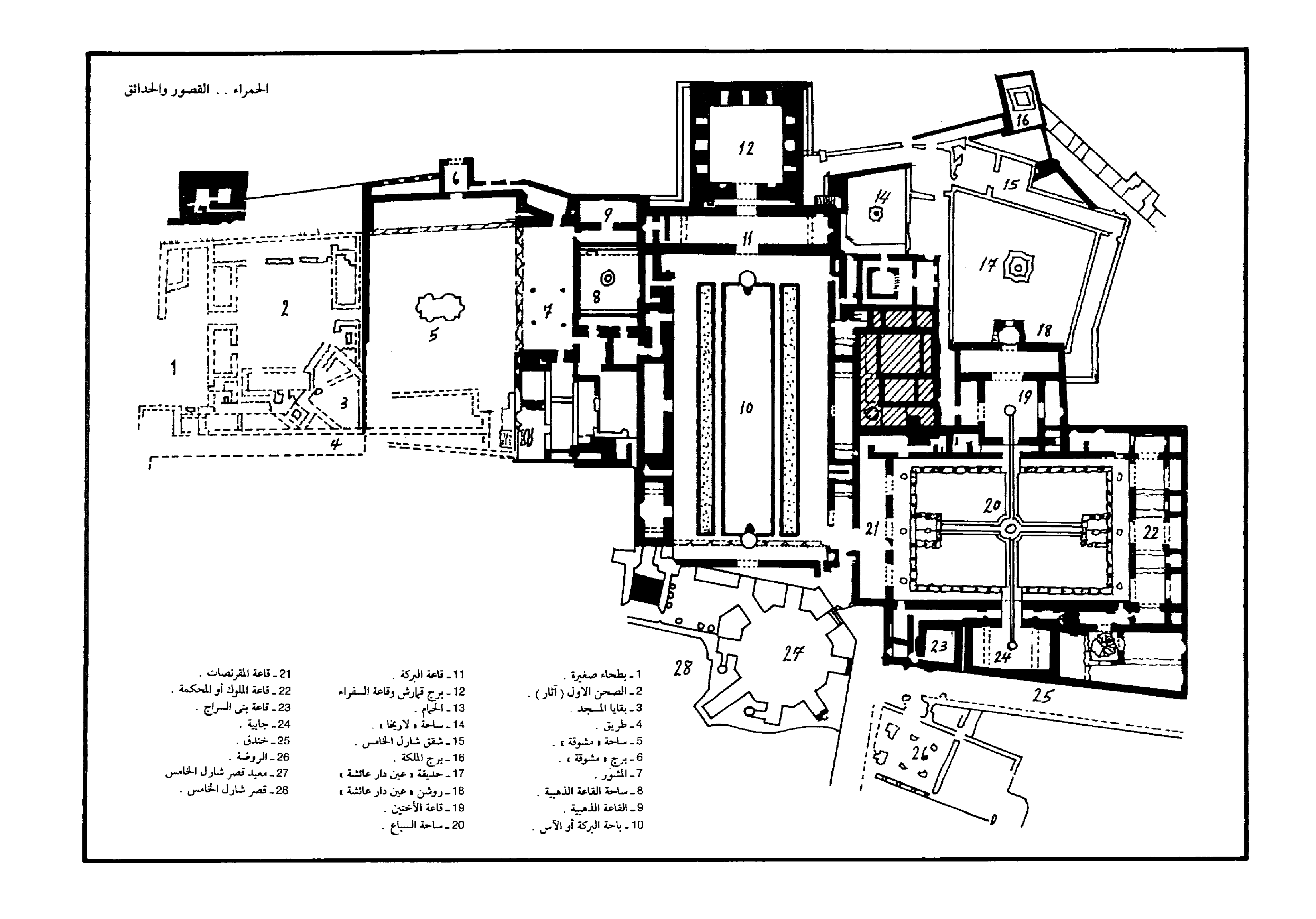
5 ـ تاريخ الادب العربى عمر فروخ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الطبعة الاولى 1981 م الجزء الرابع ص 195 .

6 ـ الاحاطة فى اخبار غرناطة ـ لسان الدين بن الخطيب ج 1 / ص 508 - 509 .

* قدر عدد سكان مملكة غرناطة بنحو مليون نسمة ، بينما قدر سكان قشتالة بنحو ستة ملايين .
D.W.Lomax The Reemguest of Spain,London 1978, P. 162

** « البياسين » نسبة الى مدينة بياسة Baeza – شرقى قرطبة ـ اذ نزح أهلها عنها بعد سقوطها فى ايدى النصارى واستقروا فى الربض او الحى الذى عرف باسمهم الى اليوم « Albayzin »




الحمراء . . القصور والحدائق
1 - بطحاء صغيرة .
2 - الصحن الاول (آثار) .
3 - بقايا المسجد .
4 - طريق .
5 - ساحة « مشوقة » .
6 - برج « مشوقة » .
7 - المشور .
8 - ساحة القاعة الذهبية .
9 - القاعة الذهبية .
10 - باحة البركة أو الآس .
11 - قاعة البركة .
12 - برج قمارش وقاعة السفراء
13 - الحمام .
14 - ساحة « لاريخا » .
15 - شقق شارل الخامس .
16 - برج الملكة .
17 - حديقة « عين دار عائشة »
18 - روشن « عين دار عائشة »
19 - قاعة الأختين .
20 - ساحة السباع .
21 - قاعة المقرنصات .
22 - قاعة الملوك أو المحكمة .
23 - قاعة بنى السراج .
24 - جابية .
25 - خندق .
26 - الروضة .
27 - معبد قصر شارل الخامس
28 - قصر شارل الخامس .

الحمراء : حقيقة لا تدرك !!

« لو وصفنا الحمراء بكل صفات البذخ والثراء والجمال والرونق ، ولو سميناها حسب اهوائنا : دار المفاجآت أو دار العجائب أو دار المعجزات ، ثم ألّفنا فيها الكتب المتعمقة والمدائح الطويلة والاشعار البليغة ، لما خطر ببال من زارها وتنقل في اجنحتها وشاهد روائعها ان يتهمنا بالمبالغة والاسراف ، لأن الحمراء لا توصف ولا تمدح بل تشاهد فقط ، وأي ذاكرة تقدر على تسجيل واستحضار آلاف الصور والمشاهد الماثلة في كل مدخل ونافذة وزاوية »[1] .

ولو حاولنا ان نستخدم كل تقنيات التصوير الثابت والمتحرك وجنّدنا لذلك كل المبدعين في هذا المجال فاننا سنكتشف اننا لن نستطيع نقل ولو جزء يسير من الحقيقة . . فالحمراء كما هي تأبى الا ان تهزم الجميع .

واذا كانت الات التصوير وتقنياته الحديثة استطاعت ان تنقل ادق التفاصيل مما يرى وبعضا مما لا يرى ، فانها ستظل امام الحمراء مجرد آلات بدائية لا يمكنها ان تقترب من الحقيقة فكيف بتسجيلها أو نقلها ؟

واذا كانت الكتابات لا تتشابه مثلما لا يتشابه الكتاب فان الكتابة عن « الحمراء » تخرج عن هذه المسلمة . . ان الكتابات حولها تتشابه وتتماثل ولا تكاد تتبين اختلافا مهمًّا فى كل ما كتب عنها ، شعرا أو نثرا .

اقرأ ما تريد من « شعر » كتب عن الحمراء .

واقرأ ما تريد من نثر كتب عن الحمراء . . ثم حاول ان تتلمس الفرق بين كل ما قرأت . . اكاد اجزم بأن ذلك لن يكون سهلا ، ان لم اقل ـ جازما ايضا ـ بأن محاولة العثور على فروق جوهرية ستكون من باب المستحيل !!

لا تقل : كيف ؟ فذاك امر يخص كل من كتب .

وان كان لابد من ان تسأل فقل : لماذا؟!

وهنا يمكن القول : الحمراء حقيقة لا تدرك !!

ما ان وصلت « غرناطة » حتى بدأت أتطلع من نافذة الحافلة باحثا عن اهم معالمها ، وفى الحقيقة ما كنت ابحث عن شيء سوى « الحمراء » لم يطل البحث كثيرا ، لأن « الحمراء » لا تخفى

نفسها فهي على ما يبدو ليست كغرناطة تستعصى على القادمين اليها . . لم استطع زيارة « الحمراء » في اليوم الاول ، لا لأنني ابحث عن شيء غيرها ولكن لأنني اخترت ان ارى ما حولها أولا . . ولا أخفى ان شعورا غريبا بدأ ينمو في مخيلتي تحول الى رهبة لم ادرك كنهها !!

انها بجدرانها الخارجية مبان صامتة ، وهي في احسن الاحوال تنبئك ـ ان هي تحدثت ـ بأنها تحتل ربوة تطل من خلالها على كل المدينة ، انها ليست « فاتنة » تأخذ بالالباب منذ الوهلة الاولى ، انها « رائعة » تزداد معالم حسنها وضوحا كلما اقتربت منها .

تاريخها : تاريخ مدينة ، تاريخ حقبة من الزمن ، تاريخ حضارة . . تاريخ خاص قلَّ ان يتكرر .

بدىء في بنائها ايام « ابو الوليد اسماعيل » خامس امراء « بنى الاحمر » [تولى من سنة 1314 الى 1325 م] الذي بدأ في بناء القصر ، ثم ابنه « الحجاج يوسف » [تولى من سنة 1333 م الى 1354 م] الذي زاد في القصر ، ثم ابنه « محمد » الملقب بـ « الغنى بالله » [تولى للمرة الاولى من سنة 1354 م الى 1359 م ثم من سنة 1363 م الى سنة 1399 م] وقد وسع من رقعة القصر وألبسه حلة من الجمال الفنى .

استمر بناء « الحمراء » زهاء خمسين عاما ، ويجد المؤرخون صعوبة بالغة في تمييز الاضافات التي احدثها امراء « بنى الاحمر » نظرا لامتزاج الاضافات من جهة ، ونظرا لان البناء شكَّل بعد اكتماله قطعة فنية ليس بين اجزائه اي تنافر من جهة أخرى .

سلمت مفاتيح القصر فجر يوم 1492/1/2 م .

استمرت العناية به طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر .

لحقها الاهمال مدة طويلة في القرن الثامن عشر ، وتأثرت بقصف مدفعى قوى اثر في اسوارها آخر ايام الفرنسيين بأسبانيا .

اهتم بها الاسبان واحاطوها بعناية فائقة فسجلت سنة 1870 م ضمن المعالم القومية .

أهم اشغال الترميم والصيانة بدأت سنة 1915 م .

لم يزر أحد « الحمراء » الا وكتب عنها ، الا ان الظاهرة الجديرة بالتسجيل هنا هي ان الجميع قالوا ما بدا لهم « شعرا او نثرا » . . وما ان يقتربوا منها حتى تتضاءل القدرة على الوصف . . ثم تنعدم تماما حينما يصطدم الكاتب « شاعرا كان ام ناثرا » بجدرانها واروقتها وحدائقها .

وهنا تلتقى « الحمراء » بغرناطة في صفة الاستعصاء . . انها تستعصى على الجميع ، يتوقف

الادراك المصور والمعبر ، ولن يبقى في الواقع الا : الانبهار ولا شي سواه .

السقوف والجدران والاروقة واعمدة الرخام والنوافذ ونافورات الماء والحدائق كل جزء يسير منها يشكل حالة خاصة نادرة تنمى في الرائى شعورا بالانبهار . . قد تقرأ هنا آية من القرآن الكريم ، وقد تفلح ان تقرأ بيتا من الشعر في جزء آخر ، وقد تكتشف ان كل ما تراه هو عبارة عن حرف عربى يبحر عبر القرون رغم انه لم يغادر هذا الجدار أو ذاك الجدار .

« ولا غالب إلا الله » عبارة لا يمكنك ان تهرب منها فهى موجودة في كل شيء تقريبا . . وهو شعار بنى الاحمر الذى استقر بعدهم على جدران الحمراء حتى الآن !!

من الثابت تاريخيا ان اي معلم اسلامى « لم يكتسب قط اعجاب الادباء الغربيين مثلما اكتسبت الحمراء » وقد زارها كبارهم في القرن الماضي مثل « شاتوبريان » الذي ألَّف حولها قصته « آخر بنى السراج » و « فيكتور هوجو » الذي كتب « شرقياته » الشهيرة و « واشنطن ارفنغ » الذي خلف اثرا ادبيا قيما سماه « قصص الحمراء » وكذلك « ثيوفيل غوته » و « لايتن » وله قصة سماها « ليلى » ، و« امنوال فرناندز غنزلاز » الذي سمى كتابه « الله أكبر » ، وغيرهم كثير ممن نسجوا على منوال الكاتب « برازدى هيتا » في كتابه « الحروب الداخلية في غرناطة » . . . ولم يكن اهتمام الادباء العرب بها اقل فزارها [عدد كبير منهم] لكن مشاغلهم واحاسيسهم ازاءها كانت مغايرة لمشاغل ادباء الغرب ، حيث اتوها للبكاء على اطلالها وتركوها بحسرة واسى »(2) .

يبدو انه ليس من المجدى تقديم وصف للحمراء ، لا لأن ذلك من نافلة القول ، بل لانه من الامور التى لا أدعى اننى استطيعها .

ما يمكن قوله في هذا الصدد بعض الملاحظات :

ثمة رسم على « باب الشريعة » أول ابواب القصر يمثل « كفًّا » مفتوحة بجوارها رسم لمفتاح . . وحول هذا الرسم عدة اساطير . . منها ان المسلمين في غرناطة كانوا يقولون بأن مفاتيح « الحمراء » لن تسلم الا اذا تحركت الاصابع المرسومة نحو المفتاح !!

لقد كان تسليم مفاتيح « الحمراء » معلقا على امر مستحيل . . لكنه حدث ! وثمة من يفسر الرسم بأنه يشير الى قواعد الاسلام الخمس .

الا ان « مارثيدس مارتين » مرافقتى صحبة الاخ هارون كاراجويل اخبرتنى وهى تشير الى النقش بأن ثمة رأيا لدى المسيحيين حول هذا الرسم مؤداه ان المسلمين لن يعودوا الى « غرناطة » الاا اذا تحركت اليد المرسومة نحو المفتاح .

وهو امر مستحيل بالنسبة للرسم لكن عودة الاسلام الى « غرناطة » اصبحت امرا واقعا .

« ومن الغريب ان الكثيرين من أهل « غرناطة » يعلق كفا في حزامه أو على بابه ظنا منهم بأنها تحمى من يحملها من الحسد »[3] .

وهو تفسير منتشر في بعض الاقطار العربية من بينها الجماهيرية وهو ما يعرف عندنا باسم « الخميسة » .

حين تجولك في « الحمراء » لا يمكنك ان تشعر بالوقت وربما بالزمن ، وهو أمر لمسته حينما فوجئت بأن خيوط شمس الغروب بدأت تنعكس على جدران القصر لتضفى عليها جلالا ورهبة . . كيف لا و أنت ترى بالعين المجردة غروبا يجلل « الحمراء » ذات مساء وغروبا جللها منذ الاف الايام !!

وما ان حلت لحظات الغروب حتى انطلقت في الارجاء من الكنيسة المضافة الى « الحمراء » الموسيقى والترانيم الكاثوليكية . . انه تأكيد للغروب الحسى على ما يبدو .

سألت مرافقيَّ : هل هذا تقليد يومى ؟

لم اجد لديهما جوابا محددا !

غادرنا « الحمراء » سيرا على الاقدام . . وتلاشى صوت الاناشيد الكنسية امام اصوات الطيور العائدة الى أوكارها وخرير المياه المنبعث من « القنوات » و « المساقط » والتى تخترق « الحمراء » وغابتها الكثيفة .

ثم تلاشى كل شي حينما ابتلعتنا شوارع « غرناطة » في طريق العودة . . وحينما داهمت اسماعنا ضوضاء القرن العشرين .

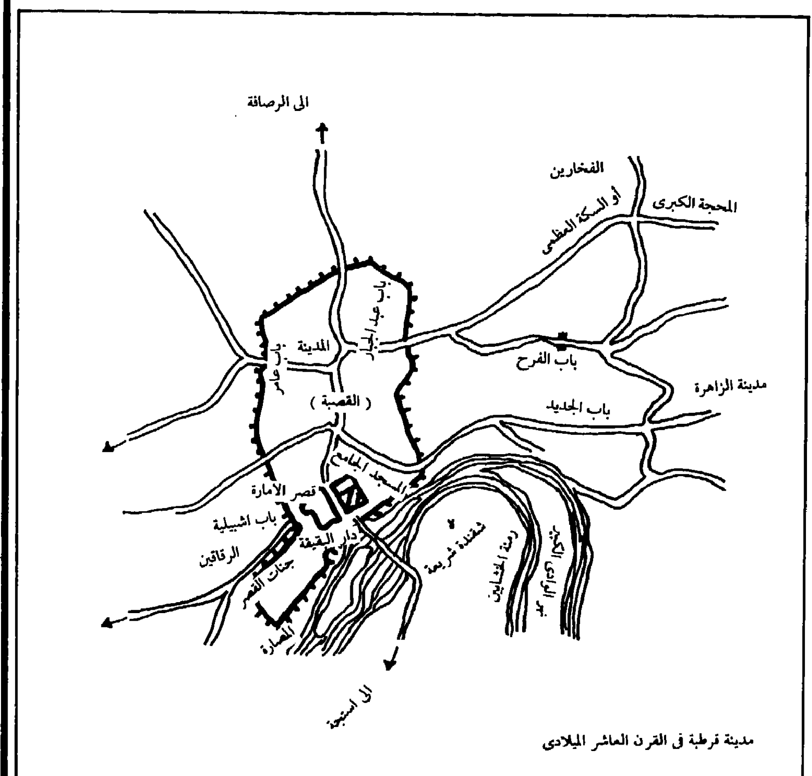
ان لحظة اليقظة من الانبهار الذى تفرضه « الحمراء » على زوارها لا تأتى دائما بشكل سريع . . ربما يظل الانبهار ساعات أو اياما . . وربما اشهرا وسنوات .

وأبى مضيفاى الا ان يؤكدا على ذلك حينما سألتنى « مارثيدس » أثناء تناولنا العشاء ببيت الاخ هارون : قلعة الحمراء رائعة . . اليس كذلك ؟!

1 ـ مسجد قرطبة وقصر الحمراء نصوص   عبد العزيز الدولاتي ـ نشر الدار العربية للكتاب ليبيا ـ تونس 1977 ص 116 .
2 ـ نفسه ص 110 – 111 .
3 ـ الفنون الزخرفية الاسلامية في المغرب والاندلس   محمد عبد العزيز مرزوق ـ دار الثقافة ـ بيروت ص 93 .

* فيما يتعلق بالمعلومات التاريخية تم الرجوع الى   عدد من الكتب عن الاندلس وغرناطة .
ورد ذكر « الحمراء » فى نصين من كتاب « التبيان » للامير عبد الله بن بلقين ، آخر امراء بنى زيرى فى غرناطة والذى الفه فى منفاه فى المغرب « بعد ان خلعه المرابطون » فى حدود عام 487 هـ / 1094 م .
1 ـ النص الاول ص : 54 يقول : « وصار اليهودى [يوسف بن النغريلة وزير ابن باديس بن حبوس ، جد الامير عبد الله] متنقلا من داره الى القصبة حذرا من العامة ، حتى يتمَّ ما أمل [كان اليهودى متواطئا مع صاحب المرية المعتصم بن صمادح لخلع باديس بن حبوس] ، فأنكر ذلك الناس مع بنيانه لحصن الحمراء * على انه اذا دخل ابن صمادح البلد ، صار هو بأهله اليها [اى الحمراء] الى ان تتوطد الحال » .
* على هذا النص يعقب الاستاذ الدكتور امين توفيق الطيبى قائلا : « اثناء الفتنة بين العرب والمولدين فى كورة إلبيرة [غرناطة] سنة 276 هـ / 889 م ، احتمى العرب بحصن غرناطة ولما كان سور الحصن متداعيا ، فان المدافعين العرب كانوا يقاتلون نهارا ويرممون السور ليلا ، ويعتقد ان الحصن كان يقوم على أقصى الطرف الغربى من السبيكة ، وقد أخلي فى الايام الاخيرة لخلافة قرطبة ، ويبدو أنه هو حصن الحمراء الذى اعاد بناءه يوسف بن النغريلة « ابن حيان القرطبى : المقتبس 3 / ص 56 ، 62 ؛ ابن الابار : الحلة السيراء ، 1 / ص : 149 .
2 ـ النص الثانى ص 130 : « وذلك انى [المتكلم هو الامير عبد الله صاحب كتاب « التبيان »] لما أمرت ببنيان السور المتصل بالحمراء ** . . . هيأت السعادة ان وجد البناؤون قمقومًا مملوءا ذهبا أعلمونى به ، فلما وقفت عليه ألفيت فيه ثلاثة آلاف مثقال [دينار] جعفرية . . . فاستبشرت بها وقلت : من اساسه يقوم بنيانه . . . وكانت دار ابى الربيع اليهودى الخازن للاموال فى دولة جدى ـ رحمه الله ـ مبنيَّة على ذلك الاساس فعلمنا انه من ماله المدفون » .
** وحول هذا النص يقول د . أمين الطيبى : « سبق ان ذكر الامير عبد الله حصن الحمراء الذى رممه يوسف بن النغريلة فى فترة مداخلته لصاحب ألمرية (التبيان ، ص 543) ، وكان هذا الحصن يقوم على الطرف الغربى من السبيكة ، التى عرفت كذلك بالحمراء لكون تربتها وحجارتها حمراء اللون .





مدينة قرطبة فى القرن العاشر الميلادى

قرطبة : تاريخ يتواصل

بين « قرطبــة » و« الجـاهـيريـة » عدة روابط يأتى في مقـدمتهـا بلاريب كون « مصحف الجماهيرية » كتب وفقا لرسم « الدانى » والدانى هذا هو أحد ابناء « قرطبة »* .

وفي طرابلس احدى مدن الجماهيرية محلة تسمى « محلة قرطبة » وهى موطن اقامتى - حتى كتابة هذه الاسطر - ولعله من محاسن المصادفات ان زيارتى لمدينة « قرطبة » كانت يوم جمعة ، وهو امر لم يأتِ مصادفة بل كان بناء على اختيار محدد سلفا لارى مسجدها الجامع في يوم « جمعة » .

وكنت في قرارة نفسى ارسم صورة لآلاف المصلين وهم يذكرون الله في مسجد استمرت عمليات بنائه وتوسيعه أكثر من قرنين .

يبـدو اننى استـطعت اجتياز عقبة ، والعقبة التى اعنيها تتجسد في صعوبة اختيار مدخل الحديث عن « قرطبة » والصعوبة هنا امر متيقن .

وللحديث عن « قرطبة » الف مدخل أو يزيد ، لا اقول ذلك مبالغة . . وحسبى ان أورد بعضامنها على سبيل المثال لا الحصر للتدليل على صحة ماذهبت اليه .

الحديث عن « قرطبة » يمكن ان يبدأ من عبد الرحمن الداخل ، ويمكن ان يبدأ من ابن حزم أو من القـرطبى صاحب التفسير الشهير ، أو من ابن حيان المؤرخ المشهور أو من ابن عبد البر صاحب كتاب « الاستيعاب » أو من « ابن زيدون وولاده بنت المستكفي » أو من زرياب وابن فرناس وابن عبد ربه صاحب « العقد » وابن الكتانى والزهراوى الطبيبين .

ولك ايها القارىء الكريم ان تعدد اكثر من الف اسم لاتقل اهمية عمن ذكرت .

والحديث عن « قرطبة » يمكن ان يبدأ من : مسجدها الجامع أو من قصور الزهراء أو قصور الزاهرة . . ولك ايها القارىء ان تعدد اكثر من مائة اثر لاتقل أهمية عما اشرت اليه .

والحديث عن « قرطبة » يمكن ان يبدأ من سلسلة الاضطرابات التى عاشتها المدينة واشهرها « ثورة أهل الربض » أو من تسلط الوزراء على الامراء أو من صورة البذخ الخيالى الذى عاشته المدينة .

الم أقل لك بأن بداية الحديث عن مدينتنا مهمة صعبة ؟!

صبـاح الجمعـة 26 / 2 / 1988 الساعة السادسة والنصف صباحا كنت في محطة الحافلات

بمدينة « غرناطة » قاصدا « قرطبة » ومنيت النفس برحلة سريعة حيث ان المسافة بين المدينتين لاتزيد عن 170 كيلو مترا . . . الا ان ذلك لم يحدث .

استغرقت الرحلة اكثر من اربع ساعات . . وخلال هذه الرحلة لمست ما معنى ان يكون الاندلس موصوفا من قبل المؤرخين بكونه حديقة الحضارة العربية الاسلامية . . ان اشجار الزيتون على سبيل المثال لا تنقطع مزارعها من ضواحى غرناطة وحتى مسافة 30 كيلو مترا قرب « قرطبة » تقريبا . . لا يخلو منها جبل أو سهل .

ان كل القـرى التى مرت بها الحافلة والتى توقفت فيها جميعا اما لنقل الركاب أو لتوزيع الصحف الصادرة صباح ذلك اليوم أو لتوزيع البريد ـ ان كل تلك المدن والقرى لاتزال وفيه للتاريخ بقلاعها أو بحصونها أو ببقايا اسوارها أو بنمط معمارها أو بأسمائها ، ومنها مدينة « قبرة » التى كتب اسمها باللغة العربية على اللوحة الارشادية المشيرة اليها ، و « لقبرة » اسم ورجال ودور تحفظه لنا كتب التاريخ .

عند منتصف النهار تقريبا تبدَّتْ « قرطبة » بمبانيها البيضاء المتناثرة في سهل منبسط تحرسها سلسلة من المرتفعات وما ان يتتبع المرء مسار نهرها المعروف منذ قرون باسم « الوادى الكبير » حتى تقع عيناه على اهم معالمها التاريخية الباقية منذ ثمانية قرون .

« وقـرطبة » التى رأيتها تختلف كثيرا عن« قرطبة » التى كنت اتوقع رؤيتها . . اشياء كثيرة طواها النسيان ، وأقل القليل كان ـ على مايبدو ـ قادرا على الافلات من سجلات التاريخ .

ولقد « ظلت قرطبة سيدة المدن . وكانت بضواحيها الثماني والعشرين في عصر الخليفة عبد الرحمن الثالث « الناصر لدين الله » حوالى منتصف القرن العاشر اكبر مدن أوروبة كلها ، وعلاوة على تلك القصور حوت قرطبة 13,000 منزل و 600 مسجد و 300 حمام و 80 مدرسة و 17 مدرسة عليا ، و 20 مكتبة عامة فيها عشرات الآلاف من الكتب . كان ذلك حال « قرطبة » في وقت لم يتجاوز فيه تعداد اى من المدن الاوربية 30 ألف نسمة اذا استثنينا القسطنطينية . ولم يكن في هذه المـدن اقليم اوربى يملك مدرسـة عليـا أو مستشفى ؛ كما ندر فيهـا وجـود المكتبـات العامة او الحـمامـات . ولم تعرف أوربا انذاك الانارة والشوارع المرصوفة بل كانت شوارعها مظلمة ملأى بالقاذورات والوحل .

وبينما جريدة « كولونيا الالمانية » تصف اضاءة الشوارع بمصابيح الغاز في عددها الصادر يوم 28 مارس 1819 م بأنه شر مستطير من البشر يهدد الظلام الالهى كانت شوارع قرطبة حوالى عام 950 م

تزدان بثمانين الف متجر وتضاء ليلا بمصابيح ثبتت على حيطان المنازل وتباشر فيها اعمال النظافة عن طريق عربات القمامة التى تجرها الثيران .

ومضى على ذلك قرنان من الزمن قبل ان تتخذ باريس عام 1185 م من قرطبة مثالا لها فترصف شوارعها ، وتنظفها . ومضى قرن آخر قبل ان تحذو بقية المدن الاوربية حذو باريس .

وتسجل الراهبة الشاعرة « هرزوفيتا » وهى في صومعتها بدير « جانورزهايم » بسكسونيا بشمال ألمانيا اعجابها بقرطبة في أغنية جميلة :

« قرطبة المدينة الشابة هى زينة الدنيا .

قرطبة شهيرة . . بجمالها فخورة بقوتها .

قرطبة هى التى حوت كل شيء تزهو به المدن »[1] .

لقد اعطتنا « قرطبة » اكثر مما أخذت ، انجبت رجالا ونساء تظل الاحاطة بهم غاية لاتدرك منذ الفتح العربى الاسلامى مرورا بعبد الرحمن الداخل الى ان أصبحت عاصمة للخلافة في اول ذى الحجة 316 هـ 3 / 1 / 929 م على عهد عبد الرحمن بن محمد (الناصر لدين الله) حيث غدت بسبب القوة والوجاهة والسلطة مكانا يحتكم اليه الامراء الاسبان النصارى في خلافاتهم الداخلية[2] . . ومرورا « ببنى جهور » الى ان ضمها « المعتمد بن عباد » الى اشبيلية سنة 1071 . ظلت هذه المدينة تنجب اساتذة العالم وبناة الحضارة وكأنى بها تستعجل اهداء النوابغ الى تاريخنا في فترة ضيقة وقصيرة خشية الضياع الذى كانت نذره في الافق والذى ادركته المدينة قبل ان يدركه رجالها .

لقد ظل طابع الاستعجال صورة ملازمة لقرطبة في اغلب مراحل عمرها العربى الاسلامى . . ونستقطع من كتب التاريخ بضعة اسطر لعلها تجسد لنا صفة الاستعجال تلك . لقد تعاقب على حكم المدينة 16 خليفة في 22 سنة فقط !

وكأنى بكل واحد منهم يريد ان يدخل التاريخ بشكل عاجل وسريع خشية أن تلتهمه سرعة الاحداث في « قرطبة » . . فما ان خلع هشام بن الحكم « الخليفة » في جمادى الآخرة سنة 400 هـ ونصب مكانه محمد المهدى حتى هو جمت قرطبة وخلع محمد المهدى ونصب مكانه سليمان بن الحكم في ربيع الاول 400 هـ ثم عاد محمد المهدى ثانية واعيد هشام ، وبعد ثلاث سنوات اى في شوال 403 هـ / 1013 م خلع هشام ونصب سليمان بن الحكم مرة ثانية ، وبعد ان سالت الدماء انهارا في قرطبة قتل هشام وبقى سليمان في الخلافة ثلاث سنوات وثلاثه أشهر ثم نودى بعلى بن حمود خليفة ، ثم قتل ونودى بعده بعبد الرحمن المرتضى في رمضان 408 هـ ، 1018 م . وبعد شهرين جاء القاسم

بن محمود الى عرش قرطبة ، ثم خلفه بعد اربع سنوات يحي بن حمود ، ثم عاد القاسم ثانية الى الحكم ، ثم جاء عبد الرحمن بن هشام الى الخلافة ، وبعد شهرين جاء محمد المستكفى ـ وكانت ابنته ولادة اشهر منه في تاريخ السياسة وتاريخ الادب ـ ثم جاء يحي بن حمود الى الخلافة مرة ثانية ، ثم جاء هشام المعتمد ليحكم اربع سنوات انتهت بقتله سنة 422 هـ 1031 م وبسقوط الدولة الاموية في قرطبة[3] وسقطت قرطبة نهائيا في يد المسيحيين سنة 1236 م .

وصلت الى المسجد بعد منتصف النهار بقليل وقبل الدخول اليه آثرت الاطلاع على ما حوله ، وقادتني قدماي الى مبنى جميل بمحاذاة المسجد ، ووجدت بصحنه شجرة نخيل منفردة وتذكرت قول عبد الرحمن الداخل :

تبدَّتْ لنا وسط الرصافة نخلة	تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : شبيهي في التغرب والنوى	وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي
نشأت بأرض انت فيها غريبة	فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن في المنتأى الذي	يسح ويستمرى السماكين بالوبل

ثم غادرت ذلك المبنى لاتجه نحو المسجد ولاجد نفسي في صحن البرتقال . . كنت العربي الوحيد الموجود في المسجد حينذاك اخترت الانضمام الى مجموعة من السواح .

جامع قرطبة الاعظم والذى نحن في مدخله الآن بدأ بناءه عبد الرحمن الداخل ودام بناؤه 12 شهرا . . ثم شيد هشام الاول المئذنة ، وزاد عبد الرحمن الثانى اروقته ومحاريبه ورفع محمد الاول مقصورته ، وشيد عبد الرحمن الثالث منارته العظيمة سنة 951 م . وزاد الحكم الثانى امتداد أروقته الاثنى عشر وشيد الى جانبه دارا ذات ثماني زوايا تعلوها قبه معقودة على رخامات حلزونية الشكل ، ومقصورة جديدة لها اقواس متقاطعة مفلطحة وقبب ذات اضلاع رائعة الشكل ، وفي زمن الحاجب المنصور (محمد بن ابى عامر) زيدت اروقة الجامع فبلغت تسعة عشر ، وفي كل رواق خمسة وثلاثون عمودا ، واحيط الجامع بسور ذى شرفات عالية ، وواحد وعشرين بابا شامخا ، وفي وسط الجامع حوض عظيم للوضوء[4] .

والجامع من اهم المباني الفاخرة التى زهت بها الاندلس . . .

لقد حوى هذا المسجد 1400 عمود من اقواس الدائرة ويتدلى من السقف المصنوع من خشب الارز 4700 مصباح من الفضة لتضيء تسعة عشر رواقا طوليا تتقاطع مع ثلاثة وثلاثين رواقا

عرضيا[5] .

المسجد الآن لايزال يحتفظ ببعض خصائصه المعمارية لكنه فقد جموع المصلين التى كانت تقدر بالآلاف خاصة في يوم كيوم زيارتى له « الجمعة » وفقد مهابته وخصوصيته كونه بيتا للصلاة بسبب بعض المظاهر التى شاهدتها والتى لاتتفق وجلال الكان .

داخل المسجد كاتدرائية لكنها مجرد مظهر نافر لايتفق وهندسة ونمط المكان . . وبالرغم من عظمتها فانها لم تبلغ مساحة بيت الصلاة . . وقد قال عنها الامبراطور « شارل الخامس » للقسيسين الذين اشرفوا على بنائها « إن ما أنجزتموه هنا نجده في كل مكان وما هدمتموه ليس له نظير في العالم »[5] .

بقيت بالمسجد حتى الساعة الثالثة والنصف ظهرا ، واغلب الفترة كانت امام المحراب الذى لايزال يحتفظ بكل نقوشه والوانه . . وواجهته لاتقبل المقارنة مع اى محراب ، وذلك بفضل كسوتها الفسيفسائية الجميلة وزخارفها الدقيقة المحفورة على الرخام والحجارة ، ومما يجلب الانتباه الكتابات الكوفية المحيطة بقوس المحراب وهى على نوعين : شريط افقى مكتوب بحروف زرقاء على ارضية ذهبية ، وشريط مرسوم في الاطار المستطيل الشكل ومكتوب بحروف ذهبية على ارضية زرقاء .

ومن الاماكن الملفتة للانظار محراب الحكم الثانى المحورية التى تبدو بعقودها المشبكة والمحموله على السوارى المتراكبة كانها زخارف خيالية صنعتها يد سحرية ويرجع ذلك الى ان الفنان الاسلامى يعالج المواد الحاملة للزخرفة المعمارية بنفس الدقة والثبات اللذين يتبعهما حينما يستعمل المواد الاكثر طواعية والارفع قيمة كالمنسوجات والمعادن الثمينة فيسمو بها الى أقصى حدود الكمال أو بالاحرى الى صور صادقة للانماط المثالية المرسومة في اعماق ذاكرته[6] .

جميع الزوار يمضون اطول فترة زيارتهم لبيت الصلاة امام المحراب وما ان يتجهوا بانظارهم صوب القبة التى تعلوه حتى تختلط اصواتهم وتعليقاتهم التى تنم عن انبهار لا نظير له . . ذلك ان هذه القبة تعتبر وبمختلف المقاييس احدى آيات الفن المعمارى وشكلها على هيئة نجمة مثمنة الزوايا تحتوى فى اعلاها على صدفة ، اما عناصر زخرفتها فهى نباتية محورة عن الطبيعة ذات الوان ذهبية . . وتبقى هذه القبة فريدة من نوعها رغم كل المحاولات لتقليدها[7] .

إن الحديث عن قرطبة ومسجدها لايمكن ان ينتهى بسهولة ، خاصة عندما تتداخل في ذاكرة

الزائر صور متعددة . . بامكانك ان تلمس اهتماما وإهمالا !

إن شعورا بعمق الجرح داخل مسجد قرطبة الموصوف بغابة الاعمدة يظل يلازمك . . ومع هذا فان بيتا من الشعر لابى القاسم الشابى يختزل كل شىء في ذاكرة التاريخ :

واشدُّ مامضَّ القلوب ورضَّها عزُّ الصليب وذلَّةُ المحراب

---

1 – 5 ـ شمس العرب تسطع على الغرب / زيغريد هونكة / تعريب / فاروق بيضون وكمال الدسوقى / المكتب التجارى بيروت / الطبعة الاولى 1964 م ص . 486 – 499 .

2 – 3 ـ تاريخ الادب العربى / عمر فروخ / دار العلم للملايين ـ بيروت / الطبعة الاولى 1982 م ج 4 ص 166 وما بعدها .

4 – 8 ـ تاريخ العرب / محمد أسعد طلس ـ دار الاندلس ـ بيروت المجلد الاول ـ الطبعة الثالثة 1983 م ص 258 .

6 – 7 ـ مسجد قرطبة وقصر الحمراء / نصوص : عبد العزيز الدولاتى / الدار العربية للكتاب / ليبيا ـ تونس 1977 م ص 68 / 70 .

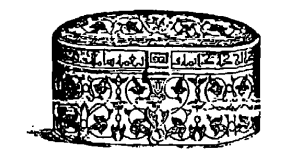
* كتب هذا المصحف برسم الدانى ، والدانى هو أحد أبناء قرطبة وهو أبو عمرو عثمان بن سعيد بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر المعروف بابن الصيرفي .

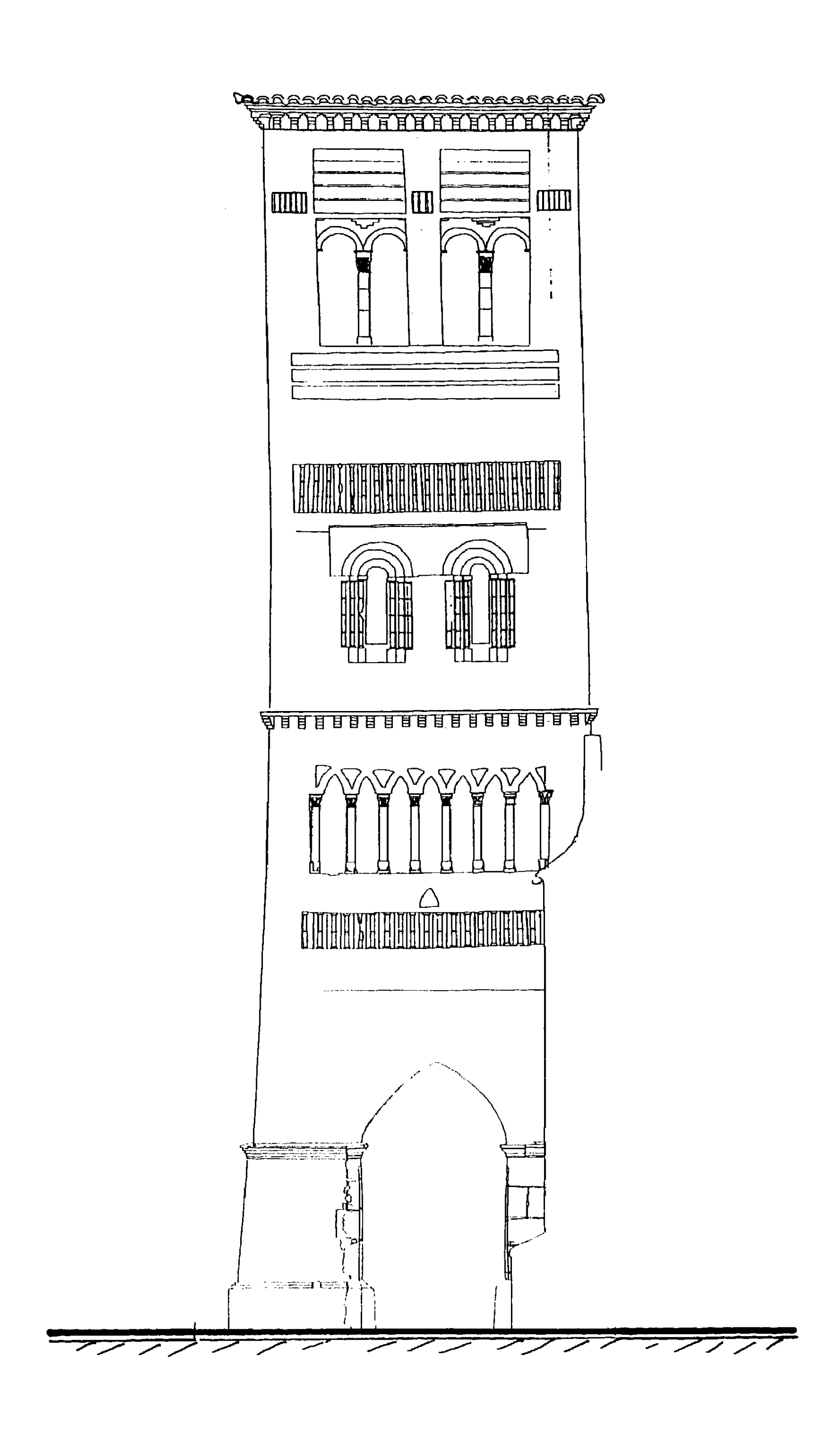
ولد سنة 360 أو 361 من وفاة الرسول ﷺ 982 ميلادية في قرطبة . بدأ طلب العلم فيها ثم رحل الى المشرق العربى والتقى عددا كبيرا من العلماء .

عاد الى الاندلس واستقر بقرطبة يقرىء القرآن ويضع المؤلفات الى سنة 392 من وفاة الرسول ﷺ ثم غادرها الى سرقسطة ومنها الى دانية سنة 398 من وفاة الرسول ﷺ ثم غادرها الى جزيرة ميورقة وبقى بها ثمانية اعوام .

عاد الى دانية واتخذها دارا وسكنا ، وعرف منذ اقامته الثانية فيها بلقب « الدانى » .

توفى رحمه الله في منتصف شهر شعبان سنة 433 من وفاة الرسول ﷺ الموافق : 12 / 12 / 1052 ميلادية .





مئذنة جامع اشبيلية باقية منذ 800 سنة

عندما قرأت ما كتبه « ابن صاحب الصلاة » عن مئذنة جامع اشبيلية الاعظم فى كتابه « المَنّ بالامامة » أحسست ان الرجل يعطينا صورة شبه خيالية لمعلم ربما اصبح اثرا بعد عين . . . يقول « ابن صاحب الصلاة » : « . . . وهذه الصومعة الفايت وصفها للناطقين ، السابق حديثها الى المخبرين ، لا صومعة تعدلها فى جميع مساجد الاندلس ، سمو شخص ، ورسو أصل ، ووثاقة عمل ، وبنيان بالآجر ، وغرابة صنعة ، وبدائع ظاهرة ، قد ارتفعت فى الجو وعلت فى السماء تظهر للعين على مرحلة من اشبيلية مع كواكب الجوزاء[1] .

واذا كانت « اشبيلية » لا تتميز فقط بمئذنة جامعها بل تتميز بما لا يمكن ان يحيط به المرء فى مقالة او زيارة قصيرة فان مئذنة جامعها الاعظم لابد وان تكون الاولى من حيث الاهمية التاريخية ومن حيث كونها اول معلم يراه القادم الى اشبيلية . . . صحيح انها ليست « مع كواكب الجوزاء » كما قال « ابن صاحب الصلاة » لكنها من العلو والارتفاع ما يجعلها متميزة ومتفردة .

ومن قبيل المقارنة بين وصف « ابن صاحب الصلاة » لها وبين ما تراه العين المجردة ابحرت فى رحلة نهرية عبر الوادى الكبير ، وبدأت ملامح المدينة : ابنيتها وابراج كنائسها تتوارى خلف اشجارها لتظل فقط مئذنة الجامع الاعظم شامخة لا تخطئها العين . . . وحين العودة لا يمكن ان يلمح المرء أى معلم من معالم اشبيلية الا مئذنة جامعها الاعظم .

ولعل « ابن صاحب الصلاة » لم يكن مبالغا بوصفها بانها « لا صومعة تعدلها فى جميع مساجد الاندلس ، سمو شخص ورسو أصل » وكأنى بالرجل يقول ذلك لا لمن عاصروه فحسب ، بل يقوله لكل زوار المدينة منذ اليوم العاشر من شهر المريخ « مارس / آذار » من عام 1198 م « 10 / 3 / 1198 » وهو يوم انتهاء الاشغال فيها .

بمحاذاة الكنيسة او الكاتدرائية كما يطلق عليها هناك ، يرتفع هذا البناء بنقوشه وزخارفه ونوافذه وطوابقه ان صح التعبير . . . .

تقول المصادر التاريخية المتاحة انه « بتاريخ 26 من شهر الماء « مايو » سنة 1184 للميلاد بوشر البناء لاول مرة بواسطة اول المهندسين وهو احمد بن باسه ، ولكن معظم الاعمال تمت تحت اشراف على الغمارى وانتهت بتاريخ 10 من شهر المريخ « مارس » من عام 1198[2] ومعنى ذلك ان تشييد هذه المئذنة استمر زهاء خمسة عشر عاما وهى فترة شهدت عدة متغيرات لعلنا لسنا معنيين بها بشكل

رئيسى لاننا هنا لا نؤرخ لحدث بقدر ما نحاول ان نعطى صورة لمعلم حضارى ، صورة تختزل الزمان والحجم !

وان كان اختزال الاحجام اصبح من السهولة الى درجة لا تكاد توصف ! فان اختزال الزمان يظل حلما بعيد المنال :

وعلى الرغم من ان المصادر المتخصصة فى تاريخ مئذنة جامع اشبيلية تذهب الى انها كانت الاولى من نوعها فان « كارل بروكلمان » يدفع برأى مؤداه ان المئذنة كانت على غرار المئذنة التى شيدها عبد الرحمن الثالث سنة 951 م لجامع قرطبة والاغرب من هذا ما ذهبت اليه نادية شعبان حين قالت بأن المئذنة كانت فى الاساس برجا بناه العرب لرصد النجوم[3] .

ان لصاحب كتاب « المن بالامامة » اكثر من معلومة ايجابية صححت بعض الاخطاء التى قدمت وكأنها مسلمات لا سبيل الى مراجعتها خاصة فيما يتعلق بمئذنة جامع اشبيلية حيث اشتهر فى كتب التاريخ الاسبانى الحديث ان اسم المهندس الذى قام ببناء « الخيرالدا » باشبيلية مجهول تماما ! وظن بعض المؤرخين ان الذى اضطلع بمهمة بناء المسجد هو جابر بن افلح الاشبيلى ، لكن ابن صاحب الصلاة وهو شاهد عيان يكشف النقاب عن المهندس العربى الكبير الذى لم نرله ذكرا فى غير « كتاب » ابن صاحب الصلاة ، ونحن نعلم ان هذا المهندس كان مقيما فى اشبيلية ومنها توجه لجبل طارق سنة 555 هـ ثم الى قرطبة[4] .

فمن هو أحمد بن باسُه هذا ؟

« يظهر اسم « أحمد بن باسه » فى عام 1160 م ، وينسب اليه تنظيم وتشييد القلاع والقصور وبيوت جبل طارق ، وبعدها بسنتين نجده فى قرطبة حيث يقوم باعمال هامة فى تجديد المدينة .

وفى عام 1171 كلف بتشييد البحيرة ، ومنذ ذلك الوقت بقى فى اشبيلية يصمم ويدير أعمال مشروع الجامع الكبير وخاصة مشروع الصومعة والمسماة فيما بعد « خيرالدا » ، وفى عام 1185 م ضاعت اخباره فى الوقت الذى كان تشييد الصومعة فى أولى مراحله »[5] .

هذا ما امكن تجميعه فى احدث كتاب عن المئذنة التى تعرف باسم « الخيرالدا » وقبل ان نسوق للقارىء الكريم سبب هذه التسمية نعود لاعطاء وصف عام للمئذنة مستعينين بالله اولا وبما تم انجازه من خرائط ضوئية وصور ورسوم ثانيا وما رايناه بالعين المجردة .

مئذنة جامع اشبيلية شأنها شأن جميع ما ابدعه العرب المسلمون فى الاندلس من حيث ان الوصف والتصوير مهما كانا دقيقين لا يمكن بأى حال ان يغنيا عن المشاهدة ، او لم نقل نحن العرب

فى كتب امثالنا التى هى عصارة تجاربنا « ليس راء كمن سمع » ؟

ومع هذه الصعوبة فان المحاولة بحد ذاتها ربما تعطى صورة تقريبية .

مبنى المئذنة والذى لا يصل الى ارتفاعه اى مبنى آخر فى المدينة يعتبر حاليا من ضمن « الكاتدرائية » ، مدخله يقع فى الجانب الايمن منها ، وهذا المدخل بتواضعه وصغر حجمه لا ينبئك بما انت مقدم عليه ، ولولا ملامح الدهشة وعبارات الانبهار التى ستراها وتسمعها من القادمين من الرحلة داخل المئذنة لولا ذلك فانك ستشعر بانك تدخل مكانا متواضعا يسكنه الهدوء والصمت .

وما تكاد تخطو قليلا حتى تجد على يسارك لوحة رخامية تختزل تاريخ المبنى فى بضعة اسطر تقول : « أمر الخليفة ابو يعقوب يوسف عريفه احمد بن باسه بتشييد هذه الصومعة فى 13 من صفر من عام 580 هـ « 26 مايو 1184 م » فأتم بناءها على الغمارى فى عقب ربيع الآخر من عام 593 هـ « 19 مارس 1197 م » خلال خلافة ابى يوسف المنصور فجدد المهندس فرنان رويث هذه الصومعة وزاد فى اعلاها قبة الاجراس فى عام 1568 فنقش هذه الكتابة فى عام 1984 تمجيدا للذكرى المئوية الثامنة لانشاء هذا المنار العظيم العجيب »

ثم تنطلق فى رحلة ـ نعم رحلة ـ تدور فيها داخل هذا الجسم 35 مرة لتصل الى الشرفات المطلة على اشبيلية ، وفى الطريق ـ نعم الطريق ـ لانك لا تصعد سلما أو تستخدم درجا وانما تصعد على ارض منبسطة يقول المؤرخون عنها بانها كانت لتسهيل مهمة المؤذن الذى ربما يكون متقدما فى السن ويضطر لاستخدام « دابة » للوصول الى اعلى المئذنة ، فى هذا الطريق ستجد سبع غرف اى بعد كل خمس « منحدرات » أو « صعدات » أو « دورات » او ان شئت بعد كل خمس « منعطفات » حول المركز .

عندما تصل الى الشرفات المفتوحة تكون قد كونت صورة مبدئية عن « أشبيلية » من خلال « فتحات » او « نوافذ » تطل من خلالها على المدينة ، وعند وصولك الى الشرفة تكون على ارتفاع 47 مترا و 27 سنتيمترا .

عندها ستنسى ولو لدقائق ان الارتفاع الكامل للمبنى لا يزال يطاول عنان السماء ، ستغرق كغيرك فى تأمل الوادى الكبير ومبانى اشبيلية ومزارعها .

بقى ان تعلم ان المبنى يصل ارتفاعه حتى آخر نقطة من تمثال مقياس الريح يبلغ 94 مترا و 70 سنتيمترا .

وهذا التمثال هو احد المعالم التى اضيفت للمبنى ، ذلك ان ما كان موجودا بأعلى المئذنة هو ما ذكره « ابن صاحب الصلاة » واصفا حفل « ازاحة الستار » عن المبنى - ان صح هذا التعبير - بقوله : « فلما وصل امير المؤمنين . . . أمر . . . فى مدة اقامته باشبيلية بعمل التفافيح الغريبة الصنعة العظيمة الرفعة الكبيرة الجرم ، المذهبة الرسم . . . وكان عدد الذهب الذى طليت به هذه التفافيح الثلاث الكبار والرابعة الصغرى سبعة آلاف مثقال كبار يعقوبية . . . ولما كملت سترت بالاغشية من شقاق الكتان لئلا ينالها الدنس من الايدى والغبار . . . ورفعت بالهندسة حتى الى اعلى صومعة الصومعة . . . وذلك يوم الاربعاء عقب ربيع الآخر بموافقة التاسع عشر من شهر مارس العجمى من عام اربعة وتسعين وخمسمائة ثم كشفت عن اغشيتها فكادت تغشى الابصار من تألقها بالذهب الخالص وبشعاع رونقها »[6] .

ويقول « أبو ابى ثار » فى وصفه لتلك التفافيح « كرات حديدية » ان « الذى صنعها ورفعها فى اعلى المنار المعلم ابو الليث الصفار ، موهت تلك التفافيح بمئة الف دينار ذهبا » .

فى اشبيلية المعاصرة تعتبر المئذنة أحد أهم وابرز انماطها المعمارية ، وهى فى الواقع مركز الحركة السياحية ، واذا قدر لك ان تستخدم عربات الخيول فى جولة باهم معالم المدينة فان نقطة الانطلاق اما ان تكون من الميدان الذى تطل عليه واما ان تكون نقطة النهاية فى الميدان ذاته ، واذا لم يحدث ذلك فان المرور بها شرط اساسى ، ولا تستغرب عندما يؤكد لك صاحب العربة ان المئذنة التى بناها العرب هى أجمل بكثير من « الكاتدرائية » الملحقة بها ، يقولها لك علنا وهو يشير بيده ويلتفت اليك ويوقف العربة ان علم انك لم تزرها .

ومعنى هذا انه رغم مرور مئات السنين ورغم ما تعرضت له المئذنة من كوارث ومن تغييرات واضافات ظلت عربية شامخة قوية لم يستطع الاسم الجديد الذى اطلق عليها وهو « الخيرالدا » ان يفصلها عن سياق تاريخها .

و « الخيرالدا » تسمية « ليست بعيدة الزمن نسبيا حيث انه في القرن الثامن عشر كان يسمى برج « لاتورى » وان لفظ خيرالدا كان يطلق على الهيكل البرونزى المرفوع اعلى البرج بمثابة دوارة للهواء ، الا انه فى زمن الكاتب الشهير « ثير فانتس cervntes » اطلق على البرج التسمية الحالية « خيرالد » حيث وصفه الكاتب فى القسم الثانى من كتابه دون كيشوت elquiote « ذلك العملاق

الشهير فى اشبيليا المسمى خيرالدا »[7] .

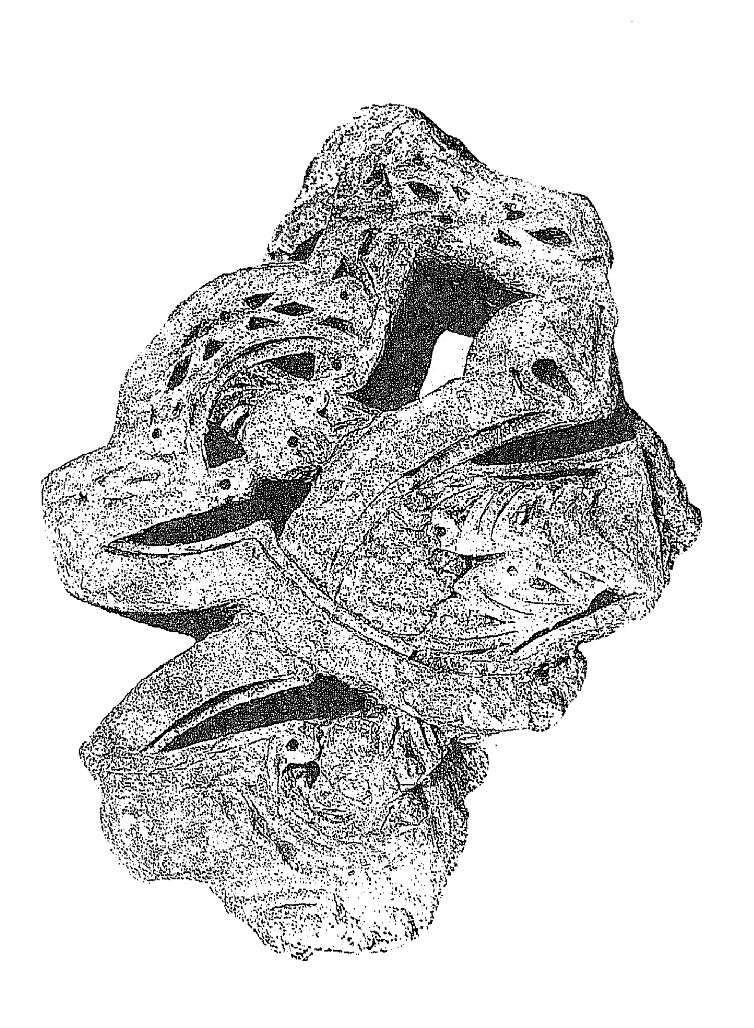
وعلى الرغم من ان المئذنة كما أحب ان أسميها او « الخيرالدا » كما اختار « سيرفانتس » ان يسميها تنتصب بشموخ بالقرب من احدى روائع الاندلس « قصر اشبيلية » الا أنها تستوقف اهتمام كل القادمين الى المدينة .

بقى ان اشير الى ان ثمة من يحاول اثبات ان هذه المئذنة كانت من عمل احد المهندسين اليهود ، تذكرت هذا عندما اقترب منى احد السياح قائلا : ما معنى المئذنة بالعبرية ؟

التفت الى الصديق خالد العلمى وعلامات الاستغراب بادية بوضوح على وجهه واذكر اننى قلت : وما علاقة اليهود بالمآذن ؟ الا اننى وبعد الاطلاع على محاولات الاستيلاء على كل ما نملك عبر تاريخنا الطويل علمت بأن كل شيء نتركه سنفقده ولن يجدى بعد ذلك كوننا بنينا او كتبنا او بكينا مع « البسطى » آخر شعراء الاندلس حين قال :

لمصاب اندلس تصوب الا دمع   ولما جرى فيها تذوب الا ضلع
فلها مع الاعداء حال تفزع   تقضى بحسرة من يرى او يسمع
وتكاد مهجته له تتصدع[8]

1 , 6)ـ المن بالامامة ـ تأليف عبد الملك بن صاحب الصلاة ـ تحقيق عبد الهادى التازى ـ دار الغرب الاسلامى ـ الطبعة الثالثة 1987 ، ص : 390 وما بعدها .
2 , 5 , 7)ـ الخيرالدا ـ بقلم خيمينيث مارتين وانطونيو الماغرو غروبيا ـ نشر المصرف العربى الاسبانى 1985 م ص : 13 وما بعدها .
3)ـ مختارات من لوركا ـ ناديا ظافر شعبان ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ بيروت الطبعة الاولى 1981 ص : 116 ـ هامش رقم « 1 » .
4)ـ المن بالامامة ص : 382 هامش رقم « 3 » .
8)ـ البسطى آخر شعراء الاندلس ـ . محمد بن شريفة ـ دار الغرب الاسلامى الطبعة الاولى 1985 م ص : 172 .



ساعات في قصر اشبيلية

قصور اشبيلية عديدة لاتحصى ، من بينها : المبارك والبستان وسعد السعود والزاهر والزاهي والثريا .

انها ـ وكما كانت اشبيلية ـ مدعاة للعجب ، كانت قصورا جمعت الى فن العمارة فنونا أخرى : النقش والزخرفة وحياة صاخبة مليئة بما امتلأت به الاندلس : الشعر والموسيقى وكل ما من شأنه ان يفجر أنهار الشعر والموسيقى : الحدائق والعطور والمقتنيات .

وتلتقى قصور اشبيلية مع (قصر الحمراء) فى خاصية الاستعصاء على الوصف فهى بدائع تزار ولا توصف ، ولايمكن لأية وسيلة نقل مرئى ان تنقل الحقيقية او جزءا منها .

وعندما حاول الاسبان التحدث عن أحد القصور الباقية لم تسعفهم اللغة او آلات التصوير بشىء ذى بال لذا قالوا عن القصر الاشبيلى فى كتاب مصور : كثيرا ما تسأل نفسك هل حقا شاهدت هذه الاشياء على الطبيعة أم ان ذلك كان مجرد حلم لذيذ ؟!

ومع هذا الاعجاب فان المؤرخين الاسبان سواء منهم من أعد النبذة المقتضبة عن هذا المعلم الحضارى العربى الاسلامى او الذين اهتموا بفترة الفن (المدجن) أو أولئك الذين اسندت لهم مهمة اعطاء المعلومات للزوار والسواح والذين تخرجوا من معاهد او جامعات اسبانية ، كل اولئك يصرون على تجاوز احقاب مهمة من تاريخ القصر وتاريخ اشبيلية وتاريخ الاندلس .

يقولون فقط بأن هذا القصر بناه المغاربة Moros ! وهى صفة تطلق فيما يبدو على العرب والمسلمين عموما .

وحسب المعلومات المتوفرة فانه لم يبق من هذا القصر الا حائط (المهدى) والباحتان الخارجيتان .

ويبدو ان ما هو مراد من خلال المعلومات المقتضبة واليسيرة عن الفترة الاولى لهذا القصر تهدف الى تأكيد احدى المعطيات المتعلقة بتاريخ العرب والمسلمين من حيث كونهم هم الذين جعلوا اشبيلية وقرطبة وغرناطة والمرية وسرقسطة والف قرية وقرية اسبانية مهوى قلوب عشاق الابداع الحضارى !

زرت هذا القصر الواقع على مسافة قريبة من مئذنة جامع اشبيلية المعروفة حاليا باسم (الخيرالدا = الدوَّارة) وبقدر ما أثارته تلك الزيارة من شعور بالاعتزاز وانا احاول قراءة النصوص

المنقوشة على جدرانه بقدر ما شعرت بالانقباض من خلال شعورى بأن شيئا ما غير صحيح وغير دقيق يلف هذا القصر بناء على المعلومات التى يزود بها السواح من مختلف بقاع العالم .

وفى لحظة واحدة اجتمع أربعة سواح وشمل حديثنا بادىء ذى بدء بعض الملاحظات السلبية أبدتها امرأة امريكية تجاوزت العقد الخامس من عمرها لامرأة يابانية تجاوزت على ما يبدو العقد الثالث ، كانت المسنة الامريكية تتحدث عن المغرب بشكل اثار حفيظة زميلى العربى المغربى ، مما دعاه الى التدخل بشكل مهذب لتصحيح بعض المغالطات . . ثم تطرق الحديث الى أمور أخرى كان (القصر) الذى نحن فى وسطه من بينها .

وعلى الرغم من الزعم القائل بأن هذا القصر قد اندثر ذات مرة الا ان ما نحن بداخله لايمكن بأى حال الا ان يكون مبنى عربيا إسلاميا من خلال هندسته وزخرفته والآيات القرآنية التى تزين جدرانه وأبيات من الشعر العربى تسجل لفترة عربية من أزهى وأبهى فترات تاريخ اشبيلية والاندلس .

بالقصر جزء يسمى (المدجن) ، وهذا الجزء يعود تاريخ بنائه الى عام 1326 م وهو من انجاز المعماريين العرب المسلمين مع المسلمين الاندلسيين .

وعندما يتحدث الاسبانيون عن هذا الجزء يقولون ـ مثلما هو مدون فى كتاب عن اشبيلية ـ : الزخرفة والديكور لفنانين من طليطلة(!) ولا يضيفون شيئا آخر .

ولعل الكاتب كان يدرك حتما ان كل زائر لهذا القصر سيتوقف امام الزخرفات والنقوش التى يؤدى فيها الحرف العربى دورا اساسيا وبارزا ، ولذا فهو يقول : ان تناغم وانسجام الالوان مثير للدهشة والاعجاب حيث نجد الازرق والذهبى والاحمر والاخضر تشكل توليفة متمازجة مع الزخرفة المصقولة بسطح لامع مع تلك التى كسيت بالجص .

ان واجهة المبنى الذى ينتمى فنيا الى (الفن المدجن) تعتبر من أجمل الامثلة الفنية المدجنة فى اسبانيا قاطبة . والناظر اليها بتمعن سيحس برهبة واجلال يفرضهما الفن والتاريخ .

وكلما تعمقنا فى القصر ـ يقول الاسبانيون ـ نشعر برهبة الماضى السحيق تفرض ذاتها علينا بشكل حاد ، ففى هذا القصر العظيم ثمة اعمال تخلب اللب سواء منها تلك المكسوة بالاجر الملون او السجاجيد المزدانة بالصور والرسومات او تلك الاعمال الاسلامية المكسوة بالجص .

فى القسم الذى أضيف الى القصر تحدثت الدليلة السياحية عن مجموعة من السجاجيد المطرزة

برسوم تاريخية تغطى جدران هذا القسم ، ولو قدر لاحد ان يزيل تلك السجاجيد لبقيت جدران هذا القسم جرداء موحشة ، لكن لا احد بامكانه ان يزيل شيئا من تلك الزخارف والنقوش فى القسم الاول من هذا القصر ، لان تلك الزخارف والنقوش هى من بنية جدران المبنى ، وثمة فرق واضح بين سجادة علقت على حائط لتخفى الوحشة وتعطى للزائر إحساسا مؤقتا بالانبهار ثمة فرق بين هذه وتلك الجدران التى تحكى بذاتها ما لا يحتاج الى شرح او دليل سياحى .

وفيما كنا نستمع الى الشرح والايضاح قالت الدليلة السياحية وهى تشير الى اعمال من الفسيفساء الجدارية بأن الالوان فى هذه القطع ليست متناسقة ومتقنة مثل تلك التى شاهدناها فى القسم العربى ، واضافت بأن ذلك يعود الى ان سر مزج الاصباغ وطريقة فرز الالوان حين التصنيع كان ميزة عربية .

ان من أهم ميزات العمارة العربية الاسلامية فى هذا القصر ـ وفى غيره بلا ريب ـ هى تلك التى تجعل البناء فى حد ذاته قطعة فنية ، بينما نجد ان الاجزاء او المبانى التى لا تنتمى الى المدرسة العربية الاسلامية تستعين بعوامل أخرى بهدف اضفاء طابع الجمال والاناقة على المبنى .

الجدار العربى الاسلامى الاندلسى بحد ذاته قطعة فنية . لكن غيره يظل فى أمس الحاجة الى مكملات .

ولذا فان جميع الاثار العربية الاسلامية فى الاندلس لاتحتوى على قطع أثاث ومع هذا فهى تبهر الزوار .

ان حوائط وأسوار ساحة الاسود فى قصر اشبيلية ـ موضوع حديثنا ـ والتى بنيت فى عهد الموحدين فى القرن الثانى عشر الميلادى تعتبر ـ وحسب رأى الاسبان انفسهم ـ شاهدا عظيما يدل على الاعجاب بتلك الحقبة التاريخية .

تعرض هذا القصر كغيره من الآثار لعدد من الحوادث التى اثرت وبشكل واضح فى قيمته الفنية ، واعمال الترميم التى لايلمسها الزائر الا بعد تمعن تدل على ان اعمال الصيانة لم تكن متقنة تماما .

وفيما كنت أحاول قراءة احدى الجداريات لبعض الزوار العرب لمست ان السياق العام لما كنت أقرأه ليس منسجما ، ثم وبشكل واضح رأيت ان اللوحات الجصية التى تؤرخ لهذا المبنى ليست موضوعة بشكل دقيق .

ثمة جمل متقطعة ، وثمة بعض الجمل وضعت بشكل مقلوب مما استدعى قراءتها من اليسار

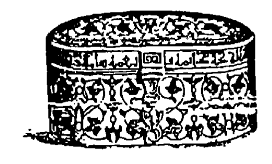
الى اليمين ، اضافة الى ان بعض الاماكن تحوى لوحات جصية وضعت بطريقة عشوائية .

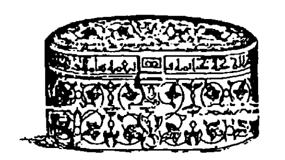
ولا أدرى هل ان اعمال الترميم التى تمت فى هذا القصر كانت دون تدقيق او انها تمت دون الرجوع الى استشارة احد يتقن اللغة العربية .

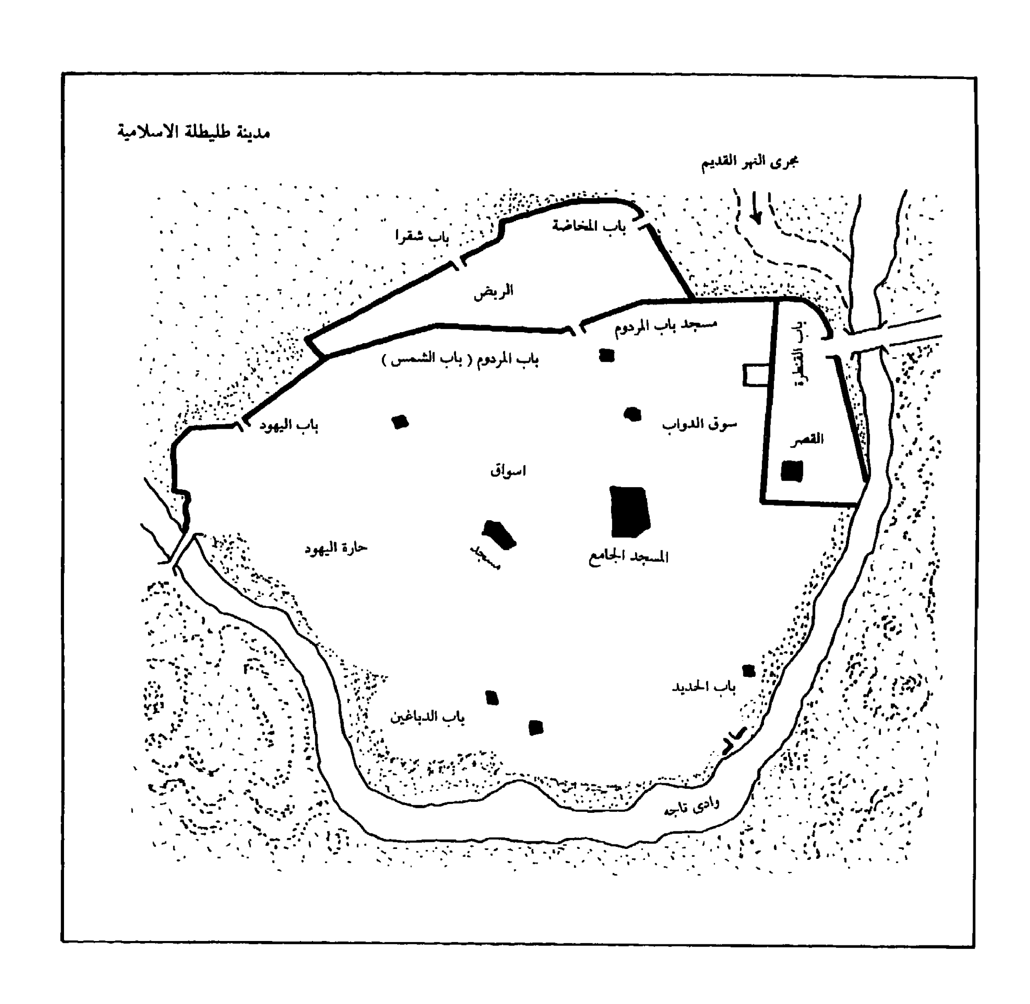
الا ان الغريب حقا هو ان لا أحد على ما يبدو كان مهتما بمثل هذا الامر وبخاصة حينما علمت بأن ما لاحظته لم يكن مثار اهتمام بعض المسئولين الذين التقيتهم داخل هذا القصر . . لقد قال أحدهم : لا أحد من الزوار اثار اهتمامنا بمثل هذا الامر .

لعل أهم ما ينتبه اليه زائر قصر اشبيلية هو ذلك الزعم القائل بأن ردهات هذا المعلم الحضارى شهدت انتقاء الامراء ابان الفترة الاندلسية أجمل النساء . ولعل هذه المعلومات تعود الى ما يشعر به البعض حيال موضوع (اعتماد الرميكية) و (والمعتمد بن عباد) .

ومع كل ذلك وغيره مما لا يسمح المقام لبسط الحديث حوله سيظل قصر اشبيلية بزخارفه وحدائقه الغناء والتى كما وصفها الاسبانيون مزيج رائع بين الذوق والفن العربى حيث التناغم الممتاز بين روائح الزهور والورود المختلفة والايقاعات المائية الهادئة المنبعثة من نافورات جميلة . . سيظل كل ذلك خير شاهد وأعظم دليل على ما غرسه العرب المسلمون فى تلك الربوع من أسس حضارية أين منها أعمدة الرومان وتماثيل الاغريق وابنية القوط المندثرة جميعها ؟ !






مدينة طليطلة الاسلامية
مجرى النهر القديم
باب المخاضة
باب شقرا
الربض
مسجد باب المردوم
باب المردوم (باب الشمس)
باب القنطرة
باب اليهود
سوق الدواب
القصر
اسواق
حارة اليهود
مسجد
المسجد الجامع
باب الحديد
باب الدباغين
وادى تاجه

طليطلة : خصوصيات متعددة !!

تتميز مدينة (طليطلة) بأنها ذات خصوصيات متعددة . . فهي على مدار التاريخ اشتهرت بكونها مدينة لاتقبل الاندماج مع غيرها من المدن .

وهي بهذه الصفة تطل من اوراق ومجلدات التاريخ على الرغم من السياق الذي قد يكون بعيداً عنها بشكل ملحوظ ، لها حضورها الذي يأتى احياناً بطريقة غير متوقعة .

لقد عرفت المدينة حيناً من الدهر بأنها عاصمة نهاية العالم ، ذلك لأن شبه جزيرة (ايبريا) كانت نهاية العالم بالنسبة للانسان قبل أن يبحر غرباً نحو العالم الجديد .

ولايجد اهلها غضاضة في إحاطتها بعدد من الحكايا في محاولة لاعطاء المدينة موقعاً متفرداً . . لقد اعتقد اهلها وأعلنوا بأن المدينة احتضنت ذات زمن كلا من (داود وسليمان وعيسى وذي القرنين والخضر عليهم السلام) ومهما كانت الاحاديث التي تساق لتأييد هذه الفكرة فان مجرد ترويجها يعني من بين مايعنيـه أن (طليطلة) جبلت على التميـز . . وثمة من يعلن بأن (طليطلة) هي مدينة (دقيانوس) صاحب أهل الكهف . . بل يتسع خيال البعض ليؤكد بأن اهل الكهف يقيمون في احدى روابيها !

وروابي (طليطلة) تشـد الانتبـاه ، وربما بسبب شبهها لمرتفعات اليمن اختارها اليمنيون للاقامة بها بعد الفتح الاسلامي ، ولذا يردد البعض بأن (طليطلة) مدينة يمنية .

من خصـوصيات المدينة التى ذكرها « ياقوت الحموى » ان الغلال تبقى فى مطاميرها زهاء سبعين سنة ولا تتغير وهى مشهورة بزعفرانها ذى الجودة المرتفعة .

واذا كنت قد أثبت ان المتنقل فى ربوع الاندلس لا يستطيع ان يرد طرفه عن النفاذ فى اعماق الطبيعة الاندلسية فاننى ـ وهى المرة الوحيدة ـ لم أستطع أن أطلق العنان لبصرى طوال الطريق من « مدريد » الى « طليطلة » وبمسافة 70 كيلو مترا ، لا لأن الطبيعة هنا تختلف عن غيرها أو لأنها تقل بهاء ، ولكن لان حوارا مهما شد كل اهتمامى داخل الحافلة التى ذهبت بواسطتها الى « طليطلة » .

كان حوارا متميزا حول المدينة التى شددنا الرحال اليها ، كما شمل جانبا من وجهات نظر الاسبانيين حيال التاريخ العربى والوجود العربى الحالى . . وثمة جانب خاص من هذا الحوار تجسد فى سوق بعض القصائد التى كانت فى مجملها تدور حول ما يحس به العربى وهو يرى ويلمس

ويتنشق هواء الاندلس الرطيب .

ان أوروبا وعن طريق مدن الاندلس ومن بينها « طليطلة » عرفت كيف تجعل للربيع معنى ، وعرفت كيف ترتدى ملابسها ، وعرفت كيف تتطيب ، وعرفت كيف تمسك بزمام العلوم .

تقع المدينة على ضفة نهر « تاجه » وكانت قبيل الفتح العربى الاسلامى عاصمة للقوط ، وهى حينذاك مدينة محصنة يقبع فيها كبار رجالات الدولة ونبلاؤها وتتجمع فيها كنوز البلاط وذخائر الكنيسة .

وحينما كانت « الدعوة الاسلامية » تستهوى القلوب اختار « روذريق » مدينة « طليطلة » ليستنفر من خلالها كل طاقات المملكة بما فيها خصومه السياسيون المنهمكون فى حبك المؤامرات ضده ، ليحاول من خلال هذه الخطوة وقف انتشار الاسلام الذى لامس نوره شغاف قلوب آلاف الاسبانيين .

وحين قضى الله أمره ارتضت المدينة الاسلام دون مقاومة ، وتقول كتب التاريخ بأن « طارق ابن زياد » حينما وصل المدينة لم يجد بها الا اليهود « الذين كانوا اكثر المبتهجين بسقوط طليطلة وانهيار مملكة « روذريق » فكانوا الى جانب العرب يقدمون لهم الخدمات العسكرية والمدنية وهو الدور الذى كان نابعا من موقف اليهود من النظام القوطى الذى أضر كثيرا بمصالحهم التجارية والمصرفية[1] .

من خصوصيات المدينة أيضا احتضانها للقائدين العربيين المسلمين « طارق بن زياد » الذى وصلها صحبة كتائب الدعوة و « موسى بن نصير » الذى قضى بها شتاء سنتى « 714/713 هـ » .

ازدهرت المدينة وأضحت مثالا حيا يؤكد مبدأ التسامح الاسلامى فى الاعتقاد ، ولذا تنوع سكانها . . فمن « المولدين وهم الاسبان الذين اعلنوا اسلامهم » الى المستعربين وهم الاسبان الذين اندمجوا فى المجتمع العربى دون ان يتخلوا عن المسيحية اضافة الى اليهود الذين وجدوا فى الاسلام العدالة والامن والحرية . . واستمرت الاسقفية الكاثوليكية فى اداء مهامها بحرية مطلقة . . ومع هؤلاء عاش المسلمون فى رحاب طليطلة يدافعون عنها ويوطدون أركان دين الله يعلمون الناس ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

ساهمت المدينة كغيرها من مدن الاندلس فى نشر الثقافة العربية الاسلامية وانجبت الاف الرجال والنساء الذين شكل اسهام كل فرد منهم لبنة متميزة فى صرح الحضارة التى عم نورها ارجاء اوروبا والعالم .

كما انها شهدت على مدى ايام الوجود العربى الاسلامى احداثا جساما نتجت عن عدة عوامل

فى مقدمتها ذلك التنوع الكبير بين سكانها من حيث المعتقد ومن حيث الانتماء ومن حيث المصالح المتبادلة والمشتركة احيانا والمتعارضة والمتناقضة احايين اخرى :

من ولاتها (سليمان بن عبدالرحمن الداخل) والذى اصطحبه والده (عبدالرحمن) طفلا اثناء هروبه الشهير ، وفيها تم التحالف بين (سليمان وعبدالله) ابني (عبدالرحمن) ضد اخيهما (هشام) الذى سار الى المدينة واخضعها سنة 788 م . . . .

ثارت المدينة بزعامة (هاشم الضراب) على الحكم المركزى سنة 829 م. واستمرت ثورتها حتى سنة 837 م . وتلقت طليطلة ضربة عنيفة على يد (الامير الاموى محمد) الذى قضى على ثورتها سنة 858 م .

ساندت (ابن عبدالجبار) فى ثورته على (سليمان بن الحكم المستعين بالله) واستقبلت بعده ابنه الذى ظل بها واعلن ثورته من خلالها[2] .

فى آخر ايامها كمدينة اسلامية سيطر عليها (المأمون بن ذى النون) ابان حركة الانشقاق التى عمت الاندلس ، وأصبحت مدينة مستقلة تحت حكم (آل ذى النون) حتى استولى عليها المسيحيون عام 478 هـ / 1085 م .

من رجالها :

ابوالوليد هشام بن احمد ، الكاتب المعروف بابن الوقشى (408 - 489 هـ) رجل واسع العلم بعدد من فنون المعرفة : بالحديث والفقه وباللغة والنحو وبالخطابة والبلاغة والشعر وبالحساب والفلك والهندسة وبالفرائض وبالمنطق . . من شعره :

برَّح بى ان علوم الورى   اثنان ما ان فيهما من مزيد : .
حقيقة يعجز عن تحصيلها   وباطل تحصيله لا يفيدْ

صاعد الطليطلى ولد سنة 1029 م . من مؤلفاته (طبقات الامم) أوجز فيه تاريخ الفكر والعلم عند الامم القديمة وعند العرب ، تولى قضاء طليطلة وروى عن ابن حزم وغيره . توفى فى شوال 462 هـ / يوليو 1070 م[3] .

الزرقالى الفلكى الماهر (493 هـ / 1100 م) أعد اكثر من 400 بحث كانت أهم نتائجها اثباته بأن أوج الشمس لدى طلوع النهار يعادل أوج الشمس لدى هبوط الليل ، ثم أجرى حساب قيمة هذا الاوج . ترجم اعمال (الزرقالى) الفلكية (جيرارد الكريمونى) الى اللاتينية ، وعرف فى بلاد

الغرب باسم (أرزخال) وهو اشهر من بنى الآلات ، كما انه مخترع الصفيحة التى دخلت الى ميدان علم الفلك تحت اسم (الاسطرلاب الزرقالى)[4] .

جودى بن عثمان ، رحل الى المشرق العربى والتقى كلا من (الكسائى) و (الرؤاسى) و (الفراء) . و (جودى) هو اول من أدخل كتاب (الكسائى) الى الاندلس .

ابوبكر محمد بن أرفع رأسه ، تولى قضاء (طلبيرة) غرب (طليطلة) وله موشحات ذاعت على ألسن اهل الاندلس ، ومكانته فى الموشح تلى مكانة (ابن عبادة القزاز) .

ابن الخياط الاندلسى : **توفى بطليطلة بين سنتى 1055 / 1056 م وهو أحد البارعين فى الهندسة والفلك وفى الطب دقيق المعالجة ، كما كان ايضا بارعا فى النحو واديبا شاعرا . . من اقواله :**

لم يخل من نوب الزمان اديب	كلا فشأن النائبات عجيب
وغضارة الايام تأبى ان يرى	فيها لابناء الذكاء نصيب
وكذاك من صحب الليالى طالبا	جدا وفهما ، فاته المطلوب

ابومحمد عبدالله بن فرج بن غزلون **المعروف بابن العسال ، ولد فى طليطلة وتعلم بها ، تولى القضاء فى (طلبيرة) ثم عاد الى طليطلة وعندما سقطت المدينة انتقل الى (غرناطة) . . من شعره يرثى مدينته :**

يا أهل أندلس ، حثُّوا مطيَّكُمُ	فما المقام بها الا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه ، وارى	ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

ابوعيسى لبون بن عبدالعزيز المعروف بذى الوزارتين . عمل وزيرا فى (طليطلة) للمأمون بن ذى النون ، ثم لاخيه (يحيى) ، وبعد سقوط (طليطلة) تولى القضاء فى (بلنسية) ثم اصبح قائدا لقلعة (عبدالسلام) ثم تولى أمر (مربيطرا) . . من شعره :

ذرونى أجُبْ شرقَ البلاد وغربَها	لاشفى نفسى او أموت بدائى
فلست ككلب السوء يرضيه مربض	وعظم ، ولكنى عقاب سماء[5]

ورجالها ممن لم نذكرهم الكثير

واذا كانت كتب التاريخ قد حفظت لنا الكثير من اخبار (طليطلة) فانها لم تغفل ما كان

للمدينة فى مجال العمارة ، شأنها فى ذلك شأن كل مدن الاندلس . . الا ان أهم ما كان بها من معالم قد عفت عليه يد الزمان وطالته يد الحدثان .

تحدثنا كتب التاريخ عن مسجدها الجامع والذى بقيت معالمه ردحا من الزمن تتحدى مختلف التغيرات ، به نقش عربى على واجهته ينص على ان الفراغ من بنائه كان فى المحرم سنة 390 هـ وان مؤسسه هو (موسى بن على) .

وتتزين المدينة بعدد من الجسور فوق نهر (تاجه) احد تلك الجسور يعرف باسم (القنطرة) ، والقنطرة هذه انجاز معمارى هندسى عربى اسلامى ولاتزال باقية حتى اليوم .

الا ان اهم معالمها والذى يبدو شامخا فوق احدى اعلى قمم المدينة ، والذى ما ان غادرت محطة الحافلات وارسلت ببصرى صوب المدينة حتى لمحته دون سواه ، ولا يعرف هذا المعلم باسم غير هذا الاسم (القصر) او (قصر طليطلة) ، وليس من حرج فى الاشارة الى ان محدثتى عن (طليطلة) وصاحبة فكرة زيارتها قالت بأن الحديث عن طليطلة لابد وان يبدأ من القصر او يمر من خلاله . . وتضيف : نادية العلمى بأن أهم ما يمكن اقتناؤه من المدينة شيئان . . وهما من خصوصيات (طليطلة) : الحلويات والسيوف :

لم نتوقف كثيرا عند« حلويات طليطلة » بقدر توقفنا عند سيوفها . . ويبدو ان وضع المدينة التاريخي من حيث كونها ظلت عاصمة للقوط طيلة ثلاثة قرون ومن حيث كونها شكلت قاعدة الانطلاق الثانية فى الفتح العربى الاسلامى بقيادة « طارق بن زياد » و« موسى بن نصير» ومن حيث كونها مدينة عاشت مرحلة طويلة تجالد من أجل ان تبقى متميزة . . كل ذلك حدابها الى اتقان صناعة السيوف ، وما اخبار السيوف الطليطلية بخافية عمن يقلب أسفار التاريخ .

تنقلت فى ازقة وشوارع المدينة وكنت أرقب كل جدار وربما كل نافذة واحيانا كل الذين اقابلهم ، لم اجد تعليلا لذلك البحث ، ثم توقفت عن التطلع الى اى شىء سوى لوحتين ارشاديتين كتبتا باللغة العربية وبحرف يعرف عندنا بالحرف المغربى ، اقتربت من اللوحتين للحظة ربما عبرت خلالها مئات السنين وخيل الى اننى استمع الى احاديث ذات وقع خاص ، اختلطت اللحظات فعلا حينها حدثتنى مرافقتى بلغة عربية .

بدأت شمس ذلك اليوم تلملم بقايا ضوئها الذى ظننته قطع سجادة تناثرت على روابى (طليطلة) . . كنت حينذاك فى الجانب الغربى من المدينة . . لقد اخذ منى التعب كل مأخذ فبين صعود وهبوط فى ازقة ضيقة ومن زيارة كنيسة الى زيارة د ير ومن متحف الى زقاق ضاعت اكثر

ساعات النهار ولذا كان لابد من (القصر) الذى يأبى الا ان يعلن عن نفسه كمضيف كريم لكل زوار المدينة ، فهو امام انظار القادمين الى (طليطلة) من الشمال او الجنوب من الشرق او الغرب . ولا يصل الى مستوى ارتفاعه الا برج الكنيسة ، وكأنى بحوار بين (البرج) و (القصر) ينطلق من سطح الارض ليخترق سماء المدينة فى وضعية تختزل وبشكل دقيق (حوارا منذ مئات السنين) .

شيد هذا القصر « المأمون بن ذى النون سنة 1069 م ووصفه لنا المقّرى بأنه كان يتوسط بحيرة فى وسطها قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب وقد جلب الماء على رأس القبة بتدبير احكمه المهندسون فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطا بها ويتصل بعضه ببعض ، فكانت قبة الزجاج فى غلالة من ماء سكب لا يفتر عن الجرى . . وتوقد فيه الشموع فيرى لذلك منظر عجيب »[6] .

الا انه الآن بناء شامخ صامت لا بحيرة حوله ، ولا قبة تعلوه ، ولا ماء به لا يفتر عن الجرى . . ان أى زائر لهذا القصر سيشعر حتما بالضآلة بسبب ارتفاع بنائه من جهة وبكونه يحتل اعلى موقع فى المدينة من جهة اخرى .

انه يشعرك بصمته بانك مطالب فقط بالتأمل وان حاولت ان تستنطق حجارته ولن تستطيع الى ذلك سبيلا فما عليك الا ان تيمم وجهك شطر المدينة .

وجريا على عادة كل زوار مثل هذه المدن حاولت ان اقتنى شيئا ما . لكن بيت (بشار بن برد) الذى لا أدرى كيف تداعى الى الذاكرة حينذاك والقائل :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   واسيافنا ليل تهاوى كواكبه

حفزنى الى اقتناء بعض من سيوف طليطلة . . وادركت ان الاختيار ليس سهلا رغم ان معى من يعرف المدينة ، اذ عليك ان تدقق فى الاختيار حتى تكتشف بعد طول عناء ان (سيوف طليطلة) ليست سهلة فى كلا الحالتين : الاقتناء والتعامل ! !

ومثلما حدث فى (غرناطة) غادرنا المدينة الى محطة الحافلات سيراً على الاقدام وهو امر سهل ميسور بخلاف القدوم الى المدينة لانك ان كنت قادما فستكون مضطرا لاستخدام وسيلة تنقل اما ان كنت مغادرا فان الامر يختلف تماما .

وما دمنا قد وصلنا بحديثنا الى المغادرة فلنسترجع لحظات المغادرة الاولى .

استضافت (طليطلة) لاعب الشطرنج الشهير (الملك الفونس السادس) الذى تعلم

الشطرنج* بين العرب حين طرده اخوه عن العرش والبلاد ، فلجأ الى العرب الذين اكرموا وفادته وملكوا عليه نفسه ، لقد عامله (يحيى بن مأمون)** ملك (طليطلة) كأحد ابنائه وابقاه عدة سنوات فى قصر خاص به .

وعندما احتل (الفونس السادس) طليطلة عام 1085 م ساهم معه فى الاستيلاء على المدينة العربية وحصارها فرسان المان وايطاليون وفرنسيون ، بل ان اول اسقف لها كان فرنسيا . . واندمج الجميع بسكان المدينة العربية ، وظلت مدرسة المدينة بمجموعاتها الهائلة من الكتب العربية تجذب الآف الاوربيين من مختلف البلدان[7] وتسمى ملك (قشتالة) بعد ان احتل طليطلة (بأمير الملَّتين) .

وحين بدأت نذر سقوط (طليطلة) كان حاكمها (القادر بالله ابن يحيى بن ذى النون) ينظر فى اسطرلاب ليحدد الوقت الذى يرحل فيه[8] .

(طليطلة) لاتـزال تحاول ان تظل على البـال وفى مقدمة الاحداث بصرف النظر عن كنه وطبيعة وجدية وخطورة وجدوى تلك الاحداث .

---

1 ــ الدولة العربية فى اسبانيا . ابراهيم بيضون دار النهضة العربية ـ بيروت / الطبعة الثانية 1980 ـ ص 75 .

2 ــ البيان المغرب فى اخبار الاندلس والمغرب / ابن عذارى المراكشى ـ الدار العربية للكتاب « ليبيا ـ تونس » الطبعة الثالثة 1983 م الجزء الثالث ص 93 .

3 / 5 ــ تاريخ الادب العربى / عمر فروخ / دار العلم للملايين ـ بيروت / الطبعة الاولى 1982 م / جـ 4 ص 392 ـ 582 / 505 وما بعدها .

4 / 7 ــ شمس العـرب تسطع على الغـرب / زيغـريد هونكة / تعريب : فاروق بيضون وكمال الدسوقى / المكتب التجارى ـ بيروت / الطبعة الاولى 1964 م ص 152 .

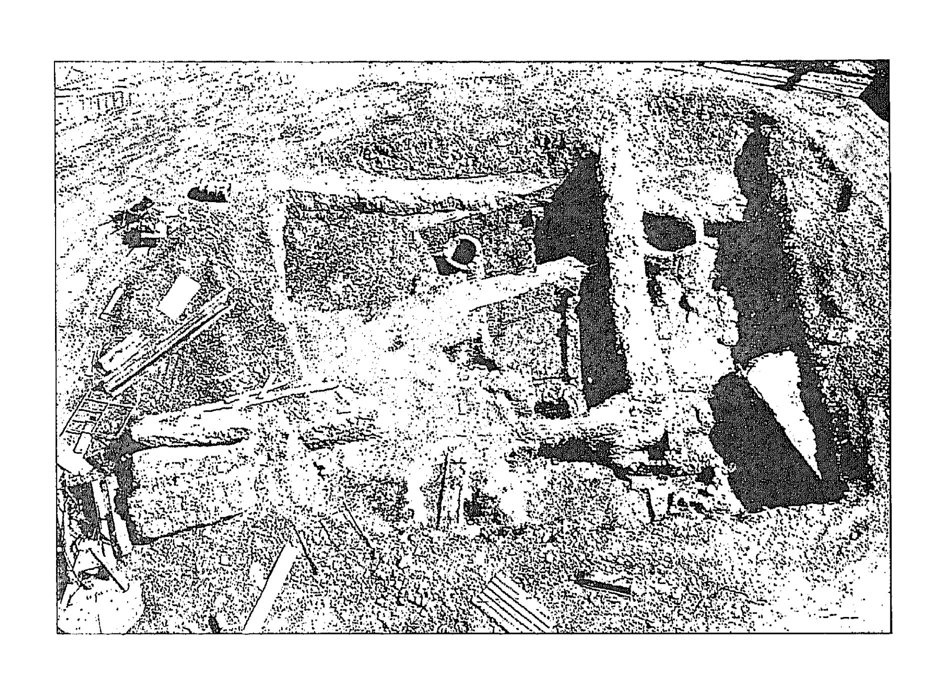
6 ــ الفنون الزخرفية الاسلامية فى المغرب والاندلس / محمد عبد العزيز مرزوق / دار الثقافة ـ بيروت ص 43 .

8 ــ الادب الاندلسى موضوعاته وفنونه / مصطفى الشكعة / دار العالم للملايين ـ بيروت / الطبعة الرابعة 1979 ص 513 .

* يقول عبد الواحد المراكشى صاحب « المعجب » :

« وكان العلج [الفونسى السادس] مولعا بالشطرنج ، فلما لقى ابن عمار سأله : كيف أنت فى الشطرنج ؟ وكان ابن عمار فى طبقة عالية ، فأخبره بمكانه فيه . . « انظر ص : 119 - 121 » .

** الصحيح أنه لجأ الى طليطلة فى ايام « القادر بن ذى النون حفيد يحى »



مجريط* : القرية العاصمة

فى خضم الحركة الدائبة التى لا تكاد تهدأ فى أية مدينة كبيرة يصبح الحديث عن الماضى من قبيل احلام اليقظة . . والحديث عن (مجريط) يأتى من هذا القبيل . . . .

ومع علمى بأن (احلام اليقظة) ربما تتحول الى مرض عضال فاننى لم اهرب منها لاسباب كثيرة .

لست من الذين يفتنون بالمدن الكبيرة .

كما اننى لست ممن ينبهرون بما تحويه تلك المدن .

الا اننى وتحت الحاح كلمات صادقة سمعتها فى مبنى بلدية مدريد اضطررت للعودة بذاكرتى الى تخيل المدينة حينما كانت مجرد (بلدة بالاندلس) كما وصفها (ياقوت الحموى) فى حين كانت شهرة اشبيلية وقرطبة وغرناطة تطبق الافاق .

وها هى (مجريط) تصبح عاصمة وتكاد ستائر النسيان تلف غيرها من المدن .

وهذه هى سنة الحياة .

ولكن هل ثمة اسباب خاصة ساهمت فى هذا الوضع ؟!

هذه أمور اقرب الى اهتمام المؤرخين وعلماء الاجتماع فهم المعنيون اكثر من غيرهم بدراسة مثل هذه الظواهر وحتى لا يفسر الامر على غير المقصد ابادر بالقول بأن ما ذهبت اليه لا يعنى بأى حال أن (مجريط) أصبحت على ما هى عليه الآن بشكل غير منطقى أو مقبول ، لا ، فهذا أمر لا يدخل من قريب أو بعيد فى دائرة اهتمامى .

(مجريط اليوم) لا تختلف كثيرا عن كل مدن العالم الكبرى بحداثتها وضوضائها وازدهارها ، وان كانت لها ملامحها الخاصة فهى بلا ريب ناتجة عن خصوصية تاريخية تمتد عبر مئات السنين .

تنوع وثراء واندماج بين عدد من الانماط شكل فى مجموعه مدينة نعرفها اليوم باسم (مدريد) .

صحيح انها كانت مجرد بلدة يقال عنها بأنها تبعد عن (طليطلة) بمسافة 70 كيلو مترا ، وصحيح أن (طليطلة) الآن هى التى يقال عنها بأنها تبعد عن (مدريد) بذات المسافة وهو أمر له اكثر من معنى .

ومع ذلك لم تتخلف (مجريط) عن المساهمة ببضعة أوراق فى كتاب تاريخ الاندلس ، اوراق رغم قلتها تتصف بالثبات والعمق ** .
من تلك الاوراق ان أحد أبنائها كان استاذاً لعدد من النابغين امثال:(الزهراوى وابن خلدون) وهذا الاستاذ نسب اليه بعض المؤرخين كونه واضع رسائل (اخوان الصفاء) ونعنى بلا شك : مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المجريطى(ت 398 هـ1007 م)رياضى فلكى قال عنه القاضى (صاعد الطليطلى) فى كتاب (طبقات الأمم) بأنه كان امام الرياضيين بالاندلس ، واعلم ممّن كان قبله بعلم الافلاك وحركات النجوم واوسعهم احاطة وكان يلقب بالحاسب ، مولده ووفاته بمجريط .

من كتبه : (ثمار العدد) فى الحساب يعرف بالمعاملات ، و (اختصار تعديل الكواكب من زيج البتانى) و (رتبة الحكيم - خ) . . وعنى بزيج (محمد بن موسى الخوارزمى) فنقل تاريخه الفارسى الى التاريخ العربى وزاد فيه جداول حسنة ، الا انه - كما يقول القفطى - اتبعه على خطئه ولم ينبه على مواضع الغلط فيه .

وقد أنجب تلاميذ لم ينجب عالم بالاندلس مثلهم فمن اشهرهم : ابن السمح وابن الصفار والزهراوى والكرمانى وابن خلدون)[1] .

ورجل آخر من مجريط هو :

هارون بن موسى بن صالح بن جندل القيسى الاديب القرطبى المجريطى الاصل ، يكنى : ابا نصر ، سمع من (ابى عيسى الليثى) و (ابى على القالى) روى عنه (الخولانى)[2] .

ربما لم تكتف (مجريط) بدورها القديم والذى من نتائجه انجابها لعدد من النابغين فى الاندلس فها هى تستلم زمام الامور لتصبح عاصمة اسبانيا وهذا ليس غريبا عن أية مدينة يرتبط فيها الحاضر بالماضى فى تناغم وتوافق ملموسين .

ومنذ أن وصلتها (الدعوة الاسلامية) عن طريق الدعاة الاوائل ابان انتشار الاسلام فى الاندلس وهى تساهم فى كل مرحلة من مراحل تاريخ الاندلس وعلى الرغم من انها لم تستول على اهتمام كبير الا انها - شأنها فى ذلك شأن كل مدن وقرى الاندلس - لم تتخلف عن المساهمة فى نقل اوربا من ظلمة العصور الوسطى الى نور العلم والمعرفة والحرية والعدالة وغدت بفضل العروبة والاسلام مدرسة تُشَدُّ الى علمائها الرحال لما عرفوا من اطلاع واسع وتنوع واحاطة بعدد من العلوم والفنون .

وهذا الامر يذكر بأهم صفة من صفات الاندلس ونعنى بها ان المتتبع لتاريخ هذه المنطقة حينما كانت تعيش فى رحاب الاسلام سيلمس ان النبوغ لم يكن من اختصاص المدن الكبرى . . ودون مبالغة يمكن القول بأن الاندلس بكامله تحول الى مدرسة عربية اسلامية استوت فى ذلك القرى والمدن والجزر ، وكان لكل منها اسهامها المتميز فى لوحة الاندلس العلمية والثقافية والفنية .

واذا كانت قرطبة وغرناطة واشبيلية استطاعت ان تستولى على مساحة واسعة فى سجل تاريخ الاندلس فان احدا ليس بامكانه ان يسقط من الحساب أية بقعة شهدت« لا اله الا الله محمد رسول الله» بلسان عربى قويم .

(مدريد) اليوم لا تزال وفية لـ (مجريط) الامس ، وفاؤها لا يتجسد فى مجرد المحافظة على الاسم ، بل يتعداه ليشمل عددا من المظاهر الاخرى ، ثمة اثرة من معمار ، وأثرة من فن ، وأثرة من تقاليد عريقة لا تزال بادية ، وبشىء من التبصر يمكن الاستدلال على كل ذلك وغيره شرط الا يسمح المرء لمظاهر الحياة فى نهايات القرن العشرين أن تسلب لبه أو تبتلعه !

وفاؤها كمدينة لا يقل عن وفاء أبنائها ، ويتجلى ذلك فى حديث خاص للسيد مانويللو ارتونيو امين العلاقات العامة ببلدية مدريد حيث قال :

يسرنا أن نستقبلكم فى بلدية مدريد التى هى فى الحقيقة بيت كل أبناء مدريد ، هذه المدينة التى تفوح من جميع جوانبها روائح الماضى التليد ، التاريخ العربى الاسلامى ان اسمها الحالى والمحور عن (مجريط) هو كلمة عربية ، وهى مدينة تتبدى فيها بوضوح اثار الحضارة والثقافة العربية الاسلامية .

ويضيف السيد / مانويللو :

ان كل حجر فى هذا المرتفع الذى أقيمت عليه هذه البلدية ينطق بملامح تلك الحضارة التى سادت فى ربوع هذا البلد ، اننا حينما نتجول فى ربوع هذه القرية العربية وحول نهر (مانثا نارس) الذى يشق هذه المدينة ستتذكر بالتأكيد ما كانت عليه مدريد سابق عهدها .

ويبدو ان مسئول العلاقات العامة قد ادرك ما يمكن ان يطرحه زائر مدريد من تساؤلات بهدف المقارنة بين الماضى والحاضر ، بين (مجريط) التى كانت مجرد بلدة فى منطقة (وادى الحجارة) كما اسماه العرب وكما يعرف اليوم و (مدريد) المدينة الحديثة والعاصمة الاسبانية . . ولذا بادر السيد / مانويللو بالقول :

صحيح ان مدريد حاليا قد تضاعف عدد سكانها ، وكثرت مبانيها واتسعت رقعتها بشكل

غريب وملفت للانتباه ، وصحيح انها مدينة عصرية وحديثة مليئة بالحركة والعمران والضجيج ، وهذا من شأنه ان لا يمكن الانسان من التقاط خيط الذكريات وامجاد الماضى ، الا ننا ومع كل ذلك نحاول ان نستقطع جزءا من الزمن والوقت الذى هو عصب الحياة الحديثة لنتجول فى الربوع القديمة والاحياء التاريخية كى نتذكر ماضى هذه المدينة ولنتمكن من استعادة شريط التاريخ القديم .

ان ما أدلى به مسئول العلاقات العامة الذى نثبته فى هذه الورقة الاندلسية لم يكن من قبيل المجاملة كما أنه لم يكن من قبيل ما يطرأ على الذاكرة . . ان ما يقوله يأتى فى سياق عمل مستمر منذ فترة ليست بالقصيرة وأكد ذلك بقوله :

ان صديقنا (البروميتشردوم)** يعرف كيف حاولنا ومنذ تسع سنوات مضت فتح مدينة مدريد من جديد وهو عمل بدأه العميد السابق فى شكل عدد من الاجراءات والاصلاحات بهدف اعادة الملامح التاريخية لهذه المدينة لم يكن العميد السابق صديقا لابناء المدينة فحسب بل كان صديقا لكل ابناء الشعب العربى .

ولم ينس محدثنا ان يؤكد لدعاة (جمعية الدعوة الاسلامية العالمية) العاملين بأوربا والامريكتين الذين قاموا بزيارة لمبنى البلدية ـ لم يَنْسَ ان يؤكد لهم أن اجتماعهم فى (مدريد) فى ملتقاهم الثالث له طابع خاص بقوله :

اننا نحاول ان تكون هذه المدينة مدينة للجميع مدينة تستقبل كل من يفد اليها بغضِّ النظر عن جنسه أو معتقده أو ثقافته .

وأكاد اجزم بأن هذه الفقرة لا تتحدث فقط عن (مدريد) اليوم بل انها فى الواقع تختزل تاريخ المدينة منذ بداية تاريخها الاسلامى . . لقد كانت مجريط مدرسة تعلم فى ربوعها كل من وفد اليها دون تمييز بين جنس أو لون أو معتقد ، تعلم بها ابناء أوربا الطب والفلك والرياضيات والموسيقى والادب على يد اساتذة عرب مسلمين ثم عادوا الى بلدانهم ليضعوا اللبنات الاولى فى صرح النهضة الاوربية الحديثة .

ويضيف محدثنا :

اريد ان اطمئنكم بأننا نسير على ما بدأناه منذ تسع سنوات وانني أعتقد بأنكم اخترتم هذه المدينة لملتقاكم لانها مهيأة لهذا النوع من العمل ولهذا النوع من الجهد الذى تقومون به ، واننى ادعو الله بأن يكلل اعمالكم بالتوفيق ، ان مدينة مدريد ستستفيد حتما من النشاط الذى تقومون به وسيعود

عليها بالخير .

تحدث السيد / مانويللو كثيرا عن العلاقة بين الحاضر بكل ابعاده والماضى بكل ثرائه ، وكانت كلماته امام دعاة (جمعية الدعوة الاسلامية العالمية) فى رحاب بلدية مدريد أو (مجريط) كما عرفها التاريخ دعوة الى المزيد من ربط الصلات لان التاريخ وفى اغلب الاحيان عامل مهم من عوامل فهم الواقع ، وليست الدعوة الاسلامية غريبة عن مدينة كهذه ، وليست (مجريط) من تلك المدن التى ربما تتعامل بحذر مع العمل الجاد الهادف الى ربط الصلات المتميزة التى تسعى الشعوب الى تنميتها فيما بينها خاصة عندما يسعفها التاريخ بالدروس والعبر المستقاة من ان العلاقات بين الشعوب كانت دائما ـ ويجب ان تظل ـ علاقات ايجابية من أجل التعاون .

ولا يجب ان ننسى ان الاسلام الذى عرفته (مجريط) عندما كانت تعيش فى رحابه هو الاسلام الذى تعيش (مدريد) اليوم على اعتابه ، وهى بسبب تاريخها لا تهاب المسلمين الذين عرفت فيهم نبل المقصد وحسن النية ، وهو أمر أكده الاخ امين مكتب الدعوة الاسلامية بجمعية الدعوة الاسلامية العالمية حين القائه كلمة فى الدعاة بمبنى بلدية مدريد بحضور لفيف من موظفى البلدية وعدد من المسلمين الاسبان حيث قال :

(ان المسلم الحقيقى هو المواطن الصالح لبلده وأمته فى اى مكان من العالم ، ونحن ننتهز هذه الفرصة لتوطيد العلاقة بالشعب الاسبانى الصديق وربط جسور التعاون من أجل رفاهية الانسانية ونشر السلام والمحبة بين البشر) .

وفى معرض اشارته للتاريخ المشترك فى منطقة الاندلس ومساهمتها فى نشر العلم والثقافة قال امين مكتب الدعوة :

(انها فرصة طيبة ان نطلع على حضارة الشعب الاسبانى العريق والتاريخ المشترك الذى يربطه بالعرب والمسلمين ، ونحن نفخر بالشعب الاسبانى الذى قدم لاوربا اساسيات العلم الحديث والحضارة ابان بداية النهضة الاوربية ، بل ان النهضة الاوربية بدأت من هنا : من الاندلس).

لقد حاولت أن اسجل مشاعر الدعاة وهم يتجولون فى مبنى البلدية فوجدت ان ثمة أُلفة بينهم وبين كل ما حولهم ومن حولهم ذلك انهم على اعتاب المدينة القديمة التى لا تزال كما عرفها الدعاة الاوائل .

نعم امور كثيرة حدثت عبر قرون عديدة لكن مجرد وجود هؤلاء الدعاة فى هذا المبنى المقام

على ربوة من روابى (مجريط) فى نهايات القرن العشرين يمكن ان يكون بداية حوار توقف منذ قرون !

تساءلت : هل يمكننى أن أتصور بأننا نقف الآن حيث وقف احد الدعاة الاوائل ؟! ثم قلت فى قرارة نفسى : ولم لا يكون ذلك كذلك ؟!

وليسمح لى القارىء الكريم ان لم أحدثه عن (مدريد) التى يسمع عنها أو يعرفها كما لم أعرفها لأننى ـ وللمرة الاولى ـ لم أسمح لهذه المدينة العصرية أن تلتهمنى .

وفى حوار حول السفر والترحال ـ رغم قلته بالنسبة لى ـ قلت لبعضهم : مازرت مدينة كبرى الا وغادرتها وأنا فى خشية من غد مجهول تسير نحوه تلك المدن . . وكان الرد : لكن زيارتك لهذه المدينة (مدريد) ستختلف عن سابقاتها ، وهذا ما حدث بالفعل . . لقد كنت مشدودا فى كل شوارعها التى رأيتها ـ وهى قليلة جدا ـ الى أى ملمح تاريخى ينبىء عن ارتباطها بالماضى العربى الاسلامى ورأيت كما سمعت فى مبنى بلديتها ما كنت أبحث عنه ، وقلت لبعضهم أيضا : لقد أصبح لهذه المدينة طابع خاص فى ذاكرتى لعدة اسباب من اهمها فى هذا المجال اننى احطت بها من خلال مبنى بلديتها ، ومن خلال مظاهر عمل عربى اسلامى لازمنى حتى لحظة مغادرتها .

---

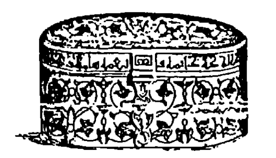
* مجريط : ذات المجارى والقنوات العديدة .

1 ـ الاعلام / خير الدين الزركلى / دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الطبعة الخامسة 1980 ـ الجزء السابع ص 224 ـ عمود « أ » وانظر ايضا : طبقات الاطباء ـ ابن ابى اصيبعة ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ شرح وتحقيق نزار رضا ـ ص 483 وما بعدها .

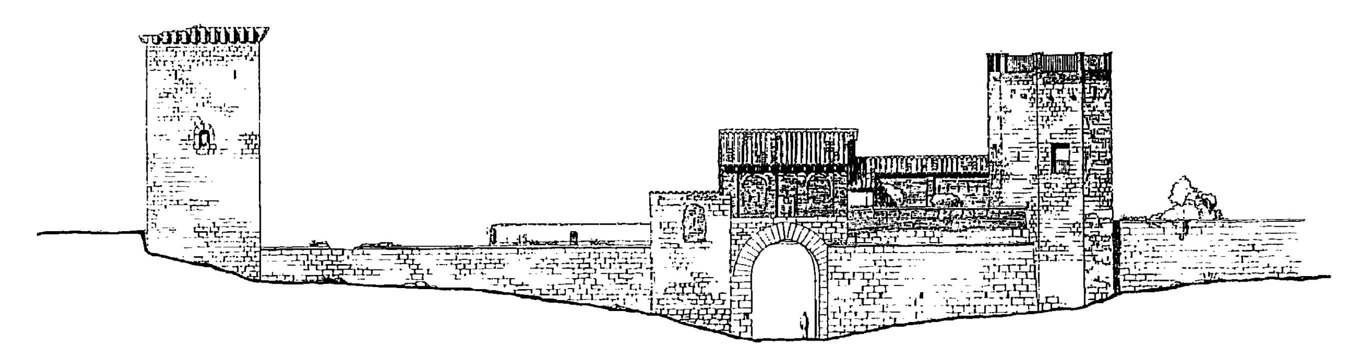
2 ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموى ـ دار صادر ـ بيروت 1979 م المجلد 5 ص 58 ـ عمود « أ » .

** البرومتشردوم : اسباني يعرف باسم : احمد عبد الله ، وهو رئيس جمعية مسلمى اسبانيا ، له نشاط صحفى . ألف كتابا عن الثورة فى ليبيا .

للدكتور / محمود على مكى كتاب بعنوان « مدريد العربية » دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة « د . ت » تناول فيه باسهاب نشأة المدينة وتسميتها العربية ، ودورها الدفاعى واعلامها .







تيرويل : نافذة على الفن المدجن

الفن المدجن ، سر قسطة ، السهلة ، بنورزين : ان ذكرت مجتمعة أو متفرقة فانها بلا ريب ستجعل الحديث يمر بتيرويل Teruel .

فهى من المدن باقليم أرجون التى تحتفظ بملامح الفن المدجَّن في ابراجها والنقوش التى تزين مبانيها ، وفي سقوف ومداخل كنائسها ، وفي ذاكرتها .

وهى احدى المدن الواقعة ضمن منطقة « سرقسطة » وسر قسطة ليست مجهولة في تاريخ الاندلس .

أما السهلة الاسم المحفور في سفر تاريخ الاندلس فان « تيرويل » أقرب ما تكون الى عاصمة « السهلة »* البراثين Albarracin .

و« بنورزبن » هم الذين استقلوا كغيرهم من ملوك الطوائف بمنطقة « السهلة » وأسسوا ما يعرف اليوم بمدينة « البراثين » . . وتيرويل على مرمى حجر من هناك .

اذن فتيرويل ليست اسما عابرا لمدينة تقع شمال شرق الاندلس « اسبانيا اليوم » .

الابحار في كتب التاريخ بحثا عن « تيرويل » ليس أمرا صعبا وهو ما أكده السيد « أنخل سولار بيانويا » أحد رجال الكنيسة وأول من تعرفت عليه من سكان تيرويل حيث لحق بى وزميلى « خليل حسن صدقة » حين توقفنا برهة من الزمن فوق جسر المدينة لنقرأ ما كتب عن المهرجان الذى تحتضنه المدينة .

ولم تمض دقائق حتى وجدنا انفسنا ندخل المدينة من أوسع ابوابها .

وغدا السيد « انخل » يقول لكل من يلتقيه من سكان المدينة : هذان صديقاى من ليبيا وفلسطين . . كان الود باديا على محيا كل من التقينا بهم .

أبحرنا مباشرة صوب تاريخ المدينة ، سؤال منى وترجمة من زميلى « خليل » واجابة ضافية من رجل كنيسة تيرويل .

قال عن مدلول كلمة « المدجنين » بأنها تطلق على الذين ينحدرون من عائلات اعتنقت الاسلام وعاشت فترة من الزمن من عصر حركة المد المسيحى .

و « الفن المدجن » هو ذلك العمل المبدع الذى قدمه المعماريون والفنانون المسلمون لمدينة

تيرويل حينما طلب منهم القيام بذلك نظير استمرار بقائهم في المدينة .

تاريخ المدينة ضارب في اعماق الماضى ، لكن ما هو مدون في كتاب تاريخ المدينة العام الذى لا يزال مخطوطا يتحدث عن الفترة التى تبدأ منذ القرن الحادى عشر .

وثمة فقرات من ذلك المخطوط مكتوبة على قاعدة النصب الذى يرتفع كرمز للمدينة من بينها فقرة تشير الى ان تاريخ استيلاء « الفونسو الثامن » على المدينة تم سنة 1171 م .

ومما قاله السيد « انخل » حين توقفنا في احدى ساحات المدينة الجديدة : يعتقد البعض أن برج « سان بيدرو » هو أول برج شيد وفقا للنمط المعروف بالفن المدجن .

تتميز المدينة بوضوح معالمها الاثرية ، واحتفاظ تلك المعالم بطابعها ونقوشها التى لم تتأثر كثيرا بعوامل الزمن ومن بين أسباب بقائها : دقة وقوة ما تم تشييده .

وتضفى الابراج على الازقة والشوارع ظلالاً من الهيبة ، ذلك أن عددا من الازقة والشوارع تنتهى بممرات من تحت تلك الابراج .

ولذا اعتبرت هذه الابراج وكل آثار الفن المدجن ثروة انسانية عالمية من قبل منظمة اليونسكو شأنها فى ذلك شأن مدينة غدامس بالجماهيرية العظمى .

ولقد احتضنت المدينة المؤتمر الثالث للفن المدجن الذى أكد على ضرورة المحافظة على كل نقش وكل قطعة خزف تنتمى الى تلك المرحلة الاسلامية الثرية .

تيرويل تعيش في رحاب التاريخ بشكل متصل ، ومع أنها تطل كغيرها من المدن على العمارة الحديثة الا ان ثمة من يؤكد على ضرورة المحافظة على النمط التاريخي وهذا النمط في الواقع هو بطاقة تميزها وبطاقة انتمائها لحضارة الاندلس العربية الاسلامية .

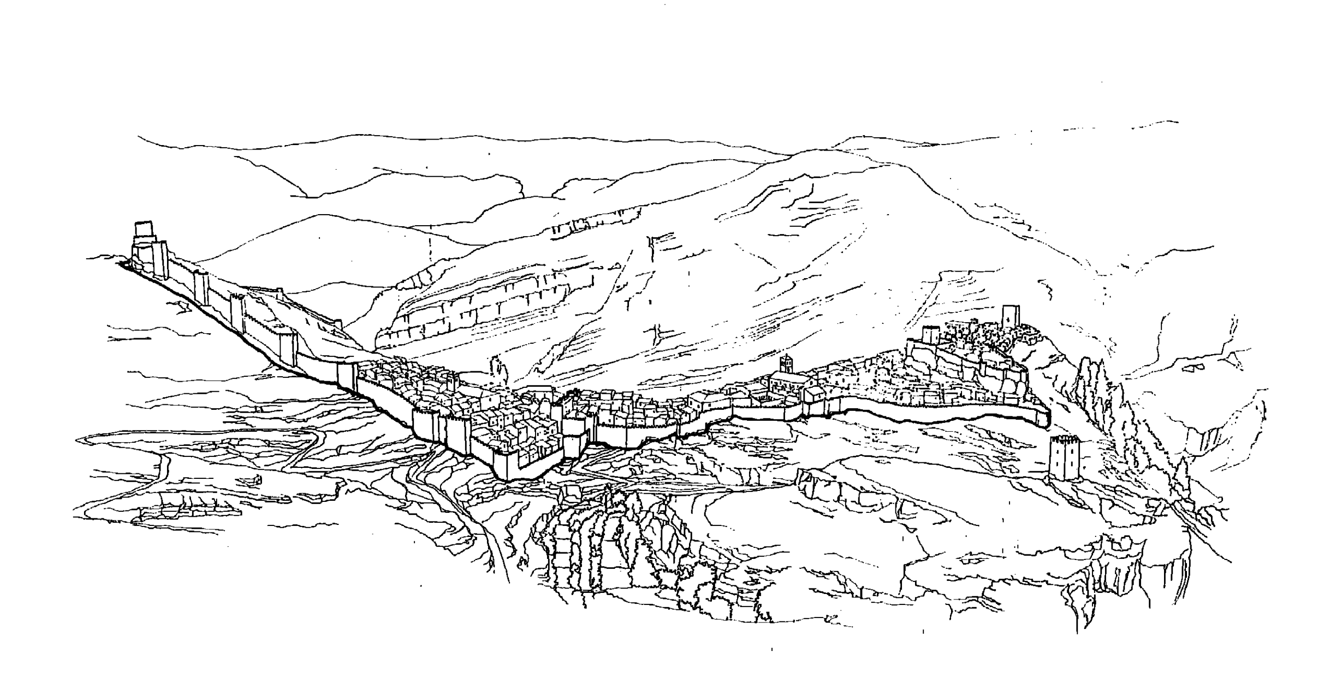
يبلغ عدد سكان المدينة حاليا (سنة 1988) 30,000 نسمة وتبلغ مساحتها كمحافظة 142,000 كيلو متر مربع .

بها دراسات جامعية متوسطة والسنوات الثلاث الاولى من الدراسات الجامعية المتقدمة .

يغلب عليها الطابع الخدمى ويقول السيد عميد بلديتها بأن العمل يجرى حاليا لتطوير المدينة وتحقيق توازن صناعى وتجارى وزراعى .

عاشت المـدينة اياما لا تنسى ،صحيح أنها تستيقظ كل يوم على ما يميزها من فن معمارى جذاب ، وصحيح انها تحاول ان تفتح ابوابها لكل القادمين بترحاب واضح ، الا انها وجدت نفسها تعيش اياما حافلة جعلتها قبلة انظار العديد من أبناء المناطق الاسبانية المختلفة فشدوا اليها الرحال ليـطلوا من خلال نوافـذ ابـراجهـا ومن خلال المهرجان الثانى الذى نظمه المعهد الغربى للثقافة الاسلامية على مراحل تاريخية متعددة .

* عرفت عند العرب كذلك باسم : شنتمرية الشرق / بنى رزين ، تمييزاً لها عن شنتمرية الغرب على الساحل الجنوبى لاقليم الغرب بجنوب البرتغال



يوم في ضيافة « بني رزين »

من مدن « الثغر الاعلى » ثمة منطقة لا ينطبق اسمها على رسمها بأى حال ، منطقة كل شيء فيها محدود : اماكن البناء ومناطق الزراعة ، سميت « السهلة » وهى فى الحقيقة النموذج المثالى لاصعب المدن طبيعة وتحصينا .

وحين كنا فى طريقنا اليها من مدينة (تيرويل) أو (طرويل) كما سماها العرب قال اكثر من واحد : اين تكمن « السهولة » التى يشير اليها الاسم ؟ واذا كانت المدينة قد عرفت قديما بأنها « السهلة » فان المرء ليس بامكانه ان يتصور اى معنى من معانى الصعوبة .

الطريق ذاته يجعل من كلمة « السهلة » محل نظر ، ورغم اننا جميعا منّينا أنفسنا بالوصول الى مدينة سهلة بأى مقياس من مقاييس السهولة فان الأمر لم يحدث على الاطلاق ، وتحطمت كل امانينا على صخور ومرتفعات « السهلة » !

المدينة بكاملها ليست بها اية مساحة ارضية مستوية ، فانت ومنذ وصولك اليها بين صعود وهبوط وانعطاف ، واذكر ان بعض الزملاء وصفها بأنها : المدينة التى تهزم المدخنين !.

ورغم محاولات البحث عن سبب مقنع لوصف أو تسمية هذه المدينة بالسهلة فان الامر ظل غريبا مما جعلنا ـ اراحة لبالنا ـ نقتنع بما اعلنه أحد المختصين في محاضرة تاريخية عن المدينة بقاعة متحفها حيث قال بأن المدينة بسبب صعوبتها تتميز بأن الدفاع عنها يعتبر سهلا للغاية حيث انها تقع على مرتفع صخرى يصعب الوصول اليه ، ويحيط بها من جانب آخر نهر ليس من السهل اجتيازه .

اهمية المدينة تنبع من موقعها الجغرافى ، وفي محاولة لتفسير ما ذهب اليه « الشنترينى » حين وصفها بأنها موسطة ما بين الثغر الاعلى والادنى . . وليس في بلد الثغر اخصب بقعة من « السهلة » المنسوبة الى بنى رزين في محاولة لتفسير ذلك نقول نقلا عن ورقة أعدها احد الباحثين عن مدينة « السهلة » تقع المدينة في منطقة يمكن تسميتها بمنعطف تتقاطع فيه كل جغرافية اسبانيا ، حيث ينبع منها العديد من الانهار الاسبانية مثل : تاجُه ، الخوكار ، النوريا ، الخيروكا . وهى انهار تصب في المحيط الاطلسى والبحر الابيض المتوسط .

المعلومات المتوفرة ترجع تاريخ تأسيس هذه المدينة الى مرحلة القوط الثانية على ان هناك مؤشرات اكتشفت خلال الحفريات توحى بوجود مركز سكانى في هذه المنطقة ابان عهد الرومان ،

وهذه المعلومات استقاها الباحثون الاسبان من المراجع العربية .

فتح العرب المسلمون هذه المنطقة في المرحلة الاولى اثر فتح غرناطة على يد إحدى كتائب جيش « طارق بن زياد » .

والمعلومات عن المدينة نادرة بشكل واضح ابان المراحل الاولى للفتح لكنها ومنذ القرن العاشر الميلادى بدأت تأخذ مكانة متميزة فى تاريخ المنطقة وتاريخ الاندلس بشكل عام حيث عرفت منذ بدايات القرن العاشر الميلادى بأنها حاضرة « بنى رزين » .

وتقول المراجع الاسبانية بأن العرب لم يعمدوا حين فتحهم للمدينة الى تغيير اى شيء بالمنطقة « وهو مما يبرهن على التسامح الذى امتازت به الثقافة العربية الاسلامية » ولم يضطر السكان الذين يقطنون المدينة الى مغادرتها أو حتى مجرد التفكير في تغيير معتقدهم .

بقيت « السهلة » تابعة لقرطبة فترة من الزمن ، لكن سقوط الخلافة الاموية وظهور ملوك الطوائف اضافة الى ما تتميز به « السهلة » من طبيعة تتسم بالعزلة اتاح « لبني رزين » أو « بنى الاصلع » اعلان استقلالهم بعد تقلب بين قرطبة وطليطلة .

وامتد سلطان « بنى رزين » في القرن الحادى عشر ليشمل كل محافظة « تيرويل » وتذهب بعض الاراء الى اطلاق اسم « السهلة » على المنطقة بكاملها « وربما يعود ذلك الى المنطقة السهلية التى تقع فى الطريق الواصلة بين البراسين هو الاسم الاسبانى للمدينة نسبة الى « بنى رزين » وبين تيرويل .

بدأ اسم المنطقة يأخذ مكانه في صفحات كتاب تاريخ الاندلس ابتداء من العام 1013 للميلاد حين تم اعلانها كامارة على يد « هذيل بن رزين » الذى لم يتجاوز العشرين من العمر ، يقول عنه « ابن حيان : واما ابو محمد هذيل بن خلف بن لب بن رزين المعروف بابن الاصلع صاحب السهلة . . . « فانه » سحا لاول الفتنة الى اقتطاع عمله ، والامارة لجماعته ، والتقيل لجاره اسماعيل بن ذى النون في الشرود عن سلطان قرطبة ، فاستوى له من ذلك ما أراد هو وغيره من جميع من انتـزى في الاطراف « وبايعه اهلها سنة (403 هـ) فأحكم نظامها وابتعد بها عن خوض الفتن فأمنت فى عهده » .

وعلى الرغم من ان « هذيلا » هذا كان ممن عملوا على توسيع رقعة الانشقاق ومن ثم المساهمة في كتابة الاسطر الاولى من قصة انهيار الاندلس المؤلمة ، على الرغم من ذلك فانه ـ وحسب شهادة بعض المؤرخين العرب ـ كان « جميل العشرة ، ظاهر المروءة . . مع طلاقة لسانه ، وحسن توصله بالكلام الى حاجته دون معرفة ! ، وكان مع ذلك أرفع الملوك همة في اكتساب الالات والكسوة » .

وكان مولعا بشكل خاص بالاداب والفنون ، ومن بين من ضمهم بلاطه ، امرأة كانت بحق من أهم مميزات عصر « هذيل » ومن اوصافها انها كانت « واحدة في وقتها لانظير لها في معناها ، لم ير أخف منها روحاً . . ولا أجود كتابة ، ولا أملح خطا ، ولا أبرع أدبا ، ولا أحضر شاهدا على سائر ماتحسنه وتدعيه ، مع السلامة من اللحن فيما تكتبه وتغنيه ، الى الشروع في علم صالح من الطب ، ينبسط بها القول في المدخل الى علم الطبيعة وهيئة تشريح الاعضاء والباطنة وغير ذلك مما يقصر عنه كثير من متنحلي الصناعة،الى آخر ماذكره « ابن حيان » من أوصاف .

بقي « هذيل » يحكم المنطقة حتى توفى وخلفه ابنه « عبود » فاقتفى طريق والده الى ان مات .

وفي عام 1045 م تولى « ذو الرياستين ابو مروان عبد الملك بن عبود بن هذيل » ولم يذكر صاحب « الاعلام » عبود بن هذيل معتبرا ان عبد الملك هو ثاني امراء بني رزين ، استمر عبد الملك في الامارة زهاء 48 عاماً وكان سياسيا محنكا تمكن من المحافظة على استقلال دولته على الرغم من الضغوطات التي تعرض لها ليس فقط نتيجة للتوسع المسيحي بل من قبل جيرانه ايضا مثل الفونسو السادس و « السيد الكنبيطور » ، وللسيد هذا حكاية قد لايتسع المقام لذكرها* .

وصفت شخصية « عبد الملك » بالتناقض حسب تعبير احد المختصين في تاريخ المنطقة ، وذهب المؤرخون في وصفه مذاهب شتى يستخلص منها انه كان بطاشا . . « لايناجي المذنب عنده الا الحسام الصقيل » كما يقول « الفتح ابن خاقان » الذي ينقل عنه « المغرب » وصفه له بأنه كان « منتهى فخارهم وقطب مدارهم » يعني « بني رزين » ، ثم قال : « وربما عاد انعامه بؤسا وانقلب ابتسامه عبوسا ، وذلك في مجلس شرابه ، ومع هذا فانه كان غيثا فى الندى وليثا فى العدا » ويقول « الشنتريني » عن عبد الملك بأنه كان من المتأدبين مثبتا بعضا من نثره وشعره .

فمن نثره يخاطب « ابن طاهر » امير مرسية المخلوع : « من عرف ـ اعزك الله ـ الايام وصروفها ، وخلقها وصنوفها ، وخبرها على مناقلها ، في وجوه تداولها ، وحل محلك في التمييز ، والسبق والتبريز ، لم تزده شدتها الا معتبرا ، وشكرا لله وتدبرا » ، ووصف صاحب « الاعلام » شعر « عبد الملك » بالسخف ، وقال عنه «الشنتريني» : « وكثيرا ما رأيت في شعره وشعر غيره ممن سلك هذا المسلك ، بيداء مضلة لاتسلك ، واغاليط لاتستدرك . وبالجملة فلو جرى ذو الرياستين على عفوه ، وعرف منتهى شأوه ، لكان شاعرا مجيدا ، وناثرا معدودا » .

وقد اثبت له بعض الابيات في الفخر والوصف والغزل صاحب « الذخيرة » ، ومما جاء في « المغرب » قوله للوزير « ابن عمار » :

ضمان على الايام ان ابلغ المنى	اذا كنت من ودي مسرا ومعلنا
فلو تسأل الايام من هو مفرد	بود ابن عمار لقلت لها : انا
فان حالت الايام بيني وبينه	فكيف يطيب العيش أو تحسن المنى

ولعل شعر وزيره الكاتب ابى بكر بن سراري قد ارتقى الى مستوى أفضل مما جعل « الحجارى » يقول في « المسهب » : ان له شعرا أرق من نسيم السحر ، واندى من الطل على الزهر .

استمر « عبد الملك » في الامارة حتى وفاته سنة 1103 م حيث تولى بعده ابنه « يحي الملقب بحسام الدولة الذي لم يستمر في الامارة الا سنة واحدة » .

وهنا دخلت المنطقة مرحلة جديدة . بسبب زيادة الضغط الذي كان يقوم به المسيحيون .

وبوصول « المرابطين » انتهت امارة « بني رزين » كالعديد من امارات ملوك الطوائف ، وتمكن المرابطون من احكام سيطرتهم على « السهلة » وفي مقدمتها حاضرة « بني رزين » التي اصبحت من أعمال « بلنسية » . ثم سقطت في يد المسيحيين عام 1170 م .

كان ذلك ابحارا ، او ان شئتم سفرا في ذاكرة الزمن حاولت من خلاله أن اتعرف على تاريخ المدينة ، ولا حرج في ان اسوق للقارىء الكريم بعضا من اللحظات التي تجولت خلالها في ازقة وشوارع وحصون المدينة .

وأول مايمكن ذكره انني التقيت وتعرفت على أحد الاخوة العرب المشاركين في فعاليات المهرجان المنتظم بمدينة « تيرويل » بمبادرة من المعهد الغربي للثقافة الاسلامية . . ولا اخفى عليكم انني سعدت كثيرا بالتعرف على هذا الاخ الكريم لانه ذكر لي حين تجولنا في حاضرة « بني رزين » انه من هنا ـ أعني أنه ينحدر من عائلة كانت هنا ـ وبشكل دقيق : ينتمى الى عائلة « بني رزين » التي جاءت مع « طارق بن زياد » واستقرت ماشاء الله لها ذلك ، وهاهي اليوم تعيش في تطوان بنفس الاسم الذي حفظه التاريخ « بني رزين » .

ولأنني وزميلي خليل حسن صدقة اخترنا أو آثرنا التعرف على المدينة بطريقتنا الخاصة والتي اثبتت جدواها أكثر من مرة شد انتباهنا محاولة احدى السيدات اللحاق بنا . وقد استطاعت . . وكانت على مايبدو تريد التحدث معنا ، وقد فعلت فقالت : سمعتكما تتحدثان بلغة ليست غريبة عني ، وبادرها الزميل خليل بالقول : نحن عربيان من فلسطين وليبيا . ارتسمت على وجه السيدة

ملامح الاطمئنان وحاولت ان تسترد انفاسها بسبب عامل السن وقالت بأن ابنها يشبهنا كثيرا حتى ان بعض اصدقائه يسميه بالموريسكي ، وهو أقرب في ملامحه الى العرب منه الى اهل شمال اسبانيا . زار أحد الاقطار العربية ، حاولت السيدة أن تعبر قدر استطاعتها عن عميق ارتياحها وتقديرها للعرب ، ويبدو انها تذكرت اننا نقف في وسط الزقاق فقالت بابتسامة عريضة وأدب جم : ان بيتي يقع في هذا الزقاق وقد تركته مفتوحا وتمنت ان نلبي دعوتها ونقوم بزيارة بيتها ، كانت تشبك كلتا يديها وتضعهما على جبينها لتقول بين الحين والآخر بأنها سعيدة للغاية لأنها سمعتنا نتحدث العربية وأننا عرب ، وبسبب البرنامج المكثف والذي يحتم علينا زيارة المدينة بكاملها في وقت قصير ابلغنا هذه السيدة اعتزازنا بترحابها البالغ آملين ان نتمكن من تلبية دعوتها الكريمة لولا ظروف السفر ، وحين عودتنا الى ساحة متحف مدينة (بني رزين) اذكر ان احدا منا قال : لو أننا فقط نعطي اهتماما ولو ضئيلا لمثل هذه المدن والقرى التي لاتزال ترتبط بالعروبة والاسلام بألف سبب ومظهر . ولا أذكر بقية ماتبقى من كلمات .

شوارع المدينة وأزقتها الضيقة اضافة الى اساليب البناء تدل على انها احد رموز المعمار الاسلامي ، ويبدو انها اصرت على ان تبقى وفية لتاريخها العربي الاسلامي في كل شيء ، فهي اضافة الى ابنيتها وشوارعها لاتزال تحتفظ بنمط الحدائق العربية الاسلامية الى اليوم كما ان اساليب الري والزراعة لاتزال مطبقة حتى الآن ، اضافة الى ان المساحات الزراعية المحدودة لازالت تعطي الخير الوفير منذ ان استصلحها العرب المسلمون منذ قرون .

في مدينة (بني رزين) حكايا كثيرة واذا كانت كل الحكايا لايمكن ان تروى لا لأي سبب عدا ضيق المساحة وخوف الاطالة فان بعضها جدير بأن يشار اليه .

لقد رحبت المدينة من خلال قاطنيها وزوارها ذات ليلة من ليالي شهر الفاتح (سبتمبر) 1988 م بأطفال من فلسطين كأجمل مايكون الترحاب ، مبدين اعجابهم وتقديرهم لهؤلاء الاطفال الذين غنوا للتحرير والعودة في حماس منقطع النظير ، كانت رقصاتهم المعبرة وصوت وقع اقدامهم على خشبة المسرح المفتوح في أحد ميادين حاضرة (بني رزين) مثار اعتزازنا نحن الذين ندرك بعمق معنى مايحدث وكانت في ذات الآن بصمة لن ينساها سكان وضيوف المدينة الذين لم يتركوا وسيلة تعبير عن مدى الاعجاب والاستحسان الا وابدوها .

وفي ذات الوقت الذي كنا فيه نتابع اللوحات الفنية المعبرة والاناشيد القوية المدوية في سماء

المدينة اذ بي اسمع احدا يلقى على سؤالا بلغة عربية سليمة عما اذا كان هؤلاء الاطفال اعضاء في فرقة فنية ، وقبل أن اجيب سألت بدوري : هل تتقنون جميعاً اللغة العربية وتتحدثونها بطلاقة ؟ قالت واحـدة من الحضـور : ليس هذا فحسب ، بل انني اقوم بتدريس اللغة العربية في بلدي (اليكانتي) واسمها العربي : لقنت ، وقالت ثانية : لقد زرت بعض البلدان العربية بهدف تقوية لغتي العربية ، وقال ثالث : اننا نقبل على تعلم اللغة العربية بشوق بالغ ، وجميعنا تعلم هذه اللغة في الجامعات الاسبانية وفي بعض المعاهد المتخصصة . . تشعب الحوار كثيرا لكن بعض الحضور أعاد السؤال عن اطفال فلسطين ، ليفتح بابا من الحوار ظل مفتوحا طيلة يومين .

لم يجد أحد سكان المدينة بدا من القول بأنه وللمرة الاولى في تاريخ المدينة يرى عربا يتجولون في أزقتها ، فقلت : ولكن الازقة ذاتها بنيت من قبل العرب ، قال مستدركا : اقصد العصر الحاضر حيث انه لم يشاهد أو يلتق من قبل بزائر عربي في هذه المدينة .

قلت لنفسي : ولمـاذا نأتي الى هنـا ؟ الى قرية صخرية نائية ليس فيها الا التاريخ ينتصب شامخا ، فهي ليست مدينة كبيرة وليست قريبة من أية مدينة كبيرة ، انها قرية تنام منذ الغروب في هدوء تام بين سلسلة من المرتفعات العملاقة .

واتذكر ان احداً من الذين كانوا يحتسون الشاي في مقهى صغير بالمدينة قال : مالم يكن المرء باحثا أو مؤرخا أو عالم آثار فما الذي سيحفزه على المجيء الى هنا ؟!

قالت احـداهن وهي تطلق العنان لبصرها عبر سماء المدينة الهادئة : مالم يكن المرء عاشقا للاندلس فانه لن يجد امامه حافزا واحداً يحثه على تسلق هذه المرتفعات .

اتمنى الا يظن أحد من القراء انني اكتب من الذاكرة وأحمل الاحداث غير الحقيقة ، وما أقدمه لك أيها القارىء الكريم ليس الا سرداً واقعيا لاحداث وحكايا تتابعت طيلة اليوم الذي قضيناه في ضيافة (بني رزين) في مدينتهم التي تعرف اليوم باسم (البراسين) وينطقها الاسبان (البراثين) .



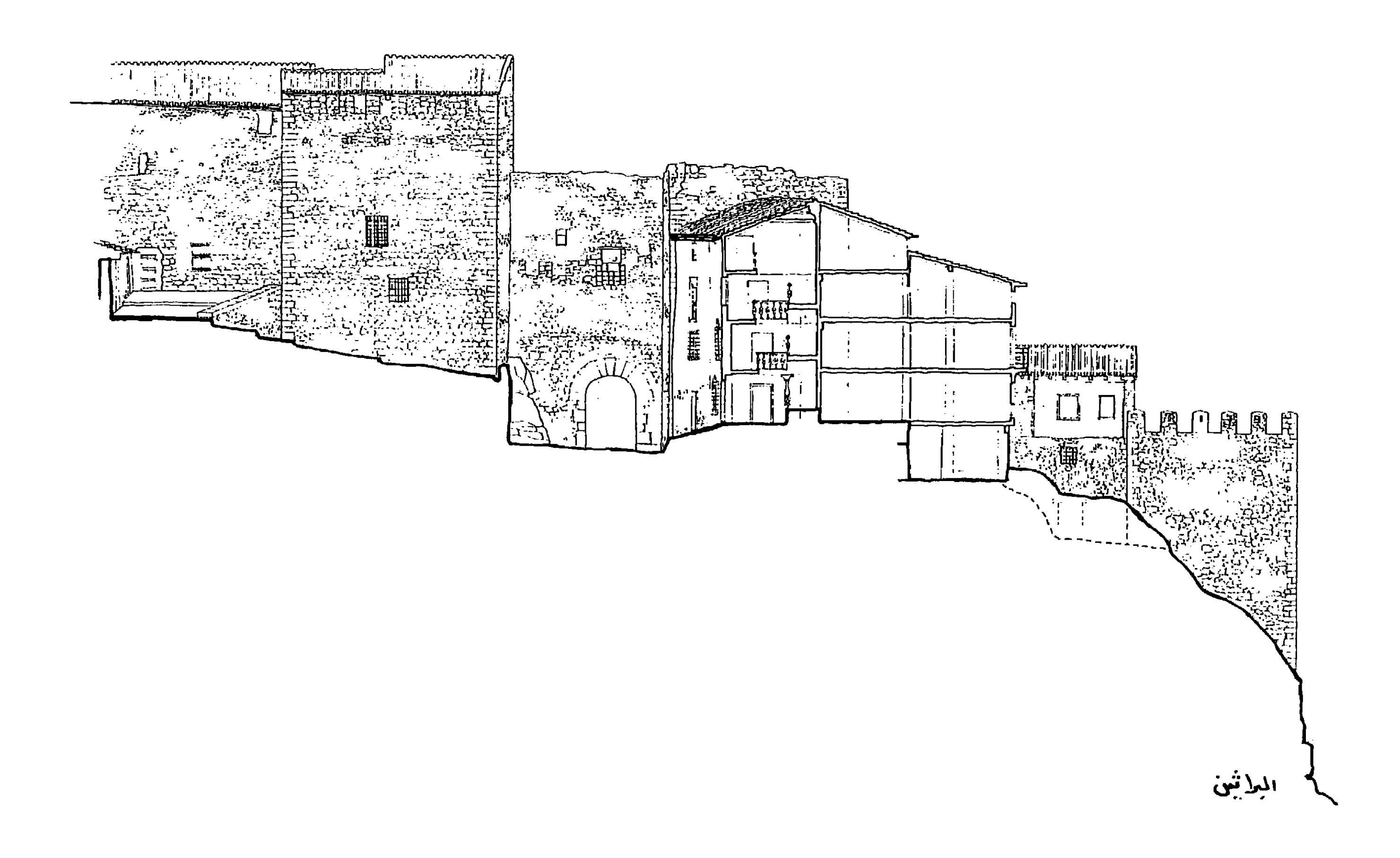
1 - الاعلام - خير الدين الزركلي دار العلم للملايين / بيروت الطبعة الخامسة 1980 - المجلد الرابع ص 166 والمجلد الثامن ص 79 و 155 .

2 - الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة - ابو الحسن علي بن بسام الشنتريني - تحقيق احسان عباس - الدار العربية للكتاب / ليبيا تونس 1981 م - القسم الثالث المجلد الاول ص 113 .

3 - المغرب في حلى المغرب - حققه وعلق عليه شوقي ضيف - دار المعارف بمصر 1955 - الجزء الثاني ص 428 ومابعدها .

4 - البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب / لابن عذارى المراكشي - الدار العربية للكتاب - الطبعة الثالثة 1981 - الجزء الثالث ص 181 ومابعدها - الجزء الرابع ص 43 .

* وللمزيد عن هذا الفارس القشتالى ، انظر ابن بسام الشنترينى : الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة ، القسم الثالث ، المجلد الاول ص : 95 - 101 .


البراثين

ملاحظات من وحي الاوسكريال

من المعالم التى لا يمكن اغفالها حين الحديث عن الاندلس « مكتبة الاوسكريال » ، فهى الى جانب كونها من أشهر مكتبات العالم تعتبر محطة مهمة لكل باحث أو متحدث عن الاندلس أو زائر له .

كنت أتوقع قبل زيارتها اننى سأجد مكتبة بحجم الشهرة التى تتميز بها مكتبة الاوسكريال الا اننى علمت وشاهدت أن الشهرة لم تكن نابعة من حيث الاتساع والفخامة بقدر ما هى ناشئة من احتواء هذه المكتبة عددا غير قليل - وليس كثيرا بالطبع - من المخطوطات النادرة ، اضافة الى ان « الاوسكريال » ليست مكتبة فقط فهى تحوى بجانب المخطوطات ما يعتبره الاسبان تاريخا متكاملا غير منقوص لبلدهم خلال حقبة مهمة .

اننى وان كنت لست معنيا - فى هذه الورقة - بالتاريخ العام للاوسكريال الا انه لا ضرر من اعطاء لمحة موجزة مختصرة .

« الاوسكريال » ليست مكتبة فقط ، فهى بوصف عام مجموعة من المبانى تقع فى قرية بذات الاسم على بعد 41 كيلو مترا الى الشمال الغربى من مدريد ، شيدها « فيليب الثانى » ما بين عامى 1563 و 1589 للميلاد كقصر له عندما نقل عاصمته من طليطلة الى مدريد .

والاوسكريال تشتمل على قصر ودير وكنيسة ومتحف ومكتبة غنية بالمخطوطات العربية كما تشتمل على اضرحة معظم الملوك الاسبان .

واذا كانت الاوسكريال ترضى نهم الباحثين والزوار من حيث تعدد وتنوع محتوياتها وطبيعة أبنيتها وحدائقها ، فانها بالنسبة لنا كعرب ومسلمين تعنى الكثير .

ولانها حلقة لا يمكن تجاهلها حين التحدث عن فترة من تاريخنا فان مبرر الحديث عنها لا يستحق كبير عناء .

كما ان الاحداث المهمة التى مرت بها تعنينا لأنها - ايضا - تتعلق بجزء من تاريخنا وحضارتنا فلا مفر من الاشارة الى بعض من تلك الاحداث التى نتج عنها ضياع جزء مهم من كتبنا ومخطوطاتنا المكتوبة بلغتنا وبأيدى علمائنا وتتناول : عقيدتنا وفقهنا ولغتنا وأدبنا وكل شأن من شئون الاندلس تقريبا .

وأودُّ ان يتقبل القارىء الكريم تداخلا كان لابد منه والذى قصدت من خلاله التنبيه الى ملاحظة ارتسمت فى ذهنى حين اطلعت على التاريخ العام لمكتبة الاوسكريال .

يقول الكتاب « الاعلانى » عن الاوسكريال بأن « فيليب الثانى ساهم شخصيا ومن مكتبته الخاصة بها مجموعه 4000 مجلد من مختلف الاحجام وهذه المجموعة تعتبر المخزون رقم « 1 » بالمكتبة حاليا .

يقول الكتاب ايضا بأنه بعد سنة 1609 م تم اغناء المكتبة بمجموعة عربية نادرة من الكتب والمخطوطات العربية من مجموعة كتب « مولاى زيدان سلطان المغرب » ويفوق عددها 3000 مخطوط اسلامى نادر .

الا ان الغريب ـ والذى أود الاشارة اليه ـ هو ان الحريق الذى شب فى المكتبة عام 1671 م والذى التهم اكثر من 5000 مخطوط نادر قد أتى على معظم المخطوطات العربية وفى المقابل لم يلحق الاذى اى مخطوط من تلك المخطوطات التى زودت بها المكتبة من قبل « فيليب الثانى » .

أليست مفارقة غريبة ان يحدث ذلك ؟!

بعد ذلك الحريق تعرضت المكتبة لضياع آخر خلال عامى 20 – 1823 م وذات الامر حدث للمرة الثانية ، ضاع بعض المخطوطات العربية النادرة وبقيت مجموعة « فيليب الثانى » .

وبعد مرحلة من عدم الاستقرار تعرضت لها المكتبة بلغ عدد محتوياتها من المخطوطات عام 1859 م حوالى 30,000 مجلد ثم اضيفت اليها مجموعة اخيرة خلال القرن الثامن عشر ليصبح العدد 40,000 مخطوط تقريبا .

وثمة عدد لابأس به من المخطوطات العربية لم تتم فهرسته بعد ، ومنذ القرن الثامن عشر لم يتم تزويد المكتبة بأى مخطوط .

وخلال تجوالى بالمكتبة صحبة الصديق الدكتور على الحلو التقيت أحد المشرفين ودار بيننا حوار علمت خلاله أن فهرسا خاصا بالمخطوطات العربية قد انجز مؤخرا يحوى الفى عنوان ، وهو مصور وبه بعض التعليقات بخط اليد وعلمت ان سبب ذلك يعود الى ان العمل فى هذا الفهرس قد توقف بسبب تقاعد من قام باعداده والاشراف عليه ، وحين طلبت نسخة من هذا الفهرس علمت بأن النسخ التى تم طبعها وتجليدها لا تتعدى العشر ، ولا ادرى ان كان ذلك من باب الترغيب أو هو الحقيقة بعينها ومع ذلك فان الحصول على نسخة كان الهدف الذى لابد منه خاصة عندما حاولت ان

اقنع نفسى بأن عدد النسخ محدود جدا !

تتميـز المخـطوطات المفهرسة بأنها مجلدة بطريقة موحدة وبجلد مغربى فاخر ، ومعروضة بطريقة تتميز بها فقط « مكتبة الاوسكريال » من بين جميع مكتبات العالم ، حيث ان كعب المخطوط لا يكون فى مواجهة الزائر .

من بين المخطوطات المعروضة للزوار مصحف مكتوب بخط متقن ومزخرف بماء الذهب ، وكان حين زيارتنا مفتوحا على سورة « طه » ، وحين سألت : هل يتم تقليب صفحات المخطوطات المعـروضـة دوريـا حتى لا تتأثر بعوامل الاضاءة وغيرها قيل بأن ذلك يتم سنويا ، لكن احدى المشرفات على المكتبة لم تؤكد ذلك .

ولاننى كنت قد اطلعت قبل زيارتى لمكتبة الاوسكريال على واحد من احدث الكتب أصدرته اللجنة اليهودية الاسبانية بعنوان « سفاراد 92 » والذى كرس لتثبيت الادعاء القائل بأن الحضارة الاندلسية لا تعود الى العرب والاسلام بقدر ما تعود الى « اليهود » لذلك عقدت العزم على معرفة عدد المخطوطات العربية وعدد المخطوطات اليهودية بهذه المكتبة التى طبقت شهرتها الافاق ، أردت ذلك لا لأعقد مقارنة أو لأتأكد من صحة دعوى باطلة من أساسها ، ولكن لألمس مدى التقصير الذى نوليه لتاريخنا ، وكانت النتيجة ما يلى :

عدد المخطوطات الموجودة حاليا يفوق 40,000 مخطوط منها :

2000 مخطوط عربى نادر .

2090 مخطوطا لاتينيا .

580 مخطوطا باللغة الاغريقية .

72 مخطوطا عبريًا / بالعبرية لا غير .

واذا كان عدد المخـطوطـات العـربيـة فى الاوسكـريال يفوق الالفين « لم نضع فى اعتبارنا المجمـوعة التى لم تفهرس بعد » فكم يا ترى هو عدد المخطوطات العربية فى المكتبات الاسبانية الاخـرى وفى الاديرة والكنائس ونضيف الى ذلك مع بقاء السؤال مفتوحا ـ المخطوطات المكتوبة بالاحرف العربية وبلغة اسبانية والمخطوطات التى كتبها المستعربون والموريسكيون والمدجنون ؟!

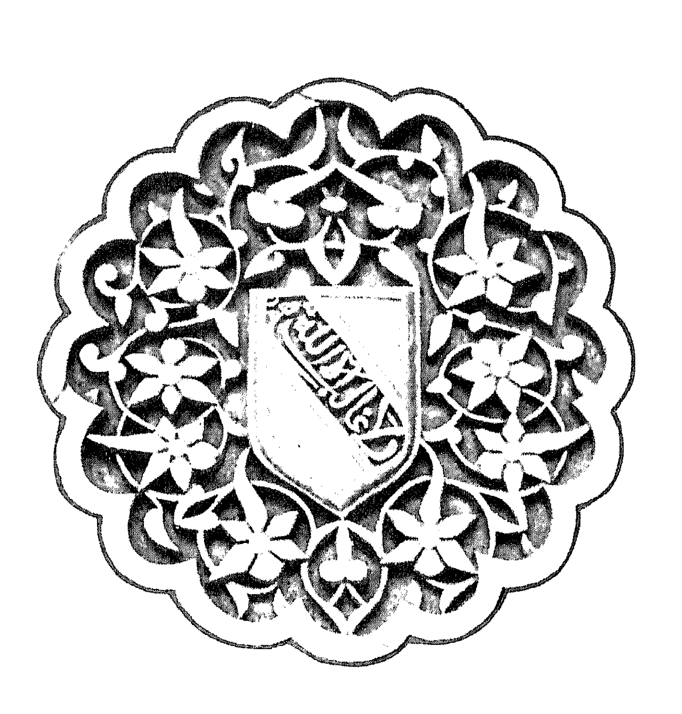
كم يا ترى سيكون العدد الثروة ؟!

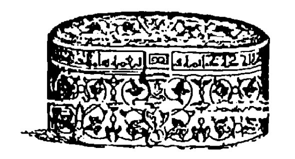
والى اى مدى سيصمد الزعـــم الآخر ؟

الا ان الزعـــم الآخر سيظل قائما ما لم يطلع الواقفون على طرفى القضية على حقائق الامور .

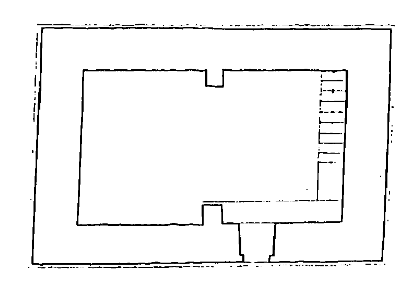
اننا لا يمكن ان نقبل الهروب من تاريخنا والتنكر له والا فان الزمن الذى سنقدَّم فيه باعتبارنا غزاة ليس ببعيد ، عندها لن يجدى اصرارنا على الحقيقة التى تقول بأننا كنا حملة حضارة ورسل هداية .

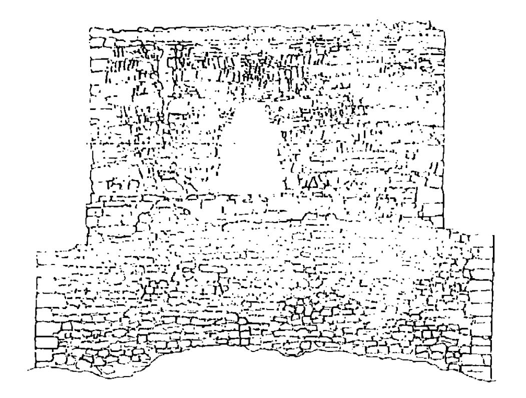






القسم الثاني





الاندلس 1992 : محاولة أولى للاقتراب

عام 1992 للميلاد أريد له ان يكون عاماً متميزاً ، وتشير التوقعات إلى انه سيشهد جملة من المتغيرات الدولية والاقليمية على مختلف الاصعدة .

وإن كانت المتغيرات المتوقعة تهمنا باعتبارنا جزءا من هذا العالم فان درجة اهتمامنا تتفاوت بنسب مختلفة ، ومـا لن نراه جديراً بالاهتمام ربما يكون بالنسبة لغيرنا أهم مايمكن ان يحدث ، الاختلاف يرتبط بمدى تأثير هذا الحدث أو ذاك على هذا الجزء من العالم أو ذاك .

وعـام 1992 للميـلاد هو المنـاسبـة الاحتفـاليـة الكبـيرة التي يمكن خلالهـا الالتفات نحو (الانـدلس) بشكـل ملحوظ وفعال ، وإن كنا قد اضعنا في خضم مانعيشه على مستوى الوطن العربي والعالم الاسلامي مناسبة مرور 500 عام بالتقويم القمري للاهتمام بالاندلس فها هو التقويم الشمسي يمنحنا الفرصة الاخيرة ـ بالنسبة لجيلنا ولعدة اجيال بعده ـ وأملنا أن لاتضيع هذه الفرصة التاريخية التي من خلالها ربما نستطيع ترميم جسور الحوار والتواصل مع منطقة تمتعت بعمق وثراء ومثالية الحضارة العربية الاسلامية .

(الاندلس 1992) يعني مرور 500 عام على تسليم مفاتيح (قصر الحمراء) من قبل ابى عبد الله محمد الصغير للاسبان فجر يوم 2 / 1 / 1492 م . وكانت عملية التسليم تعني : مغادرة المسلمين نهائيـاً لآخـر مدينـة تمتعت بفضل العروبة والاسلام بدرجة رفيعة من التقدم جعلها قبلة العلماء والفنانين ، وجعلها مثالا يُحتذى وانموذجا تمنّت كل مدن اوروبا محاكاته .

ولم يكن تسليم المفاتيح مجرد نهاية لمعركة بين (مملكة قشتالة المسيحية) وبين (غرناطة العربية المسلمة) إن الامر في حقيقته كان اعمق من ذلك ، انه وحسب وجهة نظر الصليبية المتعصبة انتصار اوروبا الكاثوليكية على العروبة والاسلام اثر فشل الحملات الصليبية على مشرق الوطن العربي .

ولذا فان مهاجمي (غرناطة) لم يكونوا اسبانيين فقط ، لقد كانت الجيوش الزاحفة نحوها مكوَّنة من كل الامم الاوروبية وكانت مواقف البابا المحرضة تساند هذه الحركة التي وصفت بأنها (حركة استردادية) .

عام 1992 يعيد الى الاذهان ايضاً حركة المد الاوروبي المسيحي نحو العالم الجديد (امريكا) حيث ابحـرت السفن بقيـادة الاسبـان حملت ايضاً خليطاً من كل شعوب اوروبا جاعلة هدفها

الاساسي : تنصير (الهنود الحمر) ونشر المعتقد الكنسي في تلك البلاد وكأن الحملة كانت ايضاً تعويض كل الذي خسرته اوروبا في حملاتها الصليبية على الوطن العربي .

إن تمثال ملكة اسبانيا (ايزابيلا) وهي تبارك باسم البابا قائد الاسطول الاسباني الاوربي المتجه نحو (امريكا) والمنتصب في احد ميادين (غرناطة) يعني الكثير ، فبعد ان اجبر الاسبان الانـدلسيين المسلمين على ترك بلادهم ومغادرة (غرناطة) هاهي القوة العسكرية الصليبية تعقد العزم على تكرار التجربة مرة ثانية على الشاطىء الآخر للمحيط الاطلسي .

ليس هذا مدخلا للحديث عن قضية تطل على عالمنا المعاصر في نهايات هذا القرن ، انه مجرد نقاط تراءت لي فاحببت ان اثبتها توطئة لنشر حديث مبتور بسبب ضيق الوقت وحصار الزمن الذي لايرحم احدا ترمى به الاقدار ذات يوم في احدى المدن الاوربية التي يطحنها الوقت بلا هوادة .

هذا الحديث شارك فيه بعض الاخوة الذين حاولوا جاهدين تلافي عدد كبير من (القضايا الحساسة) وهم يتحدثون عن قضية (الاندلس 1992) اكثر القضايا حساسية وتعقيداً .

وسأحاول جاهداً عرض وجهات النظر كاملةدون اللجوء الى اسلوب الحوار الذي ربما يكون على حساب الاسترسال .

يقول الاخ / هارون أمين جمعية مسلمي غرناطة :

« هذا موضوع حساس جداً ، ويجب التنبه التام حين تناوله . . لقد حاولنا ان ننشر تقريراً عما سيتم خلال عام 1992 باعتباره الذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف امريكا ، وهو في الوقت ذاته الذكرى المئوية الخامسة لسقوط آخر دولة اسلامية في غرناطة .

ومبعث التنبه الى ضرورة اخذ الحيطة والحذر يعود الى ان المؤسسات الاسبانية ربما لاتنوي الاحتفال باخراج العرب من الاندلس ، أو بالاحرى ربما ليس في نية تلك المؤسسات الاحتفال بانهاء الدولة الاسلامية في غرناطة .

ربما تكون القضية بكاملها مجرد احتفال باكتشاف امريكا .

قلت محاولاً الخروج من سياق الاحتمالات : لكن للقضية جانب آخر .

تابع الاخ / هارون :

نعم ، لقد اتضحت بعض الابعاد الخطيرة خاصة ماقامت به الحركة الصهيونية في محاولة منها الى استخدام هذا التاريخ وكأنه تاريخ لطرد (اليهود) من اسبانيا !

ويبدو انه من داخل الاحتفالات المزمع اقامتها ستحاول الصهيونية تسيير دفة الامور في ذلك

الاتجاه .

ويضيف الاخ / هارون :

إذا كانت الاحتفـالات ستتضمن ما من شأنـه الاشـارة الى ان القـائمـين عليها ومنظميها والمشـاركـين فيهـا يحاولون التأكيد على انها احتفالات مضاعفة تتضمن ايضاً احياء الشعور بطرد المسلمين من اسبانيا فاننا لانملك الا الوقوف بحزم في محاولة منا للحيلولة دون ذلك التوجه .

يضيف الاخ / هارون :

اننا نحاول كخطوة اولى ان نتحصل من الجهات والسلطات المسئولة عن هذه الاحتفالات على بيان صريح ومحدد يؤكد وبما لايدع مجالا للشك على أن الاحتفالات عام 1992 م يجب الا تتضمن وبأى شكل من الاشكال التذكير بالقضاء على الدولة الاسلامية في اسبانيا . . اننا في ظل الوضع الراهن لانملك أكثر من ذلك .

ولابأس اذا نحن نبهنا الى ان عددا من المسلمين الاندلسيين قد طردوا من بلادهم !

ومع كل ذلك فاننا نأمل ان تعتبر هذه المناسبة فرصة طيبة لاعادة اللقاء بالاسلام من جديد .

ومن بين ما اقدمت عليه لجنة تنظيم الاحتفالات قيامها باصدار كتابين ، الاول بعنوان : (الاندلس 1992) وهو مجرد كتاب مصور عن الآثار الاسلامية .

الكتاب الثانى « سفاراد 92 » وهو كتاب وضعه اليهود وعنوانه بلغتهم يعنى « اسبانيا 1992 » مما يدل على انهم يحاولون من خلال هذا العنوان اثبات ان تأثيرهم كان شاملا اسبانيا بكاملها بينما لم يتعد تأثير الحضارة العربية الاسلامية منطقة الاندلس ، ان « اليهود » ومن خلال هذا الكتاب يحاولون اعتبار « طليطلة » عاصمة تاريخية لهم لانها تتوسط اسبانيا وعلى مقربة من مدريد « 70 كيلو مترا » .

ولا مفر من التنبيه الى هذه القضايا نظرا للحساسية المفرطة التى تحيط بها لقد أعطيت لكتاب « سفـاراد 92 » أهمية خاصة ومن خلاله حاولت الصهيونية التأكيد على ان الحروب التى شهدتها اسبانيا كانت دائما بين المسلمين والمسيحيين بينما حاولوا اثبات ان التعايش لم يحدث الا بين اليهود والمسيحيين ، وهم بهذا الادعاء تناسوا حقيقة تاريخية مهمة هى ان أى تعايش شهدته اسبانيا ابان اعتنـاقهـا للاسلام كان بفضل ورعاية الاسلام ، اننا اذا تحدثنا عن « السلطة » التى ترسخ مبدأ التعايش في كنفها كانت « سلطة » اسلامية سنّت القوانين والقواعد المستمدة من الدين الاسلامى الحنيف الذى يكفل وبشكل قطعى مبدأ الاستقرار ، اما الادعاء بأن « التعايش » كان من قبل اليهود

فانه امر لا سند له وهو محض ادعاء .

شارك الاخ / خليل حسن صدقة وهو عربى من فلسطين في هذا الحوار بالقول :-

اليهود بما جبلوا عليه من تزوير وتمويه يحاولون دائما - خاصة خلال الفترة الاخيرة اى منذ « تطبيع العلاقات الاسبانية الاسرائيلية » - تصوير تاريخ اسبانيا في اهم مراحله وكأنه تاريخ من صنع اليهود ، ويحاولون ان يسندوا كل عمل وكل اثر حضارى عربى اسلامى الى تأثيرهم كيهود !!

وكمثال اسوقه في هذا الاطار أود الاشارة الى الاحتفال الالفى « لابن ميمون » ذلك الاحتفال الذى تم بمشاركة واسعة وبشكل لم يسبق له مثيل وهو امر ما كان ليحدث لأى شخص آخر غير يهودى . . . والاغرب من كل ذلك انه في ظل الاحتفال « بابن ميمون » لم يذكر اي من اساتذته العرب المسلمين في قرطبة .

اننا ما لم نبادر بتحرك سريع للحيلولة دون تزوير التاريخ العربى الاسلامى والاسبانى المشترك فاننا سنكتشف بعد فوات الاوان أن هذا التاريخ فى اسبانيا خلال تلك الفترة قد لحقه التزوير والتحريف .

المساهمة الثالثة في هذه الورقة الاندلسية كانت للاخ / جابر ، الذى أثار نقطة تميزت بالحساسية التى كنا نحاول جاهدين الابتعاد عنها .

قال / جابر :-

ان اسبانيا ستحتفل سنة 1992 بتاريخ انتصارها على الاجانب ، سواء كانوا (الهنود الحمر) في امريكا أو العرب المسلمين في غرناطة ! اننى اقول هذا انطلاقا من ان الشعوب لاتحتفل الا بانتصاراتها .

الاتجاه نحو امريكا لم يكن بدافع غير نشر المعتقد المسيحى ولايجب ان ننسى ان الذين حاصروا (غرناطة) سنة 1492 م . كانوا ينتمون الى مختلف القوميات الاوروبية وان الذين اتجهوا نحو (الهنود الحمر) كانوا ايضاً من مختلف القوميات الاوروبية وفي كلا الحالتين كانت (بركات البابا في روما) تدفعهم الى الامام !

ان ماتم في غرناطة ثم في امريكا هو من وجهة نظر الكثيرين كان مجرد معركتين في حرب واحدة .

انني ارى - الحديث لايزال لجابر - ان الاحتفالات التي ستنتظم سنة 1992 ستكون عبارة عن تناول الجميع نخب انتصار المسيحية على الاسلام في غرناطة وعلى الهنود الحمر في امريكا .

قلت للمتحدثين :

اذا كانت احتفالات 1992 م واضحة المعالم فيما يتعلق بحركة الكشوفات وانطلاقها فانها ليست واضحة بدرجة كافية فيما يتعلق بالاندلس .

وإذا سلمنا بأن ثمة من يرى أن عام 1992 م هو مناسبة للاحتفال بالذكرى المئوية الخامسة للانتصار في معركتين اعتبرتا من ضمن حرب واحدة فاننا سنلمس ان مايعتبر انتصارا قد يحيى مأساة حفرت بقوة وعمق في ذاكرة الاندلس .

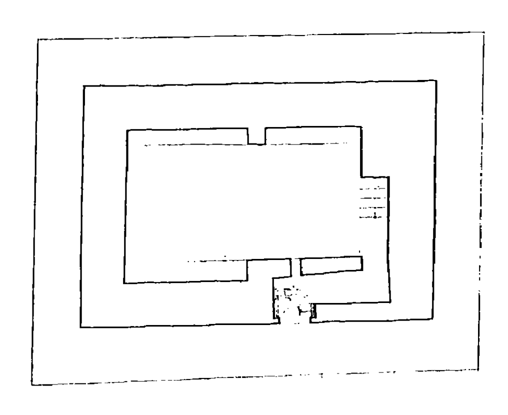
وللاندلس ذاكرة حافظة بلا ريب .

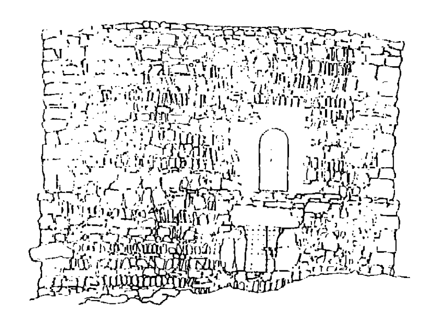
اوليس من المجدي البحث عن طريقة ما تؤكد على ضرورة احياء التواصل بين الاندلس والعرب والاسلام ؟!

إن القضية التي نطرحها اعتباراً من الآن تتطلب مساهمات جادة وفعالة من أجل اخراج الاندلس 1992 من عنق الزجاجة ، والمسلمون في الاندلس يتمنون ذلك ، لكن الاماني وحدها لاتصنع التاريخ ولاتصحح الاخطاء ولا تحول دون الاخرين ومحاولة العبث بأهم مظهر من مظاهر التأثير والتأثر الحضاري في منطقة لاتزال وستبقى مهوى افئدة عشاق الحضارة العربية الاسلامية ولانعني في هذه الورقة غير : الاندلس .

ثمة وثائق كثيرة ومواقف متعددة متباينة أو متكاملة حيال (الاندلس 1992) وقد تمكّننا **الظروف من متابعة مايتسنى لنا الاطلاع عليه أو ماينمى الى علمنا** . وكل ذلك في اطار مهم أحب ان يعلمه القارىء الكريم واعني به ان من بين ميزات الحضارة العربية الاسلامية انها لاتغمض اعينها عن كل القضايا ، بل هي قادرة على تناول اعقد القضايا في احرج الاوقات وبشكل متواز تماماً .







الاندلس 1992 : ومحاولة أولى للفهم!

حتى يمكن فهم « الاندلس 1992 » بشكل صحيح وقريب من مجريات الامور فان الاستماع لوجهة النظر الاسبانية ونشرها وتوثيقها والبحث من خلالها عن نقاط الالتقاء من الامور التي أرى انها ذات جدوى في هذا الاطار الذي نتحدث من خلاله .

والاندلس 1992 م . من وجهة نظرنا مناسبة يمكن من خلالها تصحيح عدد من المفاهيم الخاطئة والمشوهة التي الصقت بالتاريخ العربي الاسلامي في ربوع الاندلس .

واذا كان تغيير وجهات النظر من الامور الصعبة على المستوى الشخصي فان ذات العمل يتصف بالصعوبة والدقة حينما يتعلق الامر بوجهات نظر تشكلت عبر مئات السنين ، وهو ما يجعل قضية الاندلس 1992 م ذات أهمية خاصة .

ومن المهم أن ندرك أن اي عمل يتعلق باعادة قراءة التاريخ يتطلب باديء ذي بدء فهما عميقا وناضجا بهدف عدم الوقوع في ذات النقاط السلبية التي تتعلق بتفسير التاريخ .

ويـزداد الامر صعوبة ودقة حينما يتعلق الحديث بتاريخ مشترك لطرفين اجتمعا وتفاعلا في منطقة تميزت منذ مراحل الاندماج الاولى بخصوصية لا تزال محل دراسة وتحليل وانبهار .

ان محاولـة فهم « الاندلس 1992 م » تتطلب - فيما يبدو - وضوحا في المواقف المتخذة حيال بعض الوقائع التاريخية التي يتغير تكييفها تبعا لتغير زاوية الرؤية .

انني هنـا لا ادعي أنني أوضـح كل ما يحتاج الى ايضاح أو فهم فتلك مهمة تنوء بحملها المؤسسات ذات العلاقة فكيف برأي لم يقدر لصاحبه بعد أن يحدد ولو بشكل تقريبي أحد أبعاد قضية بدأت تشد اليها الاهتمام !

ومع هذا فان المحاولة تظل موقفا ايجابيا قورنت - أو لم تقارن - بعدم الالتفات نحو هذه القضية .

من جانب عربي اسلامي لا خلاف في أن الحدث موضوع هذه الاوراق الاندلسية يفرض نفسه . . لا فرق حياله بين المتخصص أو بين المؤرخ والاديب وكاتب مقال سيار وسائح .

وعلى الرغم من اختلاف طريقة الاهتمام فانها تظل على كل حال وقفة ايجابية نحو حدث من المؤكد ان الايام لن تمكننا جميعا من معايشته مرة ثانية حتى ولو دعوت للجميع بطول العمر ! !

جاءت قضية « الانـدلس 1992 م » في سياق التحضير للاحتفالات بمرور 500 عام على اكتشاف الاوربيين بقيادة الاسبانيين وبعض العرب للعالم الجديد .

والاندلس 1992 م تظاهرة على هامش الاحتفالات الرئيسية التي بدأ التحضير لها منذ فترة ليست طويلة ، وان كانت الفكرة اساسا ليست بالجديدة .

ولا بأس من اعطاء القارىء الكريم فكرة موجزة عما اصطلح على تسميته في اسبانيا بـ « لجنة الاندلس لعام 92 » وهي معلومات مستقاة من تقرير معد للعرض على الامين العام لجامعة الاقطار العربية من قبل رئيس بعثة الجامعة العربية في مدريد واعضاء السلك الدبلوماسي العربي في اسبانيا .

يقول التقرير :-

« لجنة الاندلس 92 :

تم انشاء هذه اللجنة في عام 1986 م ، وقامت منذ ذلك التاريخ باعداد الاستراتيجية العامة لاعمالها المستقبلية ، وفي شهر يوليو 1987 م تم اعلان غرناطة عاصمة للثقافة العربية بحضور السادة سفراء الدول العربية ورئيس اللجنة الوطنية السيد لويس يانييس ، وتم اختيار الاستاذ اميليو غارسيا غوميث رئيسا شرفيا لها باعتباره من كبار المستعربين الاسبان ، ولكن لكبر سنه لم يستطع متابعة اعمال اللجنة وتم تكليف مدير المعهد الاسباني العربي للثقافة السيد ماريانو الونسو بورون بمتابعة اعمال اللجنة تحت الاشراف المباشر لرئيس اللجنة الوطنية مع الابقاء على الرئاسة الشرفية للسيد غوميث اسميا ، كما وجهت اللجنـة الـوطنية الـدعـوة لمشـاركـة بعض المـديرين العامين ليتولى كل منهم اختصاصاته الثقافية المنوطة به ، كما استطاعت اللجنة ضم رؤساء اقسام اللغة العربية بالجامعات الاسبانية لتغطية فروع اللغات العربية كآداب اللغة والفنون والثقافة والتاريخ وغير ذلك » .

واضح أن القضية تحظى باهتمام بالغ في الاوساط الاسبانية من خلال الشخصيات المشاركة والتي من المتوقع ان يكون لها اسهام واضح في تحقيق اهداف اللجنة التي تحاول « ابراز الدور الذي لعبه العرب في اكتشاف امريكا وكذلك التأثيرات العربية التي نقلها الفاتحون الاسبان الى القارة الامريكية ، كما تهدف اللجنة الى تأكيد ان اسبانيا هي ثمرة سنوات طويلة من التعايش الثقافي العربي الاسلامي المسيحي » **« التقرير المذكور »** .

ان اهداف اللجة ليست بسيطة وهي في بعض النقاط تحاول فهم العلاقة التاريخية في اطار يحاول قدر الامكان الوقوف امام ما تدعيه الحركة الصهيونية واذرعها الضاغطة في اسبانيا من أن

الوجود العربي الاسلامي في اسبانيا لم يكن كما عرفته الدنيا بأسرها ، بل انه وجود ارتبط ـ حسب وجهة النظر اليهودية ـ بالتنافر وعدم الاستقرار .

ولعلها من الفرص النادرة التي تتاح للعرب والمسلمين في هذا العصر للوقوف بحزم وقوة مع اطراف اخرى تقدر بفهم عميق ، حقائق التاريخ أمام الصهيونية التي بدأت ومنذ فترة دق طبول التخريب والتشويه والدس والتزوير .

فهل من المؤمل أن يحدث في اسبانيا وبمناسبة « الاندلس 92 م » ما لم يحدث في غيرها من البلدان الاوربية ؟!

أعني هل ستتمكن من جعل الآخرين يطلعون على حقائق التاريخ وعدم الانسياق وراء جوقة الافتراء الصهيونية ؟!

الواقع الذي نعيشه ، وعمليات الرصد الاولى التي تتابع مجريات الامور لا تمدنا بما يجعلنا نطمئن ولو قليلا الى كسب هذه الجولة !!

وربما من قبيل وضع العصى في الدواليب نشرت صحيفة « البايس » الاسبانية في عددها الصادر في 23 / 2 / 1988 م خبرا جاء فيه حين الحديث عن « الانـدلس 92 » مانصه : **« . . . أوساط دبلوماسية تعترف بان هذا المشروع لا يسير في حالة متقدمة » والسبب كما ارجعته الصحيفة يعود الى أن العرب المعنيين بهذه القضية « عشرون دولة على الاقل وعليهم ان يتفقوا بشكل مسبق » !!**

وهنا « مربط الفرس » كما نقول نحن العرب !

الاسبانيون يتمنون أن نساهم بشكل فعال لكن واقعنا يجعل الامر صعبا .

أوليس مهما ومحزنا أن يتمنى الآخرون لنا وحدة رأي على الاقل في مناسبة ستشهد ـ كما تعلمون جميعا ـ ميلاد احداث كبيرة في مقدمتها : أوروبا موحدة ؟!

لنخرج من عنق الزجاجة هذا ، ودعوني أحاول فهم « الاندلس 1992 م » وفي اطار ما تم انجازه من قبل لجنة « الاندلس 92 م » ذكر السيد لويس يانييس في لقائه بالسفراء العرب ان الاجتماع الذي انتظم بهذا الشأن « وافق على عدة مشروعات مهمة للمدى القريب والبعيد . . ومنها :

كتاب عن الاسلام في اسبانيا الذي تم طبعه باللغة الاسبانية وتجري حاليا ترجمته للانجليزية والعربية .

كتب اخرى مثل كتاب عن ملوك الطوائف .

معارض حول مساهمة العلوم العربية في اكتشاف امريكا .

معرض حول الاسلام في بلنسية وخاصة المعرض الكبير الذي سينظمه المجلس الاوربي في مدينة غرناطة عن التراث العربي وتأثيره في أوروبا .

برامج ولقاءات ومؤتمرات علمية حول الحضارة العربية في اسبانيا .

عدة مشاريع أخرى .

ومن أجل انجاح تلك التظاهرات تمنى السيد يانييس مساندة ومعاونة الجامعة العربية والاقطار العربية ، وركز في حديثه على انه من « المهم ان تكون هناك برامج مشتركة تشارك فيها الاقطار العربية والجامعة العربية . . وتقدم السيد يانييس ببعض المقترحات في هذا المجال ومنها على سبيل المثال :

1)ـ **اقامة نظام دعوات للمثقفين والصحفيين ورجال السياسة والكتاب والبرلمانيين والمفكرين والفنانين الاسبان لزيارة الجامعة العربية وعواصم الاقطار العربية ، وكذلك قيام شخصيات عربية من نفس المستويات لزيارة اسبانيا .**

2)ـ **تنظيم لقاءات بين السفراء العرب وما يسمى بقادة الرأي العام الاسباني** « التعبير للسيد يانييس » .

3)ـ دراسة وبحث كيفية جعل وسائل الاعلام الاسبانية وخاصة التلفزيون في الصورة الحقيقية **حتى يكون الخبر والتعليق الصادر عما يتصل بالعالم العربي اقرب الى الحقيقة من الان .**

4)ـ بحث اقامة اتصالات اكثر فعالية مع التلفزيون ووضع خطة عمل مركزة .

5)ـ **هناك الكثير من الامكانيات متوفرة لدى الجانب العربي ونحن « الحديث للسيد يانييس » على اتم الاستعداد لفتح كل المجالات لتحقيق الوصول الى اعطاء صورة أحسن للعالم العربي وفهم أوضح للقضايا العربية » .**

ان الجانب الاسباني يحاول مد جسور التعاون وبشكل أصح يحاول ترميم جسور الحوار **المشترك ، وثمة اصرار واضح على انجاح محاولة الفهم المشترك لخصوصية العلاقة مع الوطن** العربي .

الا ان محاولة الفهم تصطدم بين الحين والآخر **بخصوصيات الجانب العربي ، ومن تلك** الخصوصيات اضافة الى عدم الاتفاق العام بطء التحرك الفاعل والمتابعة الدقيقة والرصد المتصل .

وتجدر الاشارة الى ان التقرير المرفوع الى امين جامعة الاقطار العربية كان خطوة بديلة

لاجتماع حالت ظروف معينة دون انتظامه .

الحركة في الجانب الآخر لا تهدأ ، والاستعدادات لم تتعثر ومن المهم التنبيه الى ضرورة تلافى ما ينتج عن اضاعة الفرص المتاحة . . . وقد يضطر العرب الى « لململة » في اللحظات الاخيرة وهي ان حدثت ستكون موسومة بطابع الاستعجال والارتجال .

تبقى على البال عدة اسئلة :

ما هو الموقف الحالي ؟

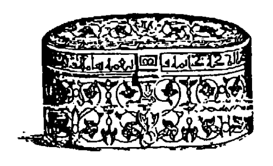
ما هي المساهمات المتوقعة من الدول الاسلامية ؟

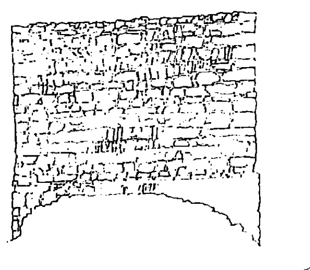
كيف يمكن ان تساهم المنظمات الاسلامية في تظاهرة « الاندلس 92 » وفي مقدمة تلك المنظمات : منظمة المؤتمر الاسلامي ؟!

ما الذي يمكن أن نصل اليه من نتائج منذ الآن وحتى 1992م ؟!

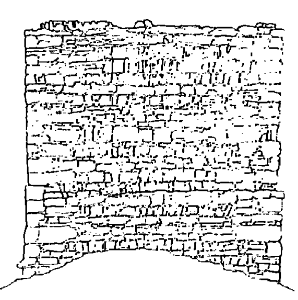
ما هي الاثار المتوقعة والمنشودة من خلال المساهمة فى هذه التظاهرة ؟

إن القضية كما اسلفت تفوق قدرة الفرد وتتطلب عملا كبيرا على مختلف المستويات .





ALZADO ESTE



ALZADO OESTE

SECCION A-B

الاندلس 1992 : ومحاولة أخيرة للايضاح !

موقفان متناقضان تماما تحاول اسبانيا التوفيق بينهما بهدف انجاح احتفالاتها التى ستبلغ الذروة عام 1992 م . . . .

الموقف العربى الذى يجد سندا قويا : تاريخيا وحضاريا وجغرافيا واقتصاديا ، الامر الذى حدا بالسيد « لويس يانييس » كاتب الدولة للتعاون الفنى ورئيس اللجنة الوطنية للاحتفالات بالذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف أمريكا الى مخاطبة السفراء العرب صبيحة الاربعاء 21 / 10 / 1987 م بالقول : « أريد أن أؤكد مرة أخرى ان السياسة الاسبانية تجاه القضايا العربية مازالت ثابتة ، ونحن سواء أعضاء الحكومة أو اعضاء الحزب الاشتراكى بحكم تكويننا والبيئة التى عشنا فيها نحس بتقارب تلقائي مع الشعوب العربية » .

الموقف الصهيونى / النقيض يجد سندا من قوى الضغط الاسبانية خاصة والاوروبية بشكل عام مع جهود سفارة الكيان الصهيونى بمدريد والذى وجد الفرصة السانحة من خلال كلمات وردت **في خطاب للملك « خوان كارلوس » ألقاه في « الكنيس اليهودي » بمدينة « لوس انجلوس » بولاية** « كاليفورنيا » الامريكية خلال جولته بها عام 1987 ، وكان مما قاله امام اعضاء جمعية اليهود البالغ **عددهم 650 عائلة ينحدر اصل الاغلبية منهم من اسبانيا : « ان اسبانيا تتحمل مسئولية ماارتكبته في** حق اليهود تاريخيا وذلك بكل وعى وضمير وتعترف بالاخطاء السلبية التى اقدمت عليها » .

موقفـان متنـاقضان جذريا تحاول اسبانيا الجمع بينهما في فترة اتضحت فيها ابعاد ومواقف لايمكن بأى حال تجاوزها .

في الجانب العربى :

قوة اقتصادية « ورؤوس أموال عربية تستثمر في اسبانيا ، لكن هذا القطاع لايستعمل للضغط في اسبانيا » كما قال السيد « الفونسو غيرا » نائب رئيس الحكومة في حوار مع أحد الوزراء الاسبان طالبا منه نقل هذه الملاحظة وغيرها الى الجانب العربى .

« هناك حملة اسرائيلية شديدة تكتسح اسبانيا وخاصة في وسائل الاعلام » والكلام هنا لكاتب الدولة للتعاون الفنى في الحكومة الاسبانية .

ويبدو من خلال هذين المؤشرين ان قضية « الاندلس لعام 1992 ستلاقى صعوبات جمة .

وما دامت هذه الورقة الاندلسية هى المحاولة الاخيرة للايضاح بعد محاولة أولى للاقتراب ، ومحاولة اولى للفهم فلا بد والحال كذلك من تكثيف جملة من القضايا حين عرضها على امل ان يجد القارىء الكريم صورة واضحة ولو بشكل نسبى .

لم تترك الحركة الصهيونية العالمية ووسائلها الامور تسير حسبما يتمناه الاسبانيون ، ويشير الى ذلك تقرير دبلوماسى خاص وضعته احدى الادارات المختصة بالشأن الاوروبى بالقول : « ان صراعاً يدور حاليا بين المشرفين الاسبان على تنظيم المهرجان الدولى الذى سيقام في عام 1992 بمدينة اشبيلية الاندلسية لاحياء الذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف القارة الامريكية على ايدى الاسبان حيث يصر بعض منهم من المدعوين من قبل الصهيونية الدولية على ابراز دور اليهود الذى لعبوه تاريخيا » .

وفعلا استطاعت الصهيونية ان تطرح الورقة الاولى في اطار اهدافها ، فاصدرت من خلال اللجنة اليهودية الاسبانية التى تشكلت اثر اقتراح من الملك « خوان كارلوس » كتاب « سفاراد 92 »

وهى التسمية العبرية لاسبانيا وبه عنوان فرعى يقول بالحرف « اسبانيا اليهودية » وعملت على اعلان « طليطلة » مدينة يهودية مما يوحي بأن الصهيونية اعتبرت اسبانيا ـ ومنذ مئات السنين ـ مجرد « جيتو يهودى » الامر الذى لم يجد له الاسبانيون انفسهم اى سند تاريخي .

بعض وجهات النظر تذهب في تفسير الامر الى ان الحركة الصهيونية تحاول من خلال مثل هذا العمل استحداث نقاط ارتكاز ودوائر ضغط في عدد من بقاع العالم .

ان وصف الملك « خوان كارلوس » ما تعرض له اليهود على أيدي الملوك الكاثوليك عام 1492 م بأنه « قضية غير عادلة وحكم جائر » يثير في الذاكرة عددا من التساؤلات في مقدمتها بلا ريب : وضع الاسبانيين والعرب الذين طردوا من كل مدينة اسبانية تصل اليها الحملة الكاثوليكية والتي استمرت بعد سقوط غرناطة في ذات العام 1492 م لاكثر من مائة عام .

وثمة في العديد من بقاع العالم وخاصة في المغرب العربي مئات الاسر الاسبانية التي ما فتئت تحلم بيوم العودة الى ارضها ، ومنت الانفس بأن يشار اليها باعتبارها تعرضت ايضا لعملية طرد على ايدي الملوك الكاثوليك يمكن وصفها ـ اعني عملية الطرد ـ بأنها « قضية غير عادلة وحكم جائر » تعرض له ابناء اسبانيا .

ثم .

هل بدأت عملية تصحيح التاريخ الاسباني فيما يتعلق باليهود فقط ؟!

وهل أن حركة المد الكاثوليكية في كل اسبانيا على حساب الاسلام يمكن أن توضع على بساط البحث ؟!

ثم .

كيف يمكن وصف « الانتصارات الكاثوليكية في حركة « الاسترداد » التي ساهمت فيها كل جيوش أوروبا كما ينعتها المؤرخون الاوربيون » بأنها ارتكبت « احكاما جائرة » في حق اليهود فقط ؟ ونحن : عربا ومسلمين واسبانيين نعلم ان محاكم التفتيش شملت كل من لم يكن كاثوليكيا ؟!

ثم .

لماذا طرد اليهود ـ ان سلمنا جدلا بأنهم طردوا ـ من اسبانيا فى ذات الوقت الذي طرد فيه المسلمون ؟!

فلماذا الاعتذار لليهود فقط ؟!

الجانب العربي لا يزال حذرا في حين ان الجانب الصهيوني لم يَرْعَ للتاريخ حرمة ولم يحترم ما للاسبانيين من تميز منحهم اياه الاسلام طيلة ثمانية قرون .

الجانب العربي ـ وبكل علله وعيوبه ـ مطالَب بأن يقول رأيه وهو مؤهل لذلك لانه جانب يمتلك مفاتيح الحوار ، وبيده جملة من الحقائق والوقائع التي ان طرحت بهدوء وعمق سيكون لها اكبر الاثر في وضع الامور في مسارها الصحيح .

الجانب الصهيوني حاول ان يقدم للاسبانيين فصلات مجتزأة ومشوهة من التاريخ وهو يعلم ذلك ، لكنه يراهن فقط على المبادرة ، وفي المبادرات الصهيونية عادة يتم القفز على كل حقيقة تاريخية لا تتمشى والاهداف الرئيسية للحركة الصهيونية ، وفي كتاب « سفاراد / سفرعاد 1992 » عدة نقاط تتصادم وبشكل صارخ مع حقائق التاريخ .

ولكن .

لماذا طرد اليهود مع المسلمين ـ اذا سلمنا جدلا بأن طريقة طرد اليهود لا تختلف عما لاقاه المسلمون بسبب دينهم ؟!

اذا قلنا بأن أوروبا عرفت الاسلام عن طريق العرب ورأت بأعينها ذات المواصفات المعروفة في القرون الوسطى بأن الاسلام ليس الا دين « العرب الغزاة للجنوب الاوربي » فقامت باخراج المسلمين الاسبانيين من ديارهم بسبب هذا التفسير وبسبب الفشل الذريع في الحروب الصليبية على الشرق العربي المسلم . . اذا كان ذلك كذلك بالنسبة للمسلمين في اسبانيا . . فما هو المبرر الذي

رأى العاهلان الكاثوليكيان انه يسوغ اجتثاث اليهود من اسبانيا ؟!

التاريخ لا يقول بأن « اليهود » جاءوا مع الاسلام حتى يخرجوا معه .

والتاريخ لا يقول بأن اليهود كانوا من قوميات اخرى غير الاسبانية حتى تتخذ ذريعة القوميات « الغازية » لطرد اليهود .

والتاريخ لا يقول بأن الاسبانيين لم يخبروا اليهود الذين عاشوا بينهم وهم من أبناء جلدتهم .

اذا :

ماذا وجد العاهلان الكاثوليكيان في اليهود حتى يجعلا بعضا منهم يغادر اسبانيا مع كافة المسلمين ؟! ان للقضية جوانب لم تتضح ، وبشكل ادق لا يراد لها ان تتضح !!

من الثابت تاريخيا ان اليهود الاسبانيين وجدوا في الفتح الاسلامي انقاذا لهم من قسوة « القوط » فعملوا جاهدين وبطرق مختلفة حفظتها كتب التاريخ من اجل الانضمام للجانب العربي حامل لواء الاسلام ، ولم يكن ذلك من قبيل الصدف أو مجرد الاستقراء بل ان مراسلات عدة جرت بين الطوائف اليهودية في الدولة الاسلامية ويهود اسبانيا حيث اكدت تلك المراسلات بأن الاسلام سيكون أفضل مظلة يمارس من خلالها أتباع مختلف الملل والنحل نشاطهم بحرية مطلقة .

وكان مما حفز اليهود الاسبان الى معاداة النظام القوطي تأثر نشاطهم الاقتصادى ، لذا لم يتوانوا في اعلان قبولهم بالوضع الجديد .

ولم تخب آمالهم حيث وجدوا في الدولة العربية الاسلامية في اسبانيا ما كانوا يرجونه .

الا انهم في مراحل متأخرة من أيام الدولة الاسلامية خاصة في اقليم الاندلس غيروا حلفاءهم لادراكهم بأن المد الكاثوليكي لن يتوقف .

لم يكونوا هذه المرة في وضع يمكنهم من اعلان ترحابهم بشكل مطلق ، لكنهم ـ وبناء على شهادات تاريخية ـ اختاروا العمل على كلتا الجبهتين :

يساعدون المسلمين على المغادرة بمقابل .

ويساعدون الكاثوليك على التقدم وبمقابل .

ولم يغادروا جميعا اسبانيا .

ومن بقى منهم ظل يراهن على ما تم ابرامه من عقود صلح بين المسلمين والكاثوليك والتي بمقتضى نصوصها كان من المفترض ان تحترم كل العقائد .

الا ان الامور لم تسر على ذلك المنوال .

وبدأت محاكم التفتيش .

وأحس بعض اليهود بأن الامور لن تسير مثلما كانت تسير في ظل الاسلام ، فقرروا المغادرة بما خف حمله وغلا ثمنه حتى لا تقع اموالهم التي تم جمعها من المغادرين المسلمين ومن الزاحفين من الشمال الاسباني حتى لا تقع تلك الاموال في قبضة الجند الكاثوليك بحجة تمويل حركة الاسترداد .

اختار بعض اليهود تغيير الحلفاء .

واختار بعضهم تغيير العقيدة وأعلنوا اعتناقهم المذهب الكاثوليكي في انتظار حصول أمر ما .

لم يرتكب « العاهلان الكاثوليكيان » اي حكم جائر في حق اليهود ، لان هؤلاء يدورون حيث تدور المصلحة الذاتية بعيدا عن أي شعور بالانتماء الا للربا والاحتكار .

ان مغادرة بعض اليهود البلاد الاسبانية في ذات الوقت الذي انحسر فيه الوجود الاسلامي قسرا على ايدي العاهلين الكاثوليكيين لا تعنى بالضرورة ان اليهود وحدهم يحتاجون الى وقفة لتصحيح موقف ما حيا لهم .

وهنا من حقنا ـ ان لم يكن من واجبنا ـ التذكير بآلاف الاسر الاسبانية التي حملت معها مفاتيح منازلها واضطرت الى مغادرة البلاد تحت وطأة ما وصفه الملك « خوان كارلوس » بأنه : حكم جائر وقضية غير عادلة .

ان هذه الجملة تعني ببساطة : حكم بادانة العاهلين الكاثوليكيين اللذين قاما بعمل وصف من قبل الاوربيين جميعا بأنه « حرب استردادية بطولية » تحت رعاية وبمباركة « البابا » في روما .

ان الحكم بتجريم أي فعل من شأنه أن يحفز كل متضرر الى البحث عن طريقة لازالة ما لحقه من ضرر .

والحكم بادانة العاهلين الكاثوليكيين يعني من ضمن ما يعنيه : فتح ملفات محاكم التفتيش التي استهدفت وبشكل اساسي « تنصير كل من هو غير كاثوليكي » مما نتج عنه تغيير المعتقد بالاكراه .

والحكم بادانة العاهلين الكاثوليكيين اللذين تسلما مفاتيح « قصر الحمراء بغرناطة » يعني من ضمن ما يعنيه الاستماع وبقلب مفتوح الى اية مداخلة أو مرافعة من أي طرف متضرر ، ولا يعني بأي شكل قصر عموم منطوق الحكم على جزء من كل مع تطابق الوقائع والادلة والنتائج بالنسبة للكل .

في الجانب العربي لا يمكن ان تتم المراهنة على ما استقر في كتب التاريخ دون القيام بأي عمل ايجابي مع الطرف الآخر وهم هنا كل أبناء اسبانيا من أجل ربط الحاضر بالماضي .

الجانب العربي والاسلامي يجب الا يكتفي فقط بملاحقة ما ينتج عن الحركة الصهيونية ، وانما عليه أن يأخذ بزمام المبادرة ليزيل صحبة أبناء اسبانيا ذلك الركام عن تاريخ مشترك مشرق .

ولعل السيد وزير التعاون الفني الاسباني أصاب كبد الحقيقة عندما قال : « ان ما نفهمه نحن - وفي رأيي الشخصي - أنه لا يكفي ان يكون الجانب العربي ضد ما تقوم به اسرائيل في اسبانيا ، بل لابد من ان يتخذ العالم العربي مواقف ومبادرات ويضع المشروعات والاقتراحات لمواجهة هذه المبادرات ، وسيجد من الحكومة الاسبانية ومن كتابة الدولة في التعاون الفني كل المساعدة والمساندة » .

ماذا تريدون اكثر من ذلك ؟!

فقط أمسكوا بزمام المبادرة .

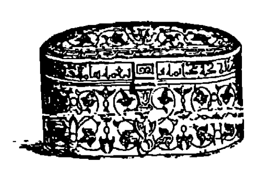
الامكانيات لا تنقصنا ، وثوابت واضحة ومحددة تسند تاريخنا المشترك مع اسبانيا .

الظروف مهيأة لتلافي السلبيات ، وتجاوز نقاط الاختلاف الصغيرة والهامشية .

أوليس مهما ومشجعا ان يعلن الاسبانيون رأيهم بكل وضوح وقوة ؟

فهل يمكن أن نتفق من أجل تاريخنا وماضينا وغدنا ان عجزنا عن ذلك في يومنا هذا ؟!

و « جادك الغيث اذا الغيث همـــــا   يا زمان الوصل بالاندلـــــس »



الاندلس الشاهد الحي !!

« ولا تفرقوا » شعار ندوة علمية نظمتها جمعية الدعوة الاسلامية العالمية فى الثلث الاخير من شهر رمضان المبارك عام 1397 و . ر 1989 م ، شعار تلك الندوة تداعى الى الذاكرة وأنا اكتب هذه الورقة الاندلسية . . صحيح أن ما تحويه هذه الورقة من احاديث سبق الندوة بأشهر ، وصحيح كذلك أن هذه الاحاديث دارت فى « مجريط » أو مدريد العاصمة الاسبانية كما نعرفها اليوم ، لكن القضايا الحيوية والحية تتخطى بسبب عمقها وصدق محتواها مسافات الزمان والمكان .

ولا أريد أن أقول : إن كانت للزمان مسافات .

وحينما حظيت بشرف حضور اعمال الندوة العلمية « ولا تفرقوا » واستمعت الى الامثلة التى ساقها المحاضرون والمحاورون كتدليل على ما للتفرق بكل اشكاله وصوره من عواقب وخيمة قديما وحديثا وفى كل ربوع الوطن العربى وارجاء العالم الاسلامى كنت استرجع ما كان يقوله أبناء الاندلس الذين تحدثت معهم كما كنت استذكر لمحات من تاريخ الاندلس الذى يحوى بين دفتيه الامثلة الملموسة والمقنعة على عمق المأساة التى حدثت بسبب التفرق .

قد يقول البعض ـ وما أكثر منتقدى هذه الاوراق الاندلسية ـ بأن الاندلس امر مضى وانقضى ، فلم البكاء على الاطلال الدوارس ؟!

ولم الضغط على آثار جرح خيل الينا انه اندمل منذ قرون ؟!

انني وان كنت لست مطالبا بوضع اجابات لكل ذلك وغيره الا أنني مضطر للقول : ان الجراح التى تصيب اية حضارة تظل نازفة أبد الدهر ، فكيف بجرح اصاب حضارة بنيت على التوحيد وهو حقيقة نادى بها سقراط والحكماء ؟!

وربطا للحاضر بالماضى ذكر أحد المشاركين فى الحديث الذى تتضمنه هذه الورقة الاندلسية واقعة اتحاد « المعتمد بن عباد » صاحب اشبيلية بالمرابطين ، تلك الوحدة التى أخرت سقوط الاندلس مئات السنين .

كما سنكتشف من خلال هذه الورقة أن من اكتوى بنار الفرقة والطائفية والتحزب يعلن بملء فيه : ولكم فى الاندلس العبرة لمن اعتبر .

وفى ورقتنا هذه دعوة صادقة من أبناء الاندلس موجهة الينا جميعا لبناء جسور حوار مع شعب كان سيد لغة الحوار بلا ريب . . فهل ستجد هذه الدعوة اذانا صاغية ؟

قلت لمحدثى :-

الاندلس هذا الاسم الضارب فى اعماق التاريخ والذى له وقع خاص وله ميزة قل أن يشاركه فيهـا غيره . . هذه البقعة من الارض التى شهدت تقدما قل نظيره وتشهد الآن رحلة بحث عن خصوصيات خيل للكثيرين أنها فقدتها . . . .

كيف يمكننا أن نجد مدخلا للحديث عن الاندلس ؟

قال هارون كارا جويل :

ان قيل بأن التاريخ لا يعيد نفسه فاننا نرى انه من الممكن ان نعيد امجاد الاندلس شرط أن نتحدث بحكمة ونخطو نحو المستقبل بثبات ، ونسير حثيثا نحو دعوة اسلامية مركزة وسليمة .

الحضارة الاندلسية لم تمت ، المطلوب فقط هو إحياء روح تلك الحضارة وبعث الحياة فيها من جديد .

ان صحوة اسلامية بناء على دعوة اسلامية كفيلة بأن تضع اقدامنا فى الاتجاه الصحيح نحو إحياء فترة تاريخية حضارية مهمة .

يقول بيلار :

ان لكلمة الاندلس وقع سحرى لدى العرب والمسلمين من شأنها ان توقظ فينا جميعا روحا من الحماس وتحفزنا للعمل .

الا ان الوجه التاريخى لكلمة الاندلس يعنى ان ثمة مرحلة تاريخية متطورة حضاريا عمودها الفقرى بلا ريب الثقافة العربية الاسلامية ، وهى حقبة من اهم حقب التطور الانسانى . . الا ان الحضارة العربية الاسلامية الاندلسية انتهت نتيجة الصراع الذى نشب فى ذلك الوقت .

والصراع الذى أعنيه هو الصراع بين الكفر والايمان قديما وحديثا ، وطالما ان هذا الصراع لا يزال قائما فان المعركة التى تمت بين الاندلس الايمان وغيرها « الكفر » كانت وفق هذا المعيار فاننا نستطيع ان نجزم بأنها لا تزال مستمرة بيننا كمسلمين من جهة وبين المشركين من جهة أخرى .

قلت :-

ما الذى يمكن ان نطلقه على عودة الاسلام الى الاندلس أو عودة الاندلس الى الاسلام بشكل أصح . . هل نسميه : عودة أو صحوة أو هو مجرد حنين اكثر منه عودة الى احياء فترة من التاريخ بثرائها لابشخوصها وسلبياتها ؟ نعم التاريخ ربما لا يعيد نفسه بذات المقاييس والاشخاص ، لكن

باعتبار الاسلام ثورة متجددة فان ظروف عودته الى الاندلس أو عودة الاندلس اليه مرتبطة بأسباب محددة .

هارون كارا جويل :

هناك عدة أسباب أرى أنها تدفع الناس في الاندلس الى العودة الى الجذور التاريخية .

هناك جذور دينية أو سمها ان شئت : اسبابا دينية .

فالاندلسيون اعتنقوا الاسلام ذات حين وهم الآن حين يعودون اليه فانما يعيدون استكشاف جذورهم وهناك اسباب ثقافية ذات ابعاد حضارية .

وهناك من يبحث عن مخرج سياسى للازمة التى يعيشها المجتمع الغربى عموما فالاسلام حل مختلف عن الشيوعية والرأسمالية ، والاسلام يتضمن الحل لمختلف المشاكل الاقتصادية والاجتماعية وحتى النفسية .

انا شخصيا اعتنقت الاسلام من هذا المنطلق بعد أن اكتشفت ان الاسلام هو الحل الذى يضعنا فى طريق ثالث أو يقودنا الى نظرية ثالثة .

نعم انه حل يختلف عن تلك النظريات « الشيوعية والرأسمالية » والقائمة فى وقتنا الحاضر . .
ولا شك ان الاسلام كفيل بايجاد الحلول الناجعة لمختلف المشاكل التى نعانى منها فى المجتمعات الغربية .

فى هذا الصدد أود أن أؤكد على ان دخول الاسلام الى الاندلس سنة 711 م كان فى الواقع هو الحل الامثل . . الاندلس مثله مثل بقية البلدان الاوروبية الغربية ابان القرون الوسطى : علاقات اجتماعية ظالمة ، انحلال خلقى ، تخلف واضح . . وما ان اكتشف الاندلسيون الاسلام ولمسوا فيه الحل لمختلف مشاكل ذلك العصر حتى اعتنقوه وما ان دخل الاسبانيون فى دين الله افواجا حتى ادركوا انهم غادروا المتاهات التى كانت تهيمن عليهم لقد كانوا ينشدون العدالة الاجتماعية القائمة على التسامح والمحبة والاخاء ووجدوها فى الاندلس ، بل انهم وبفضل الاسلام ادركوا معنى العلاقات القائمة على المساواة وعدم التمييز وعدم التكبر .

بيلار :

اتفق الى حد بعيد مع اخى « هارون » حينما أكد ان الاسلام كان حلا شاملا لمختلف معضلات القرون الوسطى فى أوروبا الغربية وأنه انقذ الاندلسيين من ظلمة تلك العصور الحالكة . . الا اننى أريد أن اركز بصفة خاصة على عامل مهم ارى انه من اسباب العودة الى

الاسلام فى الانـدلس ، وهـو العـامل الثقافى الذى هو أحد اعمدة الحضارة العربية الاسلامية الاندلسية ، حتى اننا لا نخطىء اذا قلنا ان النهضة الاندلسية كانت ثقافية بالدرجة الاولى .
أود القول باننا فى المرحلة الراهنة ونحن نحاول استعادة تقاليدنا وثقافتنا التى كانت سائدة فى ربوع الاندلس الاسلامى فاننا نفعل ذلك لتقديمها كهوية متميزة تساهم فى اثراء الثقافات الاخرى الموجودة فى اسبانيا .
ان الملامح الثقافية التى ننشدها واضحة القسمات ولها دورها المهم فى الحياة الاسبانية .
واعتقد انه من أجل احياء هذا الجانب الثقافى الثرى لابد من احياء الدعوة الاسلامية من جديد والتى سيكون الجانب الثقافى التاريخى الاندلسى من اهم دعائمها .
ثمـة اشياء كثيرة يشعر الاندلسيون انهم قدموها لاسبانيا واصبحت من الصفات الاسبانية العامة لكنها مع كل ذلك تظل اندلسية النشأة والطابع ، والاندلسيون يحاولون ترسيخ المثل والقيم التى اكتسبوها من الحضارة العربية الاسلامية .
إنهم يحاولـون المـزاوجـة بين واقعهم الحـالى وماضيهم العريق . . انهم يبحثون بجد عن العادات الاسلامية التى كانت سائدة فى الاندلس قبل سقوطه .

قلت :ـ
ثمة اشكالية يفرضها الواقع الذى نعيشه اليوم . . ويمكن اختصارها على النحو التالى :
من الناحية التاريخية هناك عدة حقائق ناصعة تتجسد فى مظاهر التميز فى كل مدن وقرى الاندلس فى اشبيلية وغرناطة ومالقة وبلنسية والمرية وقرطبة وغيرها . . ان جملة تلك الحقائق التى تتجسد فى ما ذكرنا تشير وبشكل لا يقبل النقض الى أن الاسبانيين حينما وجدوا فى الاسلام الحرية اعتنقوه وانطلقوا دون قيود وأصبحوا مثالا يحتذى ابان العصور الوسطى .

كان الانـدلس فريـدا فى عصره وظـل قرونا علامة مضيئة ، ويرجع البعض كل ذلك الى الظروف التى سادت والتى من أهم خصائصها ان العرب المسلمين كانوا يعيشون فى أوج قوتهم .
الان نرى ان القضية تختلف من حيث الواقع ، ومع كل مظاهر التخلف التى يعانى منها الوطن العربى والعالم الاسلامى نجد ان ثمة اتجاها واضحا نحو الاسلام فى كل اوروبا الغربية وغيرها من المناطق . وفى الاندلس موضوع حديثنا بشكل خاص .
كيف ترون هذه الاشكالية ؟!

هارون :

نحن الآن نستطيع ان ندافع وبشكل فعال عن ضرورة العودة الى الاسلام بغض النظر عما هو سائد فى الوطن العربى . . البعض لايستطيع وبسهولة التمييز بين ما هو سائد عربيا وبين الاسلام اذا تحدثنا بشكل عام . . هناك وجهة نظر سائدة مؤداها ان ما يشهده الوطن العربى من خلافات وصراعات وتحزب وتخلف هو بسبب الاسلام ! نحن مؤمنون بأن هذا الربط لا يمت الى الحقيقة بصلة .

علينا ان نعمل من اجل اقناع الناس بأن كل الخلافات السياسية والخلافات الحزبية لا علاقة لها بالاسلام ، الواقع العربى بهذه المواصفات لا ينسجم مع الاسلام .

ولكن علينا ان لا نسقط (التبعية) من جهة وعدم وضوح الرؤية لدى الكثيرين من ناحية اخرى .

مع كل ذلك فاننى أرى بأن مثل هذه القضايا يجب ان لا تشل مقدرتنا فى مجال الدعوة الى الاسلام .

بيلار :

ثمة ناحية اخرى مهمة فى هذا المجال ، اننا فى الوقت الذى نحاول فيه تفسير الواقع والسائد حاليا علينا ان نلقى نظرة على ما كان واقعا وسائدا فى مراحل من تاريخ الاندلس الاسلامى .

صحيح ان الاندلس وصل الى مستوى مهم فى سلم الحضارة الا ان السؤال المهم هو : لماذا انتهى الاندلس الاسلامى ؟!

اننى ارجع اسباب سقوط او انتهاء الاندلس الاسلامى الى (الطائفية) التى سادت فى الاندلس اضف الى ذلك الصراع بين الطوائف وبين الممالك الاخرى .

أعنى ان ثمة انقساما فى صفوف المسلمين ، وهذا جانب ضعف . ثم هناك صراع بين المنقسمين وهذا جانب ضعف ثم هناك صراع المنقسمين (كل على حدة) من جهة وبين الممالك غير الاسلامية من جهة ثانية ، وهذا ايضا جانب كرس مبدأ الضعف .

واذا كان الجانب المسيحى قد تقوى فى مرحلة من التاريخ فان ذلك ناتج اولا عن ضعف دب بين المسلمين .

قلت :ـ

بمعنى ان قوة الجانب المعادى للاسلام هى وليدة ضعف الجانب الاسلامى بشكل اساسى ،

أى ان الجانب غير المسلم لم يكن قويا من الناحية الذاتية بل تأكدت قوته من تفرق وتناحر واختلاف (ملوك الطوائف) .

هارون :

نعم ، هو ذاك . . وهـو الآن ايضا امر واقع ، وهذا الواقع فى حد ذاته يشكل عقبة امام الدعوة الاسلامية ، اننا لن نستطيع المضى قدما فى الدعوة الاسلامية ما لم نتمكن من تجاوز الواقع الطائفى والمذهبى والحزبى الموجود حاليا .

قلت :

ما هى وجهة النظر العامة حيال الاندلس قديما وحديثا ؟!

هارون :

الكثير يدافع عن الاسلام فى الاندلس من منظور ثقافى فقط . . وليس من كل جوانبه . . مثلا من الناحية السياسية يمكننا القول بأن الانسجام والوحدة سياسيا حالت دون التمزق ، ويمكننى ان اسوق مثالا يوضح تكامل الناحيتين : الثقافية والسياسية فى حياة الاندلس واعنى بذلك فترة حكم (المعتمد بن عباد) فى اشبيلية الذى يحدثنا عنه التاريخ بأنه ابتعد وبشكل واضح عن الاسلام بجوانبه الكاملة المتكاملة ، كان (المعتمد) يتحدث باسم الثقافة والانفتاح ، واقبل على الدنيا باسم التسامح والتعاون والتعايش واهمل بشكل واضح الجانب السياسى ولولا نجدة (المرابطين) له ومساعدته وسد الثغرة السياسية لانتهى « المعتمد » واشبيلية سريعا ، نحن مع التسامح والتعايش شرط ان لايكون ذلك على حساب المبادىء وان لا يكون ذلك ايضا عن طريق التخلى عن المبادىء لصالح الغير .

بيلار :

ان الحضارة العربية الاسلامية ليست معروفة بصورة حقيقية من قبل الاغلبية الساحقة من الشعب الاسبانى وذلك نتيجة حملة تعتيم استمرت قرونا طويلة ، ان الكتب المدرسية التى كانت تدرس حتى عهد قريب فى اسبانيا كانت تخصص صفحة او صفحتين فقط للتحدث عن كل المرحلة الزمنية التى استمرت ثمانية قرون من الحضارة العربية الاسلامية الاندلسية .

ان الحضارة العربية الاسلامية فى الاندلس ليست معروفة حتى عند الاندلسيين انفسهم ولذا يتم تجاهلها ، وما هو مجهول لايمكن لاحد ان يطالب به باعتباره شيئا يخصه .

نقطة اخرى مهمة تتعلق بتفسير التاريخ على اساس وصف فترة الاندلس الاسلامى بأنها مرحلة

احتلال عربى للاندلس . . وهذه احدى المغالطات ، ذلك ان العرب المسلمين عندما قدموا كدعاة فاتحين وبعد ان نشروا الاسلام فى ربوع اسبانيا واعتنقه الاسبانيون استقر بعضهم فى اسبانيا - أعنى العرب - وغادر بعضهم الى مناطق أخرى باعتبارهم دعاة .

الذى حدث حقيقة هو عملية تحول بحيث اعتنق الاندلسيون الاسلام ، ولذا فان الفترة الاسلامية فى الاندلس هى تاريخ خاص بالاندلسيين وليست تاريخ العرب فى الاندلس كما تحاول عدد من المؤلفات ان تدعى مركزة على ادعاء الاحتلال العربى للاندلس .

وادعاء (الاحتلال) هذا يقودنا الى مناقشة أمر آخر يغلفه التعتيم بشكل متعمد وهو موضوع القبائل التى قدمت الى اسبانيا من شمال اوروبا كالوندال والقوط واستقرت بها والتى تقدمها كتب التاريخ على انها قبائل اصلية فى اسبانيا بينما تدعى تلك الكتب ان العرب كانوا محتلين .

انهم يصورون القبائل القادمة من اوروبا بشكل عادى بل يؤكدون على انها قبائل اسبانية اصلية ولا يصفونها بالغزو او الاحتلال بينما يصرون على وصف العرب بأنهم غزاة ومحتلون . . وهو منطق غير صحيح .

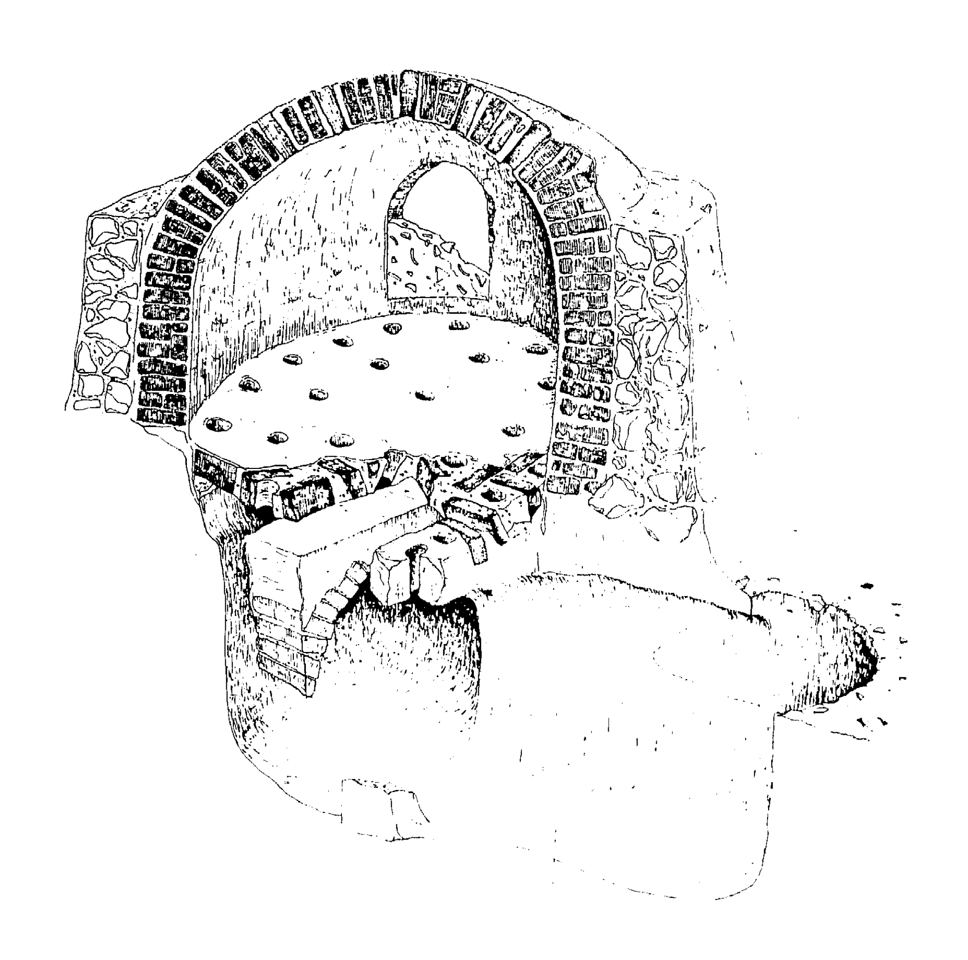
ختاما اختار بيلار ان يضع امامنا التوضيح التالى :

علينا ان لا نغمض اعيننا عن الواقع ونعيش مرحلة انبهار اكثر من اللازم .

ان الواقع هو تجربة ولكل تجربة خصوصياتها . . لها سلبياتها وايجابياتها .

اننا نظلم التاريخ عندما نقدم مسجد قرطبة او قصر الحمراء مثلا وكأنها اعجوبة ومجرد خيال لا يستند الى واقع تاريخى ، وهذا يجرنا الى منزلق خطير يجعلنا نتوهم ان الدولة الاسلامية فى الاندلس كانت دولة خيالية .

ان الذى ينبغى اظهاره وتأكيده ان الفترة العربية الاسلامية كانت واقعا بكل مواصفاته ، وما نراه اليوم فى قصر الحمراء او مسجد قرطبة انما هو اقل القليل من الآثار الدالة على ان الاسلام كان هنا . وما نراه هو جزء من حضارة وليس كل الحضارة لان الحضارة الاسلامية لاتزال وستظل قائمة .



اذا اسقطنا العروبة : لغة وثقافة وحضارة ودعوة :

الاندلس حضارة بلا جذور !!

المتتبع لظاهرة اهتمام الغرب بالشرق على مدى القرنين التاسع عشر والعشرين سيلمس ان ثمة تغيرا واضحا فى الاسلوب بما يكفى لتكوين وجهة نظر جديدة حيال العملية الاستشراقية .

كانت الاهتمامات فى ما مضى فى مجملها محاولات استكشاف ، ثم استيلاء . . ولا احد ينكر ان ما عرف (بالاستشراق) كان مقدمة لما اصطلح على تسميته (بالاستعمار) ، كان الاستشراق مفتاح الشرق امام غزو لم تسلم منه بقعة ، الا ما ندر .

ولا يزال الغزو مستمرا .

الآن : تغيرت صورة الاهتمام بسبب تغير التكتيك مع ثبات السوقية الغربية اتجاه الشرق . المستهدفات لم تتغير ، ابعاد ونتائج العملية الاستشراقية باتت اكثر وضوحا .

ان المعطيات التى كونت القناعة العامة فى الغرب نحو الشرق تستند حديثا الى الفصل بين متلازمين حفظا للشرق قوته وشخصيته طوال فترة امتزاجهما . . وبات لازما من وجهة النظر الغربية العمل على قطع كل اواصر الترابط بين العروبة والاسلام .

ولذا لم يعد مستغربا ان تطفو على سطح الاحاديث هاتان القضيتان ، وما يذهب اليه الغرب فى هذا الشأن قد لا يعنى المتحدث غير المتخصص ولكن النتائج من شأنها ان تسيىء الينا : عربا ومسلمين ، وشرقيين عموما .

ان ما حاول (الاستشراق) ترسيخه فى العقل الغربى فى كل ما يخص الشرق قد استقر كثوابت سوقية لا تتغير مهما تغيرت الاشكال وانماط الفعل .

وفى حديث مع السيدة / انكرنثيون جوتيرز عضوة لجنة التنسيق الادارى بالمعهد الغربى

للثقافة الاسلامية بحضور السيد / رود ولفو رود ريغس المدير الادارى للمعهد والصديق خليل حسن صدقة حين التقينا فى مدريد ، لمست ان المعضلة التى يعانى منها الغرب تكمن فى عدم التسليم بالارتباط العضوى - ان صح التعبير - بين العروبة والاسلام . . قالت محدثتى :

الدور الذى لعبه الاسلام نرى انه اكبر من الدور الذى لعبه كقومية !! مثل القومية العربية ، لان الاسلام بوتقة صهرت الكثير من الشعوب والعديد من القوميات ، ومن هنا تنبع عظمة الاسلام لانه تمكن من صهر الكثير من الفروق العرقية بين الناس ، وبذلك كون امة عظيمة .

محدثتى ربما لم تذهب الى ابعد مما قالت ، ولكن بما ان القضية جد مهمة فان من حق الطرف الذى تعنيه ان يذهب فى التحليل والايضاح كل مذهب .

ان المطالبة بالفصل بين العروبة والاسلام شكلت خطورة على مر التاريخ العام للوطن العربى والعالم الاسلامى .

والمتحدثون عن : القومية العربية والاسلام يقعون فى خلط واضح ، وان لم يكن ذلك فان محاولة الفصل تكون من اجل تجاوز المازق الصهيونى الذى جعل من المعتقد اليهودى قومية ، ومن القومية معتقدا ، ولذا بات من الصعب على الكثير قبول الترابط والتكامل بين العروبة والاسلام ، بل ان البعض يذهب الى ابعد من ذلك حين يقرر خطورة الترابط بين القومية والدين . . ونظرا للاستغلال السىء للدين سواء من المسلمين او من غيرهم تشكلت قناعة محددة تهدف الى الفصل الكامل بين الامرين .

وفى هذا الخضم بات من الصعب اثبات أن الدين الاسلامى والقومية العربية من الامور التى لاترسخ مبدأ الدين الخاص بقومية معينة .

ولعل الخطأ المستشرى بين عدد من الغربيين نابع من النظرة الى الاسلام وكانه معتقد خاص ، وحتى حينما بدأت الحقائق تجد لها مكانا فى ادمغة القوم اتجهت المحاولات الى الفصل القسرى بين الاسلام والعروبة . . وفى اشارة منى الى هذه المعضلة قلت لمحدثتى :

لااختلاف فى ان الاسلام لا يميز بين جنس وآخر ، اننا كمسلمين نرفض اى تمييز بين الاجناس وهو موقف ايمانى ، الا ان (عالمية الاسلام) تتحقق من جانبين :

المخاطبة والتوجه الى البشرية جمعاء .

الايمان الذى لايكون حكرا او وقفا على جنس دون آخر .

لكن الجانب الذى لايمكن القفز عليه او تجاهله هو ان ثمة من اختير لتعهد هذه الرسالة

السماوية بالدعوة والاعلان .

والتاريخ يزودنا بالامثلة الكثيرة التى تسند ما نذهب اليه . والعرب لايسعون الى ان يصبحوا مثل الذين ادعوا انهم (شعب الله المختار) بقدر ما يقومون بمهمة الدعوة .

الامـة العربية امة دعوة ورسالة وليست امة تحاول ان تجعل من الدين قومية ، ومن القومية جدارا يحول دون الآخرين واعتناق الاسلام .

ان قضية (الثقافة) ليست صعبة التناول حينما يقدم كل شىء على حقيقته ، ولذا فلا يظنن أحد اننا نمارس (الوصاية) الفكرية على الشعوب او اننا نحب ان نتجاهل ثوابت وحقائق الحياة ، واذا كانت (العملية الثقافية) ـ ان صح التعبير ـ لاتتم وفق مسار يحدده اى شعب لشعب آخر فانها فى مجملها (عملية) ترتبط بالتاريخ شاملة :

العادات والتقاليد والعرف وجملة من انماط النشاط البشرى ، ومن المستحيل فى مثل هذه الحال مصادرة كل ذلك لصالح رأى نراه حين تحدثنا عن (الثقافة الاسلامية) .

لكن لنحاول ان نتناول جزئية مهمة لايمكن بأى حال ان يسقطها احد .

(الثقـافـة الاسـلامية) قديما وحديثا فى شرق الارض وغربها وشمالها وجنوبها لايمكن ان تتحقق الاباسسها وروحها ولبها وهو : القرآن الكريم .

والقرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين . ومن هنا فان اى نشاط ثقافى لايتم الا اذا انبنى فى اهم مراحله على لغة القرآن الكريم .

ورغم هذا التلازم والترابط فان الهجوم على العروبة والاسلام لايزال مستمرا .

لكن محدثتى ترى ان مثـل هذا الـترابط ليس مهما حيث قالت بأن « فهم الانجازات التى تحققت بشكل عام كانت بسبب الاسلام وتنتسب اليه بغض النظر عمن حقق تلك الانجازات او المسئول عنها » .

وذهبت الى عدم البحث عن « الاسبقية وعدم التوقف كثيرا امام التساؤل عمن أبدع وابتكر هذا النمط الحضارى او ذاك » .

ان ما تعلنه محدثتى ليس مجرد وجهة نظر ، والقضية بهذا الاتجاه ليست وليدة الساعة ، وانما هى نتيجة واضحة لما سبقت الاشارة اليه من تغير فى جزئيات معينة من السوقية الغربية الموضوعة للتعامل مع الشرق .

وبعيدا عن اطراف هذا الحوار ، وبعيدا ايضا عن آرائهم التى لايمكن ان اطوعها حسب ما

أرى اود ان استرعى انتباه القارىء الكريم الى ان عملية الغزو او الاستشراق ، باتت لاتتعامل مع العروبة والاسلام كوحدة واحدة ، لقد اختارت نمطا آخر .

سياسيا يتم التركيز على (العروبة) من خلال (عملية تفتيت) بترسيخ مبدأ (الاقليمية) ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا وتكريس ما ينشأ عن كل ذلك من ظواهر .

عقائديا يتم التركيز على الدين الذى حفظ العروبة بكل خصائصها ومظاهر وأسباب وجودها .

جانب آخر كان محور هذا الحوار ، ومن بين النقاط التى استرعت الانتباه ما نلمسه من اهتمام ملحوظ وعلى مختلف المستويات بالاسلام ، دراسات وبحوث ، هيئات ومؤسسات وشركات ، علماء وكتب وصحف واذاعات تعمل ليل نهار فى المجتمع الغربى فى اتجاه الاسلام .

وقلت :

الوطن العربى والعالم الاسلامى يعتبران من الناحية التحليلية الغربية من المناطق المتخلفة ، ولقد ركزت الدراسات والابحاث والدعوات الغربية على اعلان ادعاء مؤداه ان سبب التخلف فى هذه المناطق يعود الى الاسلام . لقد قدم الاسلام كعامل رئيسى لتفشى التخلف .

الامر لم يتغير كثيرا بالنسبة للوطن العربى والعالم الاسلامى ، ومع هذا نلمس اهتماما غير عادى بالاسلام .

اضافت محدثتى : « ان الكثيرين من المسلمين يعتقدون ان الدين الاسلامى مجرد عبادات ، ولذلك لم يتعمقوا فى فهمه ليكتشفوا ان هذا الدين ليس مجرد عبادات ، انه فى الحقيقة : معاملة وتصرف وثقافة وحضارة . . اننا نعتقد ان الاسلام بعيد كل البعد عن التخلف ، اما المسلمون فانهم انغمسوا فى متاهات ليست هى الاساس والجوهر . . لقد ادخلت على الاسلام بدع عديدة خاصة فى عهود التخلف وانتجت جملة من الحساسيات .

وتضيف محدثتى : هذا موضوع شائك ، ونحن فى الوقت الحاضر نعانى من ذات المشكلة ، ثمة ظروف تاريخية وموروث تاريخى يحتاج الى تحقيق حتى نتمكن من تشخيص اسباب التخلف فى العالم الاسلامى .

ان ما يعيشه العالم الاسلامى اليوم هو محصلة لعدد من العوامل ادت الى هذه النتيجة (التخلف) . ليست القضية مجرد عامل او عاملين يمكن تفسير اسباب التخلف على اساسها .

قلت : هل نوصف بالحلم اذا قلنا بأن الاسلام هو دين الغد فى اوروبا ؟

بعد حديث طويل خلصت محدثتى الى القول : لقد قمت بزيارات كثيرة لمختلف ارجاء

اوروبا ، ولاحظت اهتماما كبيرا بالاسلام وبشكل يختلف عن نمط الاهتمام الذى كان سائدا فى السابق ، هناك نوع من الاحترام والتقدير لهذا الدين ، على الاقل هناك اهتمام بما يتضمنه هذا الدين ، وهذا بالطبع لايعنى ان كل الناس فى اوروبا مسلمون لكنهم يحاولون احترام الاسلام والمسلمين . ومن خلال مجال عملنا ـ الحديث لايزال للسيدة انكرنثيون جوتيرز ـ لاحظنا ان محاولات تفهم الاسلام ليست مقتصرة على اوروبا فقط ، انها قضية ملموسة على مستوى عالمى ، ويمكن من خلال هذا الاهتمام وبالمقابل من خلال عمل متواصل ودؤوب يمكن ان نعيد للاسلام مكانته .

وهنا تدخل السيد / رودلفو رود ريغس ليعلق بقوله : اننا نعترف بأن الظروف الحالية فى اوروبا مواتية اكثر مما كانت عليه فى السابق ، وهذا من شأنه ان يشجع الناس للاقتراب من الاسلام حيث اصبحوا على دراية اكثر ومن هنا يمكن ان تتسع دائرة الاطلاع .

فى جانب آخر من هذه الورقة الاندلسية تحدثت السيدة انكرنثيون عن الفعل الحضاري للاسلام ، ومن وجهة نظرها ترى عدم جدوى التمييز بين من كانت له سابقة الفعل ومن كانت له بادرة التأثر والجانب المتأثر ، ومما قالته :

ليس من المجدى النظر من زاوية واحدة الى الحضارة الاسلامية ، ذلك لان هذه الحضارة هى عبارة عن تفاعلات وتجارب عديدة انصهرت فى بوتقة واحدة وادت الى تشييد الحضارة ، الاسلام لم ينف كل الحضارات والثقافات الاخرى ، بل قام باستيعابها وتطويرها والاضافة اليها .

قلت موضحا لامقاطعا : تقصدين الابقاء على كل ما هو صالح من مختلف الثقافات والحضارات .

قالت مسترسلة : نعم ، لكن العرب والمسلمين يحاولون تناسى ذلك ، انهم يعتقدون بأنهم يجب ان يقتصروا على ما هم عليه ، وانا اعتقد ان الاسلام لابد وان يجمع ما بين كل ما هو صالح فى مختلف الثقافات .

ان التسامح الذى يمتاز به الاسلام هو الذى ادى الى انتشاره ووصوله الى مراحل من التقدم ونقل الانسانية نقلة حضارية مهمة وملموسة .

لم أشأ ان أقف مترافعا ، فالقضية مرتبطة بثقافة سائدة أهم طرق معالجتها : الحوار ، ان حسن النوايا حينما يقترن بوضوح فى الرؤية يمكّن مختلف الاطراف من بداية حوار ثقافى او حضارى بوضوح وموضوعية .

وتظل قضية (العروبة والاسلام) من اهم الاشكاليات التى يواجهها الغربى وهو يحاول ان

يتعامل مع العربى ، بالنسبة لنا الامور واضحة بلا ريب ، لكن درجة الوضوح ليست هى ذاتها بالنسبة للآخرين .

وهنا يطل من مدن وقرى وقلاع وحصون وقصور ومساجد الاندلس الحرف العربى ليضيف الى الحوار بعدا مثيرا .

اننا اذا طمسنا كل حرف عربى فى كل جدار أندلسى أو قبلنا بأن يفعل ذلك الآخرون ـ فما الذى يعطى لهذه المنطقة خصوصيتها ؟ وما هو الوضع الذى سينتج عن ذلك ؟!

نعم ، ما الذى سيبقى من (الاندلس) ان نحن ـ وبناء على القول بأن ليس للعرب فضل فى الحضارة او الثقافة الاسلامية ـ قمنا بازالة كل حرف عربى وكل اثر عربى وكل مراحل التاريخ العربى الاندلسى الاسلامى ؟!

ألسنا ان فعلنا كل ذلك او بعضه على الاقل سنضطر الى البحث عن جذور لحضارة الاندلس ؟!

ان الاندلس المدرسة الاولى لاوروبا الحديثة قدم بطاقة متميزة واسهم بشكل فعال وواضح فى نقل البشرية بأسرها من عالم مظلم الى دنيا مضيئة تستنير بنور العلم والعقل والايمان .

ان كل ذلك لايعنى اسقاط الجهد الذى بذله الاندلسيون ، لكننا فى المقابل ننفى ومعنا حقائق التاريخ ألا تكون للعروبة قدم راسخة وبصمة واضحة فى تأسيس الثقافة الاسلامية فى مشارق الارض ومغاربها .

واذا كان الداعون الى فصل العروبة عن الاسلام لايستطيعون طمس أى حرف عربى فى كل اثر فكيف يستطيعون وبسهولة ويسر التحدث عن الاسلام منفصلا عن العروبة او التعامل مع العرب فى معزل عن الاسلام ؟!

وحتى لاتكون هذه الورقة الاندلسية تبدو وكأنها رد على محدثتى اقرر بأن القضية من أساسها ترتبط بسلوك ومنهج بات واضحا للجميع ، ولعل سبب اثارة هذه القضية يعود اساسا الى تسمية المعهد الذى تعمل به محدثتى ومحدثتكم (بالمعهد الغربى للثقافة الاسلامية) مما جعلني أتساءل فى بداية الحوار عن معنى (الثقافة الاسلامية) والفرق بينها وبين قولنا (الثقافة العربية الاسلامية) .

بقى ان اشير الى ان ما دار من حديث لم تتضمنه جميعه هذه الورقة ، وهو امر يدعونى الى الاعتذار من محدثتنا ومن السيد / رودلفو ومن صديقنا / خليل حسن صدقة الذى ابلى بلاء حسنا وهو يحاول ان يتعدى مجرد الترجمة الحرفية ليصوغ افكارنا فى قالب ادبى رفيع بلغة وأسلوب متماسكين

وكأنه يتحدث من فيض الخاطر .

محدثتنا فى هذه الورقة هى السيدة / انكرنثيون جوتيرز هيرنانديز . متخصصة فى علم النفس . درست فى بريطانيا .

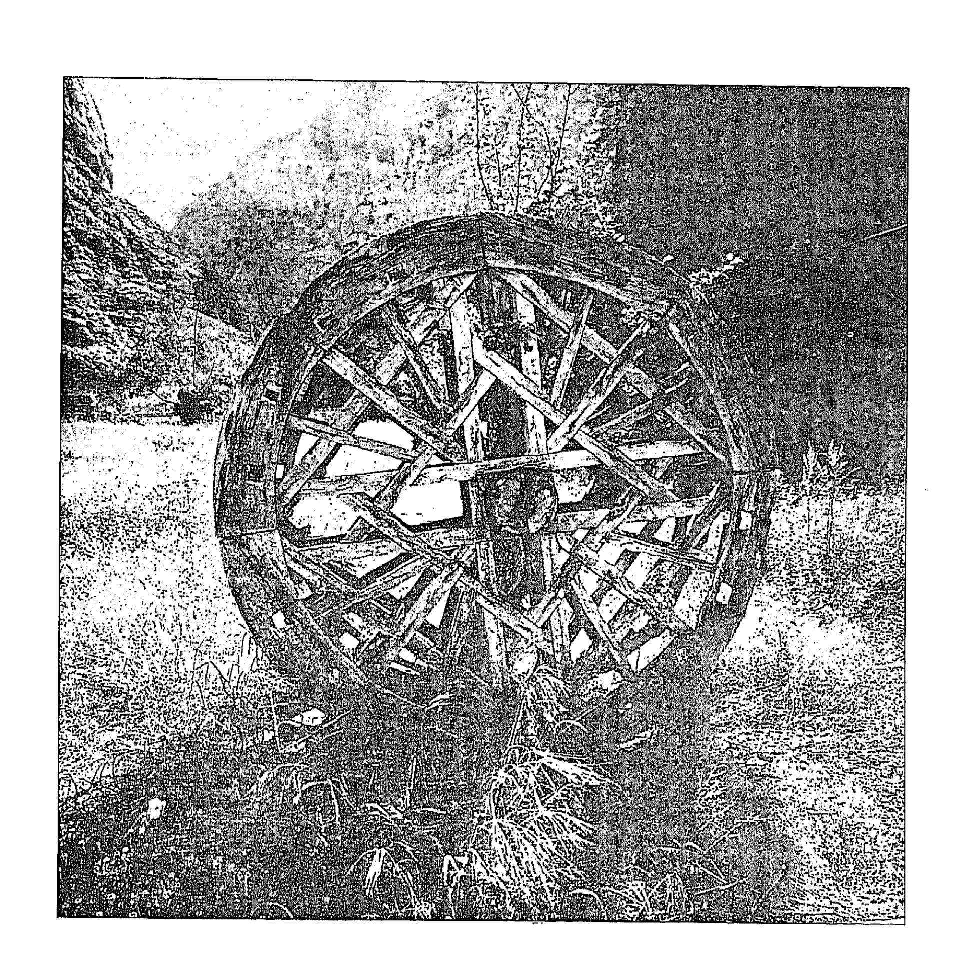
اهتمت بالاسلام من خلال قيامها بدراسة عن التوازن النفسى للفرد فى المعتقدات المختلفة . . وحين بدأت بدراستها كانت تود التوصل الى معرفة اى المعتقدات يؤدى الى التوازن النفسى لدى الانسان .

فى هذا الاطار توصلت ـ وحسب تعبيرها ـ الى قناعة مؤداها ان الاسلام هو أفضل معتقد يؤدى الى التوازن النفسى عند الانسان .

قلت لها : كيف وجدت ذلك ؟!

قالت : ان مبدأ الوحدانية فى الاسلام هو المرتكز الاساسى لهذه النتيجة ، الانسان المسلم فى كل شئونه يتجه نحو (وحدانية الله) وهذا ليس موجودا فى اى معتقد آخر وليس موجودا فى الحضارة الحديثة (الرأسمالية او غيرها) التى لاتوفر ولا تتوفر فيها اساسا مبادىء محددة وواضحة .





انقـذوا تاريخكم قبـل فـوات الاوان !

يقـول الاسبانيون عن « لجنة الاندلس لعام 92 » : « الاندلس 92 هي احدى مجموعات العمـل التـابعـة للجنـة الـوطنيـة المكلفـة بتنظيم نشاط احياء الذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف أمـريكـا . . . والمهمـة المسنـدة لهذه اللجنة هي توجيه وتشجيع ودفع وترشيد وتنظيم النشاطات والبرامج المرسومة بمناسبة الاحتفالات بذلك الحدث » .

ويوضح الاسبانيون أهداف « لجنة الاندلس لعام 92 » بالقول : « ان الاحتفال بالذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف امريكا يقترب بذاكرتنا نحو احداث مختلفة ذات ابعاد تاريخية كبرى هى انعكاس لواقع اجتماعي وثقافي تجسد على مدى القرون فيما سيسمى بعد ذلك باسبانيا .

ففى عام 1492 م عام الاكتشاف كانت الاندلس تختتم سيرتها ككيان سياسي مستقل في شبه الجزيرة الايبيرية .

وهدف « الاندلس 92 » هو احياء ذكرى واجتلاب ذاكرة الاسبان اليوم نحو أبرز جوانب تاريخ الاندلس ومساهمة الحضارة العربية الاسلامية في مفخرة كولمبوس .

الاندلس وهو الاسم الذي تعرف به شبه الجزيرة الايبيرية في النصوص العربية كانت خلال زمن طويل الدرب الذي كانت القرون الوسطى الاوربية المظلمة تتلقى منه ضياء المعرفة التي كانت ترد من الشرق . . واسماء كثيرة توحي بالكثير مثل قرطبة وغرناطة واشبيلية وطليطلة وبلنسبة كانت مشاعل الثقافة ومراكز جامعية حقيقة كان يتردد اليها ـ مولعين بالمعرفة ـ العلماء والباحثون في تلك القرون الاوربية الوسطى .

وليس بالـوسـع فهم النهضـة الاوربيـة ولا « حقبة الاكتشافات . . . دون العلوم الفلكية للزرقالى أو رياضيات مسلمة المجريطى أو فلسفة ابن رشد أو تطور الاساليب الزراعية في مزارع وبساتين بلنسية والتي مازالت تقاليدها العربية حاضرة حتى يومنا هذا » .

كانت تلك مقتطفات من أحد منشورات « الاندلس لعام 92 » الصادرة في اسبانيا على طريق التهيئـة الاعـلاميـة لجملة من التـظاهـرات الفنيـة والعلميـة بهدف استثـارة الاذهـان الى انتظار عام 1992 م .

ان اسبانيا ترغب في حشد كل ما من شأنه ان يجعلها قبلة الانظار طيلة السنوات حتى عام

1992 م ، والتي ستشهد عددا من الاحداث منها على سبيل المثال لا الحصر :

1)ــ السوق الاوربية الموحدة .

2)ــ أوربا بلا حدود .

3)ــ اعلان مدريد عاصمة أوربا الثقافية .

4)ــ الالعاب الاولمبية في برشلونة .

5)ــ اعلان غرناطة عاصمة للثقافة العربية .

6)ــ اقامة معرض كبير في غرناطة يتعلق بالثقافة العربية فى أوروبا مع التركيز على الدور الذي لعبته العلوم عند العرب فى المساهمة في اكتشاف امريكا .

7)ــ الاحتفالات بمناسبة الذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف أمريكا .

ولذا فان اسبانيا :

1)ــ تتصل عن طريق لجنة « الاندلس لعام 92 » بالمتاحف العالمية بغرض الاستفادة من محتوياتها .

2)ــ تنظيم سلسلة من المعارض المتنقلة في كل الاندلس .

3)ــ تنظيم معرض خاص بالفن المدجن .

4)ــ اقامة عدد من الندوات والمؤتمرات حول الاندلس .

5)ــ نشر مجموعة من الكتب تتعلق بمصادر الثقافة الاندلسية ، وقد اختار المعهد الاسباني العربي للثقافة سبعة عشر عنوانا ستنشر تباعا

6)ــ نشر مجموعة من الخرائط التاريخية تتعلق بالشمال الافريقي لأول مرة .

وفي اطار التنسيق بين لجنة « الاندلس لعام 92 » وجامعة الاقطار العربية قام الدكتور ماريانو الونسو بورون رئيس اللجنة بزيارة الى الجامعة العربية والتقى بالسيد الشاذلي القليبي والدكتور محي الـدين صابر المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . . ولقد تبلور الموقف العربى من تظاهرات 1992 م . بموجب القرار رقم 833 الصادر عن الجامعة العربية بتاريخ 12 / 9 / 1988 والذي اعتبر ايجابيا من حيث كونه اكد على مشاركة الاقطار العربية في معرض اشبيلية الذى سينتظم عام 1992 م .

من جانب آخر يتحرك المجلس الاعلى للبحوث العلمية في اسبانيا في ذات الاتجاه ، ولاقسام الدراسات العربية والاسلامية بالجامعات الاسبانية مساهمة ملموسة في إطار الاندلس عام 92 .

وتشير معظم المستجدات في هذا النطاق الى ان « الاندلس » تاريخيا وحضاريا وواقعا معاشا أصبح مثار جدل واهتمام بالغين ويشير تقرير « دبلوماسي » الى احتدام الصراع بين الاندلس العربي الاسلامي و « اليهود » ومما جاء في التقرير « في اطار الاتصالات الدورية التي يجريها الامين العام لجامعة الاقطار العربية مع الرئاسة الاوربية قام يوم 13 / 1 / 1989 بزيارة رسمية الى اسبانيا ، واجرى مع المسئولين الاسبان في مدريد محادثات شملت جملة من القضايا كان من ضمنها موضوع مشاركة الاقطار العربية في المعرض الدولى في مدينة اشبيلية حيث عبر رئيس الحكومة الاسبانية « فيليبى غونثالث » في لقائه بالامين العام لجامعة الاقطار العربية عن شكر حكومته وارتياحه لاستجابة الدول العربية بالمشاركة في المعرض الدولي المزمع اقامته في مدينة اشبيلية سنة 1992 م .

وكذلك المشاركة الفعالة في الاحتفالات الثقافية والحضارية التي تنوي اسبانيا تنظيمها خلال نفس السنة بمناسبة مرور القرن الخامس على اكتشاف امريكا » .

وفي فقرة مهمة للغاية يقول التقرير : « اشار رئيس الحكومة الاسبانية الى اهمية الدور العربى في الاندلس وتأثيره في عملية الاكتشاف منذ القرن الثالث عشر الميلادي ، ولمح خلال هذا اللقاء مثلما فعل وزير خارجيته الى ان « اسرائيل » والمنظمات اليهودية المختلفة تعمل لتحويل هذه التظاهرات لطمس الحقائق التاريخية والحضارية للوجود العربى في اسبانيا ، وتجاوب رئيس الوزراء الاسباني في ذلك مع طرح الامين العام « لجامعة الاقطار العربية » الداعي الى ضرورة قيام اسبانيا بتحرك فعال للوقوف في وجه الغزو الصهيوني للحضارة العربية الاسلامية في الاندلس مضيفا ان النوايا « الاسرائيلية » ينبغى ان تكون حافزا لجهود عربية مكثفة لمواجهتها والتغطية عليها » انتهى التقرير .

وللحقيقة فان الموقف الصهيونى يحتاج الى وقفة ايضاح وهذا ما املكه وأنا أضع بين يدي القارىء الكريم هذه الورقة الاندلسية .

ولابأس من الاشارة الى اننى تناولت الموقف اليهودي من الحضارة العربية الاندلسية في مواضع سابقة ولا اريد هنا أن أعيد ما كتبت ، لكنني أريد التنبيه وللمرة الاخيرة الى ضخامة التزوير الذي تتعرض له الحضارة العربية الاسلامية في إسبانيا ، ان تحرك (المجموعة اليهودية) الواضح خاصة بعد تطبيع العلاقات الاسبانية مع « الكيان الصهيونى » يتجه نحو الضغط السافر على عدة نقاط وفي عدة اتجاهات لهدفين رئيسيين :

الهدف الاول : محاولة طمس الدور العربي الاسلامي في الاندلس قديما وفي اسبانيا حديثا .

الهدف الثاني : الدفع بالعلاقات الاسبانية مع الكيان الصهيونى الى عدة مسارات بحيث يكون من الصعب ان لم يكن من المستحيل تجميد تلك العلاقات .

ولا أظن بأن « المجموعات اليهودية » لم تستفد بشكل واضح من الخطاب الذي القاه الملك « خوان كارلوس » امام حشد من اليهود الامريكيين حين زيارته لامريكا سنة 1987 م والذي اشار فيه الى ضرورة انصاف « اليهود » والاعتذار لهم ! بسبب ما لاقوه من محاكم التفتيش الاسبانية . ولاول مرة تدين اسبانيا وبشكل واضح العاهلين الكاثوليكيَّين على لسان الملك « خوان كارلوس » في ذلك الخطاب .

كان ذلك الخطاب حافزا لتصعيد الدور اليهودى في اتجاه استغلال احتفالات عام 1992 م .

لقد تشكلت اللجنة « اليهودية الاسبانية » بناء على اقتراح الملك وفي بداية عام 1988 م قام وفد من المؤتمر اليهودي العالمي بزيارة الى اسبانيا وقابل الملك خوان كارلوس ، ثم أصدرت تلك اللجنة تحت غطاء اللجنة الوطنية للاحتفالات بالذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف امريكا كتابا بعنوان « سفاراد 92 » ويهدف ذلك الكتاب الى اثبات أن الحضارة الاندلسية لم تكن مدينة للعرب والاسلام بقدر ما كانت بسبب اليهود !

ثم صدرت خلال العام 1988 م عدة كتب في اطار التحضير الاعلامى لاحتفالات 1992 م من بينها كتاب يحاول البرهنة على ان مكتشف امريكا كان يهوديا .

وأخيرا لا آخرا اقترح اليهود مشروعا واسعا من أجل اقامة « منتزه انجيلى » يشمل كل النباتات التى وردت في التوراة . اضافة الى عدة ندوات ومؤتمرات ولقاءات يهودية تعمل على تصعيد حدة التشويه لكل مناحي الحضارة العربية الاسلامية .

وأذكر انني حين تحدثت مع أحد المسئولين الاسبان عن جملة من هذه القضايا قال بأن العرب اكتفوا بملاحقة الجهود الصهيونية وبذا جعلوا المبادرة اليهودية امرا واقعا ، وقال بالحرف تقريبا : انكم « اى العرب » تكتفون بملاحقة « اسرائيل » في زقاق واحد ، ولم تبادروا الى ابتكار طريق آخر تكون لكم فيه المبادرة وتضمنون السبق .

وفي تقرير لأحد أعضاء « مجلس السفراء العرب » في مدريد مؤرخ في 26 / 1 / 1989 م جاء ما نصه : « ولعله من الضرورى الاشارة الى انهم « اليهود » وفي فترة زمنية محدودة قد حققوا وجودا ملفتا للنظر بكل أسف مقابل موقف عربي اسلامي لايمكن وصفه الا بالسلبية وعدم الاكتراث » .

ولقد اثيرت هذه القضية امام مجلس السفراء العرب ضمن اقتراح بضرورة التحرك لمواجهة

النشاط اليهودي بشكل ايجابي .

في اطار تصعيد حملة الضغط على الحكومة الاسبانية تسعى « المجموعات اليهودية الى التفاوض مع 8 وزارات اسبانية بهدف التوقيع على اتفاقيات بين الدولة الاسبانية واليهود .

ونشرت صحيفة « البايز » الصادرة يوم 17 / 12 / 1988 خبرا تقول فيه : « ان اتحاد التجمعات اليهودية في اسبانيا بدأ يوم 16 / 12 / 1988 م مفاوضات مع الحكومة الاسبانية من أجل التوصل الى اتفاقية مشابهة لتلك الموجودة بين الدولة الاسبانية والكنيسة الكاثوليكية » .

ومن قبيل اللعبة اليهودية في أوروبا بادر اليهود بشن هجوم على اسبانيا على لسان « صمويل توليدانو » امين عام اتحاد التجمعات اليهودية حيث قال في تصريح نشرته صحيفة « البايز » في عددها المشار اليه « ان اسبانيا تاريخيا لم تستطع توفير التعايش لمختلف الاديان » !

وهذه جملة كثيرا ما تستخدمها الصهيونية بهدف اثارة الرأي العام من خلال التشكيك المتعمد في تاريخ هذه الدولة أو تلك .

ويبدو أن سنة 1989 م قد أريد لها ان تكون سنة التحرك اليهودي ويمكننا ان نلمس ذلك من خلال ما أعلنت عنه الصحف الاسبانية من أن 8 وزارات اسبانية ستتفاوض مع « التجمعات اليهودية » وفي إطار تحديد ما هو مطلوب من الحكومة الاسبانية لم يكتف امين عام اتحاد التجمعات اليهودية بما نشرته على لسانه صحيفة « البابيز » بل بادر الى وضع النقاط الاساسية لشكل وأسس الحوار مع الحكومة في تصريح اذاعي بثه « راديونا شيونال » يوم 18 / 12 / 1988 م ، ونظرا لخطورة ذلك التصريح ولكونه يشكل بوادر مايمكن ان يسمى « دولة داخل دولة » أتمنى ان يسمح لي القاريء الكريم ان اضع امامه نص ذلك التصريح ليطلع على أسلوب العمل والتعامل الابتزازي ان صح التعبير ، وأتمنى ان ينتبه القاريء الكريم الى الكلمات الحادة التى جاءت في صيغة الالزام وليست في صيغة المقترحات .

قال « صمويل توليدانو »* في تصريحه لراديو ناشيونال : « ان الدولة الاسبانية لابد لها ان تغير معاملتها للتجمعات اليهودية ولابد من تغيير النظام الضريبي المفروض على المنشآت اليهودية المخصصة للعبادة .

ولابد لاسبانيا من أن توفر الضمانات للمواد الغذائية التى يتناولها اليهود مثل الذبح على الطريقة اليهودية والاعلان على المعلومات الخاصة بالمواد الغذائية الخاصة باليهود بانها خالية من الخنزير ومشتقاته . . وان تتمتع هذه المنتجات باعفاءات ضريبية وهذا ليس مهما فقط بالنسبة

لاستهلاك هذه المواد داخل اسبانيا لكن ايضا من أجل تصديرها الخارجي .

وان تعترف الدولة بالاعياد الدينية اليهودية وتحترمها وان تكون اجازة لليهود . كما يجب على الدولة ان تحترم وتحافظ على الاثار الدينية التاريخية اليهودية . وان تعترف بالزواج الدينى اليهودى وتسجله تلقائيا مدنيا .

وتعرض « توليدانو » في حديثه الى مسألة التعليم وقال : الطلبة اليهود يجب ان تعفيهم الدولة من حضور امتحان يعقد يوم سبت او يوم عيد ديني يهودي وان ينقل هذا الامتحان الى يوم آخر .

وان الجنود اليهود في الجيش الاسباني يجب الايعملوا ايام السبت ولا يكلفوا بورديات في هذه الايام واذا كان هناك ضرورة يغير يوم السبت بيوم اخر .

وفي ختام تصريحه قال : ان الحكومة الاسبانية لابد وان تشدد من اجراءات الحراسة حول اماكن العبادة اليهودية لحمايتها من اى عمل تعصبي أو ارهابي » .

هذا ما يريـده امين عام اتحاد التجمعات اليهودية من الدولة الاسبانية وهى امور كما يرى القـاريء الكـريم تشمل جميع مناحي الحياة ، وكأن التجمعات اليهودية في إسبانيا تعد بالملايين وتسعى الى اعلان دولة داخل دولة .

والحقيقة التي لاتقبل الجدل ان هذه الطلبات هي من أجل 12,000 يهودي حسب تصريـح « توليدانو » ذاته ، وعلى افتراض ان هذا الرقم دقيق وصحيح رغم ان التاريخ كثيرا ما يقول غير ذلـك ، فكم هو يا ترى عدد اليهود الذين يضمهم جيش اسبانيا مثلا حتى تقدم تلك الطلبات بشأنهم بمثل تلك القوة ؟!

ولايجب ان يغيب عن بالنا فحوى الجملة الاخيرة المتعلقة بطلب تشديد الحراسة على اماكن العبادة اليهودية والتي تعتبر من وجهة نظر بعض العارفين ببواطن الامور الاسبانية تصعيدا لحملة ارهابية حقيقية تحاول الصهيونية ان ترتب لها منذ الان .

فى المقابل : كم طلبا قدمه العرب المسلمون الموجودون في اسبانيا ؟ وحتى لا نتهم بأننا نحاول اثارة ذات الطلبات من منطلق « عنصري » .

نقول : كم طلبا قدمه المسلمون الاسبان الى الحكومة الاسبانية بذات الصيغة وبذات الاسلوب .

ولكي ندرك جزءا من الحقيقة لنقارن بين الارقام حتى نستدل ـ مبدئيا ـ على حجم الوجود

العربي الاسلامي في مقابل الوجود اليهودي وفي هذا الخصوص يشير تقرير خاص غير منشور الى ان الوجود العربي في اسبانيا يفوق كثيرا المائة ألف مع العلم بأن الوجود العربي من المغرب فقط يقدر بحوالى 60,000 .

وتقول الاحصائيات الرسمية الاسبانية بأن عدد العرب خلال عام 1988 وصل الى 30640 وهم الذين يتمتعون بحق الاقامة القانونية .

ومع التسليم بأن الوجود العربي في اغلبه وجود آنى حتمته ظروف اقتصادية الا انه مع ذلك يظل فعالا ومؤثرا ان لم يكن بحجمه فبثرائه الصارخ . لكن يبدو أن العدد والثراء احيانا من الامور غير المجدية في معركة الدفاع عن الحضارة والتاريخ .

من جانب آخر لايقل عدد المسلمين في اسبانيا عن 175,000 بما في ذلك مسلمو اسبانيا .

ولا اعتقد ان هؤلاء المسلمين قد تحدثوا الى الحكومة الاسبانية بذات الاسلوب الذي تحدث به مندوب الـ 12,000 يهودي !

---

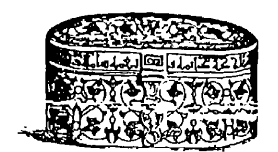
* نشرت صحيفة « فاينشال تايمز » الصادرة بلندن فى عددها بتاريخ 23 / 2 / 1990 تقريرا من مراسلها فى مدريد جاء فيه :-

« أخيرا اعطت اسبانيا الكاثوليكية الصبغة الرسمية لاعترافها بالحرية الدينية لليهود لاول مرة منذ ان طرد فرديناند وايز ابيلا اليهود من مملكتهما المتحدة قبل 498 عاما .

فقد وقع انريق موجيكا Enrique Mujica ـ وهو اليهودى الوحيد من اعضاء الوزارة الاسبانية ـ اتفاقية مبدئية تسمح للكنيستين البروتستانتية واليهودية بالاعفاء من اداء الضرائب ، وتمنحهما الحق برعاية الجنود اثناء الخدمة ، كما تخولهما الانتفاع بنظام الضمان الاجتماعى بالنسبة لرجال الكنيستين وتمهد الطريق لتعليم العقيدتين اليهودية والبروتستانتية فى مدارس الدولة .

ومما يذكر ان الكنيستين المذكورتين قامتا فى السنوات القليلة الماضية بالضغط على الحكومة للحصول على مثل هذا الاعتراف الرسمى . وقال ساموييل توليدانو [الطليطلى] ـ مسئول الطائفة اليهودية باسبانيا ـ ان الاتفاقية هى « احقاق للحق »[!!] واضاف بأن الاتفاقية كانت لديه ذات اثر عاطفى كبير ، « فآبائى طردوا من طليطلة ، ويبدو ان القدر شرفنى بأن أعيد الحقوق اليهودية فى هذه البلاد .

ويعيش فى اسبانيا الآن نحو 15 ألف يهودى ، والمتدينون منهم نشطوا منذ وفاة « فرانكو » عام 1975 م ، فى تعزيز اوضاع الطائفة » .



الاندلس : بيان الادانة

الحديث عن الاندلس لايكون دائماً من باب (اجترار الماضى) كما يقول بعضهم ، والحديث عن الاندلس ليس مرتبطاً في كل شؤونه وشجونه بفريقين يقف كل واحد منهما في مواجهة الآخر على الرغم من أن الكثير يحبذ هذا التقسيم .

بالطبع ليس هذا فتحاً جديداً أزعم أنني لم اسبق اليه ، ولكنه واقع استطيع أن اقول عنه بأنه لايتضح للكثير . . وتأكيداً لما ذهبت اليه في « ورقة اندلسية » سابقة من ان أبناء الاندلس يوجهون الينا دعوة صادقة للحوار ها أنذا اضع بين يدي القارىء الكريم هذه الورقة التي أظن - وربما اعتقد - بأنها تأتى تأكيداً لمبدأ الحوار مع كل ماله علاقة بالاندلس .

وتتميز هذه الورقة - ولا أقول تمتاز - بأنها جاءت نتيجة حوار عفوي بدأ صدفة ، واستمر بتلقائية ، وانتهى فجأة . . حوار انطلق من بعض التساؤلات التي رأت السيدة / زيغريد فون ثميل طرحها على أي شخص يحضر اعمال الملتقى الثالث لدعاة جمعية الدعوة الاسلامية العالمية العاملين بأوروبا والامريكتين والمنعقد بمدينة مدريد العاصمة الاسبانية في النصف الثاني من شهر النوار (فبراير) 1988 م ولسبب أو لآخر وجدت صديقنا / خليل حسن صدقة يتجه نحوي ليعرفني بالسيدة المذكورة متمنياً أن اساهم معه في تقديم اجابات عن اسئلتها ، وبسبب الحركة غير العادية التي كانت سائدة آنذاك في المكان الذي كنا نقف فيه رأينا ثلاثتنا البحث عن ركن أقل جلبة وضوضاء فكان ما أردنا ، واعادت السيدة / زيغريد طرح اسئلتها :

1)ـ ما سبب عدم وجود أي عنصر نسائي في هذا الملتقى ؟

2)ـ ما معنى التاريخ بوفاة الرسول ؟

3)ـ لماذا لايحترم المسلمون المسيحيين ؟

لم اقف موقف الناطق الرسمي باسم الملتقى أو موقف من يلقي بياناً حول تلك النقاط ، بل اخترت أن يكون الحوار بين ثلاثتنا هو أسلوب الحديث .

وغني عن القول ان الحاجة كانت ملحة في البحث عن نقاط توضح الرؤية . . وبدأت اتلمس رويداً رويداً عمق الهوة الفاصلة بين قضايانا الحيوية وبين أسلوب حوارنا حيالها مع الآخرين ، اننا وفي مختلف جوانب حياتنا نسقط من الحساب - عمداً مافي ذلك ريب - اسلوب الحوار والجدل

والمنطق والحجة ، ونجد انفسنا في حرج شديد حينما نعلم أن الآخرين يهتمون كثيراً بقضايانا ومن خلال وجهات نظرهم فقط المتكونة من مزيج غريب من المعطيات المبتورة والمشوهة .

ربما لاتكون الصورة بمثل هذه المواصفات في مستويات معينة من رجال الفكر والسياسة ، لكنها على المستوى الشعبي هي كذلك ، الانسان في أوروبا رهين المحبسين كما نقول نحن العرب ، حياة مادية جافة تدفعه الى الغرق في خضم البحث عن لقمة العيش ، وحياة اخرى (لا أجد لها تسمية محددة) هي عبارة عن لحظات نادرة تجود بها الايام عليه ليتمكن من خلالها من الاطلاع على قضية أو حدث من وجهة نظر واحدة تقدمها وتتحكم فيها وسائل اعلام ليست معنية بالحقيقة بقدر ماهي معنية بتشكيل وصياغة قناعة محددة سلفاً حيال القضية أو الحدث موضوع الاهتمام .

صحيح اننا كعرب نكتب كثيراً ، ونحن سادة البيان والبديع وفي مجال الكلمة لايشق لنا غبار ، لكن بلاغتنا واساليبنا ورؤانا مهما كانت رائدة ورائعة ومهوى افئدة البلغاء والفصحاء من لدن عدنان بن قحطان فانها لن تفتح امام رجل الشارع الاوروبي نافذة للحوار معنا .

والاندلس خير مثال على ذلك .

إن اهتمامنا به :

أما ان يكون من قبيل النواح الذي ما أحيا ميتاً ولا أمات حياً .

وأما ان يكون من قبيل الاصرار على أنه جزء لايتجزأ من كياننا وتاريخنا الحديث واستعادتنا له ليست سوى قضية زمن .

وكلا النهجين لايسمن ولايغني من جوع .

أعود الى الحديث الذي تم بين ثلاثتنا والذي تشعب كثيراً ليشمل مبدأ الايمان الشامل في الاسلام والذي يميزه كدين عن كل المعتقدات انطلاقاً من قوله تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله ﴾ وموقف القرآن الكريم من (عيسى عليه السلام) و (مريم ابنة عمران التي احصنت فرجها) .

وتداعت الى دائرة الاهتمام مواقف اتباع الكنيسة على تنوعهم واختلافهم من خاتم الانبياء والرسل (محمد بن عبد الله ﷺ) وكان ذاك من قبيل المقارنة بين المواقف .

ودونما ترتيب أو توجيه عرجت السيدة / زيغريد على الحركة الصهيونية العالمية وتأثيرها الملحوظ في اوروبا عامة وفي اسبانيا بشكل خاص . . وساقت امثلة مختلفة تصب جميعها في سياق واحد هو أن هذه الحركة تتجه وبشكل قوي الى خدمة اهداف وتطلعات تتناقض وأسس الحياة

الانسانية السوية .

ونعت السيـدة / زيغـريـد علينا كعرب ومسلمين كوننا لم نصل بعد الى مستوى التصدى لمخـططات وأهداف الصهيونية العالمية ، وكانت بين الحين والآخر تضغط على جملة ترددها بنبرة قوية : انهم اقوياء ولكن الآخرين لايهتمون .

إنهم ـ تضيف السيدة زيغريد ـ يتدخلون في كل شيء ، نعم في كل شيء ، وذكرت بتفصيل احدى صور تأثير الحركة الصهيونية في مجالات التعليم على وجه الخصوص .

ونحن في المقابل يبدو أننا لم نتعرف بعد على ما للحركة الثقافية والفكرية من تأثير على المدى الطويل في مختلف بقاع العالم .

فاذا كانت ملامح التخلص من ربقة الصهيونية العالمية بدأت تتشكل ، فان التوجه إلى شعوب الارض بلغـة حيـة وبقلوب يغمرها الايمان من شأنه أن يساهم ايجابياً في مساعدة كل من يحاول التخلص من الهيمنة الفكرية الصهيونية العالمية .

السيدة / زيغريد فون ثميل على صلة بحركة تسمى (كريستيان اسلام) ويشار لها اختصاراً باسم (كريسـلام) ولهـذه الحركة نشاط ملحوظ في مجال العمل الفكري والثقافي . . وسبق لهذه الحركة أن اصدرت بياناً بعنوان (الحاجة الماسة لوضوح في الرؤية) وهو العنوان الذي اخترته لهذه الورقة الاندلسية .

تحدثت الحـركـة في بيانها عن جملة من القضايا ذات العلاقة بالصراع العربي الصهيوني ، وركّزت بالخصوص على مجموعة من النقاط التي تشكل في مجملها قناعة محددة حيال هذه القضية التي هي احدى قضايا العصر بلا ريب .

وإن كنا نختلف مع بعض ماورد في البيان / الوثيقة فاننا ومن باب التأكيد على تنمية الجهود المبـذولة في إطار التخلص من الهيمنة الفكرية والضغط بمختلف صوره الذي تمارسه الصهيونية العنصرية ضد الانسانية جمعاء .

إن اختلافنا مع بعض نقاط (الوثيقة) لايغير من كونها وثيقة إدانة للصهيونية والكيان الذي اصطنعته بتعاون وثيق مع قوى الشر .

الوثيقة تتعامل مع الكيان الصهيوني بشكل لانقبله حتى وإن وجدت المبررات (القانونية) التي تحاول التنبيه اليها . . إضافة الى نقاط اختلاف كثيرة لاتخفى على القارىء الكريم المؤمن بحتمية انتصار العروبة والاسلام ضد كل قوى البغي والطغيان .

والآن دعونا نقرأ النص الكامل :

حركة (كريسلام) ، تمثل تجمعاً من المثقفين والمفكرين ، الذين ينتمون للديانتين الاسلامية والمسيحية ومقرها مدريد ، من بين اهدافها الدفاع عن الانسان ، وعليه ترى من واجبها الاعلان الصريح عن رأيها حول الاحداث التي تشهدها الساحة الفلسطينية ، والذي يتمثل في الملاحظات التاليه :

اولاً : (اسرائيل) الدولة الوحيدة في العالم التي لاتملك دستوراً ، فقد فشلت كل المحاولات التي بذلت في هذا المجال منذ عام 1948 م ، على يد البروفسور (اليو كوهين) ، وعام 1950 م من قبل لجنة من الحقوقيين ينتمون لحزب المابام ، واخرى جرت مؤخراً عام 1987 م ، من قبل فريق من الحقوقيين ينتمون الى جامعة (تل ابيب) .

ثانياً : إن فشل المحاولات الثلاث المذكورة يرجع الى استحالة ايجاد صيغة قانونية لتعريف (الدولة اليهودية) ، نظراً لافتقارها لأي مضمون سوى الصفة الدينية ، أي أن اليهودي هو الذي ينتمي الى الديانة اليهودية . مما يعتبر تناقضا صارخا مع المفهوم السياسي (للديمقراطية) التقليدية التي مافتئت اسرائيل تتذرع بها ، بالقول بأنها الدولة الوحيدة في المنطقة التي تتسم بالديمقراطية .

ثالثاً : تتسم السلطات الاسرائيلية بقدر من الدهاء والحنكة يجعلها تماطل طويلاً قبل الاعلان عن دستور عام ، ينص مبدئياً ، ويجسد نظرياً الواقع العملي السائد في اسرائيل والذي يشهد بأن هذه الدولة هي دولة الشعب اليهودي بناء على الحق (الآلهي) الذي يدعي اليهود بموجبه بالسيادة على فلسطين .

رابعاً : من الواضح عدم وجود أي مبدأ آخر يمكن الاعتماد عليه لتبرير وجود اسرائيل الشرعي ، باستثناء المعتقدات اليهودية .

خامساً : لكي تقنع اسرائيل العالم بمبدأ لايرتكز على القانون والذي يضفي صفة قومية على دين اليهود ، راحت تبذل الجهود المضللة خلال سنوات طويلة ، بغرض إثبات العلاقة بين الدين والقومية ، كعلاقة تجانس (وهذا لاينطبق طبعاً إلا على الديانة اليهودية) .

سادساً : استطاعت الدعاية الصهيونية من خلال التكرار الممل زرع هذه الفكرة في ضمير الرأى العام العالمي ، إلى أن باتت مقبولة ، حتى من قبل انصار الافكار الانسانية ، حيث اقتنعوا بحق اليهود بالعيش في وطن خاص بهم ، وهذا ما وافقت عليه الامم المتحدة بقرار تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية ، بدون أن تأخذ بالاعتبار أن ذلك يعني الاعتراف بالدين كهوية قومية .

سابعاً : من المتعارف عليه في العالم حتى الآن هو ـ صيغة الدولة القائمة على أمة ـ تضم في صفوفها كل المعتقدات الدينية . وإذا ما أخذ بمشروع الدولة الصهيونية ، فان ذلك يمثل سابقة خطيرة وجديدة . تمكن من إقامة دولة على اساس ديني فقط ، يمكن ان تضم كل القوميات التي تعتنق هذا الـدين . حيث ان كل من يعتنق الـديـانـة اليهودية هو مواطن في اسرائيل ، بامكانه الاحتفاظ بجنسيته السابقة .

ثامناً : نحن لانطعن بحرية العبادات اليهودية في أي مكان يعيشون فيه ، اسوة بغيرهم من المسلمين أو المسيحيين أو البوذيين أو أية ديانة اخرى . ولكننا واثقون من أنه لو تجرأ المسلمون أو المسيحيون أو غيرهم باقامة دولة خاصة بهم ، لاستقبل هذا بالازدراء والاحتقار من طرف العالم .

تاسعـاً : لقـد تمكنت الـدعـاية الصهيونية من تشويه سمعة أي شخص يتجرأ على كشف حقيقتها . من خلال إتهامه بالحال بأنه نازي ، ومن انصار محاكم التفتيش ، ومن انصار اللاسامية وعليه فان كل مايصدر عنه لاقيمة له ، ولا مجال لاعارته أي اهتمام .

عاشراً : لايسعنا إلا ان نوجه دعوة ملحة وعاجلة الى العالم بأسره ، لشد انتباهه الى المخاطر التي تترتب على الرضوخ للضغوطات ، التي تمارسها الايدلوجية الصهيونية ، في كافة أوجه الحياة اليومية ، بصفتها ايدلوجية توسعية تتحكم بالاغلبية الساحقة من البشر ، وتسير عواطفهم ، وتغير القيم الخلقية ، وتجبر الجميع للانصياع التام لما تمليه عليهم ، وفي هذا المجال لايسعنا إلا ان ندعو لنظرة تأمل لمراعاة مايلي :

1)ـ بأن الصهيونية تمكنت من اقناع اتباع الديانات السماوية الاخرى وبشكل خاص المسيحية ، بعدالة مطلبها باقامة دولة لمعتنقي الديانة اليهودية ، في فلسطين ، بناء على الادعاء بحق إلهي ، أو وعود ربانية ، أو حق تاريخي . إلى ان بات الجميع ، يتقبلون بدون نقاش ، مبدأ بعيدا عن أية منطقية يقول « بأن إلها عنصريا يشرع اقتراف الجرائم بحق شعب آخر » وهو في هذه الحالة الشعب الفلسطيني .

2)ـ تمكنت الصهيونية من إقناع اولئك الذين لايؤمنون بالدين (الذين يعتمدون على التحليلات العلمية للاحداث) ، بأن الاعمال الاجرامية التي اقترفتها النازية ضد اليهود تكفي لوحدها كذريعة وحجـة ، لاقـامة دولة يهودية يعيش فيها حتى اولئك اليهود الذين لايؤمنون بدينهم ، وبات من المقبـول الآن ، بدون منـاقشـة ، أن تستغـل الـدولة اليهودية (حقها بالوجود) لتحول الشعب

الفلسطيني الى غرباء داخل بلادهم بدون ادنى الحقوق المدنية . . لقد تمكنت اسرائيل من اضفاء صفة الشرعية على نفسها على الخريطة فقط ، لأن الشرعية امام القانون الدولي تتطلب توضيحا مسبقاً لهوية هذه الدولة لكنها تعتبر الفلسطينيين بمثابة ارهابيين لأنهم يدافعون عن حقهم المقدس باقامة دولتهم المستقلة ، وجعلتهم عرضة وهدفا دائما لكل اعمال القمع والتعذيب والتشرد والسطو على اراضيهم وممتلكاتهم .

3)ـ لقد تمكنت الصهيونية من إقناع اليهود ، بأن الوضع الجنوني الذي يعيشونه الآن هو صلب العقلانية ، واوهمتهم بأنهم شعب ، يعيش بانتظار (النبي) ، وبناء على ذلك فلهم الحق بالمطالبة بأرض اجدادهم ، لكي لايبقى ضحية لكل الاحقاد التي تكنها لهم بقية شعوب الكرة الارضية . فقد بات اليهود يقبلون بدون نقاش بأن الاله قد يكون كما تصوره الصهيونية .

مايحدونا نحن المثقفين المسلمين والمسيحيين للتذكار بهذه البديهيات ، هو حقيقة أن العالم بات يتجاهلها بالكامل وخير دليل على ذلك بأنه لم يمارس الضغوطات الكافية على اسرائيل لتكف عن اعمالها الوحشية ضد الفلسطينيين ، مما يبرهن على مدى خضوع الانسان للخداع والتزييف ، وهذا يمثل الطامة الكبرى التي تهدد بجعله فريسة سهلة ولقمة سائغة ، تفتقر الى التحليل المنطقي المجرد . ويتقبل الدعاية والرضوخ للواقع بدون معارضة ونقاش » .

واخيراً :

إن صحوة عالمية بدأت تتضح في مواجهة التحريف والتزوير الذي تحاول القوى الصهيونية جعله حقيقة رغم كل مظاهر الخطأ .

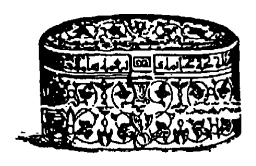
والصحوة العالمية لم تأت مصادفة . . . إنها وليدة الشعور بالذنب تجاه شعب شرد من أرضه وتكالبت عليه قوى لاترحم ضعيفاً ولاتقبل قوياً في الحق .

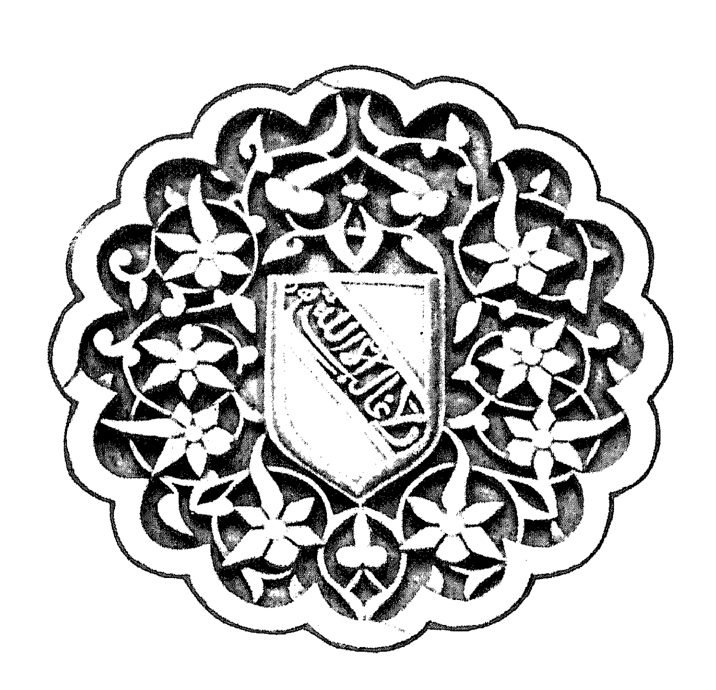
وإذا كانت اسباب العداء المتنامي ضد الصهيونية في عدد من بلدان العالم ترتكز في اساسها على العداء الانساني الطبيعي ضد كل ماهو شر وفساد فان ثورة ابناء فلسطين منذ سنة 1987 استطاعت أن تنقل الانسان في أوروبا نقلة واضحة نحو فهم وادراك حقائق وثوابت الاشياء .

لقد وزعت هذه الوثيقة في بداية العام 1988 الذي شهد تطوراً ملحوظاً وملموساً في مواجهة الآلة الحربية الصهيونية العنصرية . . . وبدأ العالم يستيقظ من سبات فرض عليه .

فهل نحن على استعداد لايضاح الرؤية بشكل لاينقص من قيمة حضارتنا ولايكون على حساب مقوماتنا الشخصية ولا على حساب ثورة الحجارة المباركة والصدمة التي اعادت للانسانية رشدها ؟!

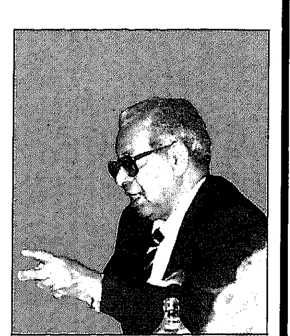
هل نحن على استعداد لكل ذلك أو لبعضه على الاقل ؟!





القسم الثالث

ابحار عبر تاريخ الأندلس



د . محمود علي مكي .

الدكتور محمود على مكى استاذ الادب الاندلسى والمغربى ورئيس قسم اللغة الاسبانية في كلية الاداب بجامعة القاهرة .

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

قام بتحقيق كثير من المخطوطات الاندلسية من بينها : ديوان ابن دراج القسطلّي . نشر كتاب **« نظم الجمان » لابن القطان المراكشى حول تاريخ الاندلس والمغرب في عصر المرابطين وأوائل عصر الموحدين .**

نشر قطعة من تاريخ « ابن حيان » : المقتبس حول التاريخ المبكر للاندلس .

له عدة مؤلفات باللغة الاسبانية حول نفس هذه الموضوعات . امتد نشاطه الى الأدب الاسبانى حيث ترجم عددا من الاثار الادبية الاسبانية ، ثم امتد نشاطه الى آداب امريكا اللاتينية **حيث ترجم عددا من الاثار الادبية .**

يهتم بالثقافة المقارنة خاصة فيما يتعلق بالتأثير العربى الاسلامى في كثير من مظاهر الحضارة **الاوربية خاصة في اسبانيا ، يستعد حاليا لاصدار كتاب عن التأثير العربى في ظهور أول بواكير الشعر الغنائى في أوربا وهو شعر « التروبادور » .**

لهذه الاسباب ولأسباب أخرى لمستها حين الحوار معه حول عدد من القضايا التاريخية القديمة والمعاصرة رأيت ان القضايا التى يمكن ان يشملها الحديث عديدة ومتنوعة وشائكة .

لتكن البداية من خلال الموقف حيال الاحتفالات سنة 1992 م .

د . محمود على مكى : اشتراك البلاد العربية والاسلامية في احتفالات 1992 م .

كان مثار جدل ، وقد شاركت فيه وقلت رأيى بصراحة وهو انه ينبغى علينا ان نشارك لاعلى اساس ان ذلك بمناسبة سقوط غرناطة في ايدى المسيحيين وانما على أساس أن عام 1492 م كان نهاية **حقبة تاريخية وبداية مرحلة أخرى .**

اننا في الوطن العربى في كثير من الاحيان ندير ظهورنا للاشياء ، وهذا ليس في صالحنا لاننا حين نترك هذا الميـدان فاننا نتركه للاخرين يعبثون بالتاريخ كما يريدون ويفعلون ما يشاءون ، ولنتذكر أن تاريخ 1492 م اذا كان هو تاريخ سقوط غرناطة في أيدى العاهلين الكاثولكيين فانه أيضا هو التاريخ الذى صدرت فيه أول مراسيم طرد اليهود فاذا نظرنا الى ما يفعله الجانب اليهودى فانه يحاول ان يستغـل هذه المنـاسبة لكى يرسخ هذه الفكرة التى يدعون اليها الان وهى ان اسبانيا وحضارة اسبانيا في العصور الوسطى لاتعود الى المسلمين بقدر ما تعود الى اليهود ، ان انعزالنا عن الاحداث وترك الميدان لغيرنا من الامور التى تلحق بنا الضرر ، علينا ان نثبت دائما في المواجهة ، وعلينا أن نثبت ماقدمه الاسلام والعرب لاسبانيا ، وأعتقد ان الارضية مهيأة والظروف مواتية لنا تماما لان لنا قاعدة قوية بين ابناء الشعب الاسبانى الذى يرحب بذلك ترحيبا كبيرا ، لا اعنى فقط الاسبان الذين اعتنقوا الاسلام وانما اعنى الاسبان بصفة عامة .

هناك فكرة عامة تسود كثيرا من المثقفين في اسبانيا وهى الاعتراف بفضل العرب والاسلام .

ان عدم مشاركتنا في احتفالات 1992 م ليس الا عملا سلبيا ولقد اعلن الاسبان أنفسهم ان الاحتفالات ليست موجهة ضد العرب .

اننى لا افهم أبدا سببا واحدا لعدم اشتراكنا كعرب ، ان كانت بعض الاراء تقول بأن ذلك يمثل ذكرى حزينة بالنسبة لنا فاننى اقول : لتكن ذكرى حزينة ، ولكن علينا ان نثبت ان الاسلام بعد ان قضى ثمانية قرون في اسبانيا ثم بعد ذلك بعدة قرون اخرى استمر فيها الاسلام في صورة المورسكيين والمدجنين حتى القرن السابع عشر علينا ان نثبت انه بعد ذلك كله لم ينقطع التاريخ الاسلامى في اسبانيا .

لكل ذلك فاننى ضد مقاطعة هذه الاحتفالات وقد كتبت عن ذلك وقلت بأن الدعوة التى اعلنهـا البعض وقالوا انه ينبغى علينا كعرب عدم الاشتراك هى دعوة خاطئة تماما لان معناها اننا ننسحب من الميدان لكى يصول ويجول فيه الاخرون واعداؤنا بصفة خاصة .

قلت :-

ذكرتم ان عددا من المثقفين الاسبان المعاصرين يعترفون بفضل العروبة والاسلام : هل هذا تقييم للمرحلة الحالية للتوجهات الثقافية الاسبانية ؟

د . محمود على مكى : الفكرة التى كانت سائدة حتى اوائل هذا القرن كانت هى الفكرة الموروثة من العصبية القديمة ضد العروبة والاسلام ، ولكن ابتداء من المدرسة الاستشراقية الحديثة

التى بدأها « كوديرا » ثم استمرت من خلال « خوليان ريبيرا » و « آسين بلاثيوس » تغير ذلك التوجه ، ولاننسى ان هناك توجها أو اتجاها آخر في الاستشراق الاسبانى هو الذى يهتم بقضايانا الحديثة والمعاصرة ، هذا التيار يتزعمه الاستاذ « بيدرو مونتابث » وفي اسبانيا الان عدد كبير جدا من الشباب المقتنع تماما بهذه القضية ، والذى يعمل على اعادة النظر في تاريخ اسبانيا وعلى ان يكون الاعتراف اعترافا حقيقيا بدور العروبة والاسلام ، وعلى انه لايمكن فهم تاريخ اسبانيا الحديث أو فهم كثير من منجزات هذا التاريخ الا حينما يوضع في الحسبان تلك الخلفية العربية الاسلامية الاسبانية .

من أجل هذا أؤكد على ان الارض مهيأة والجو العام موات تماما بسبب وجود عدد من الايجابيات ، والذى لم يكن يقال منذ سنين أصبح يقال من قبل عدد من الباحثين بصراحة مطلقة ، واذكر على سبيل المثال كتابات « خوان كوتى سولو » وغيره كثير جدا من الباحثين والمفكرين الاسبان الذين يؤيدون قضايانا سواء في القديم أو في الحديث .

هذه قاعدة ينبغى ان نستغلها وان تكون منطلقا لنا لكى نوثق العلاقات بهذه المجموعات الكبيرة فضلا عن مجموعات من الاسبانيين الذين اعتنقوا الاسلام .

قلت :-

نغادر قليلا عصرنا الحاضر ونعود بالذاكرة الى الوراء ولنضع أمامنا كلمة « الاندلس » باتساعها الجغرافى رغم عدم الاتفاق حول أصل التسمية ، حينها سنرى ان التسمية لم تعد تشمل شبه جزيرة ايبيرية بل غدت تطلق فقط على الجزء الجنوبى من اسبانيا ، وعميد بلدية تيرويل قال لى : اننا ننتمى الى الاندلس .

د . محمود على مكى : هذا الوضع من الناحية التاريخية له ما يفسره ، نحن نعرف ان الوجود الاسلامى استمر في المنطقة الجنوبية اكثر مما استمر في الشرق او الشمال أو الغرب ، وهذا هو السبب في ان لفظة « الاندلس » التى اطلقها العرب المسلمون على كل شبه جزيرة ايبيرية بل التى كانت تتجاوز ذلك الى ما وراء جبال البرانس في وقت من الاوقات قد أصبحت تطلق الان على المقاطعات الثمانى الجنوبية .

ولكن من غير شك فان الاثر الاسلامى العربى واضح تماما لا في هذه المناطق الجنوبية فحسب وانما موجود ايضا في شرق الاندلس ويمتد الى طرطوشة والى جزء من قطالونية من منطقة « برشلونة » ويمتد بعد ذلك الى كل الثغر الاعلى والى جبال البرانس ، وفي الغرب يمتد الى ان يشمل كل دولة

البرتغال الحالية ، كل هذه المناطق تنتمى الى الاندلس ، وما سقتموه على لسان عميد بلدية تيرويل يتفق تماما مع الحقائق التاريخية .

علينـا ان نعيد للاندلس معناها القديم وهى انها لاتعنى فقط المناطق الجنوبية وانما تشمل بالاضافة الى ذلك شبه جزيرة ايبيرية تقريبا .

حتى المناطق المتبقية وجد فيها من سموا بالمستعربين ، ومن هم المستعربون ؟ هم المسيحيون الذين احتفظوا بعقيدتهم وتأثروا بالاوضاع الحضارية الاسلامية والعربية ولذلك فاننا نجد طرزا من العمارة على سبيل المثال وعددا كبيرا من الكلمات الاسبانية في الشمال من اصول عربية . كيف يفسر ذلك ؟ يفسر عن طريق هؤلاء المستعربين الذين رأوا في الاندلس حضارة أسمى وارقى بكثير من حضـارتهم ، نجـدهم يتخـذون أوضـاع العرب والمسلمين في كل شىء حتى انهم عرفوا تاريخيا بالمستعربين وباللغة الاسبانية « موثارابس Mozarabes » .

قلت :-

تتحدث كتب التاريخ في اشارات غير واضحة بصورة كافية عن محاكم التفتيش التى شملت المسلمين ، وكانت تتناقض تماما مع ما تم ابرامه من عقود ومواثيق بين المسلمين والكاثوليك .

محاكم التفتيش مسئـولـة فيـها أظن على ضيـاع كثـير من الكتب وكثـير من المعـالم والاثار الاسـلاميـة ، ونما الى علمى مؤخرا ان ثمة دراسات يحاول من خلالها اصحابها استجلاء حقيقة الاوضاع في تلك المرحلة .

د . محمود على مكى : من غير شك ، هناك دراسات قد بدأت ، وهناك باحثون يعملون في هذا الميدان .

محاكم التفتيش التى ذكرت انها كانت في الغالب موجهة ضد المسلمين انا اقول انها انما انشئت بالذات ضد المسلمين ثم امتد نشاطها بعد ذلك لبعض اليهود الذين كانوا اقلية ضئيلة جدا لاتمثل خطرا حقيقيـا على اسبـانيـا ، وامتدت محاكم التفتيش بعد ذلك الى المسيحيين البروتستانت لان الكنيسة الكاثوليكية هى التى كانت ترعى محاكم التفتيش وهى التى انشئت في ظلها هذه المحاكم .

اننى اقول ان نشاط محاكم التفتيش كان موجها في المقام الاول ضد المسلمين ، ولقد افسدت هذه المحاكم - كما قلت في حديثك - وشوهت كثيرا من المعالم الاسلامية سواء فيها يتعلق بالاثار المادية أو الكتب أو غير ذلـك حتى ان الكـاردينال « ثيثنيروس » قام بأكبر محرقة للكتب في « غرناطة » احرقت فيها آلاف بل عشرات الالاف من الكتب في ميدان غرناطة بعد الاستيلاء عليها .

ولكن هناك اتجاه جديد بين الباحثين الاسبان يدعو الى تأمل هذه الحضارة العربية الاسلامية والى تقويمها من جديد ، هذا الاتجاه أفرز لنا عددا كبيرا من الباحثين يعمل الان في الكشف عن الفظائع التى قامت بها محاكم التفتيش ، وأود هنا ان اشير الى ان هناك عددا كبيرا من الباحثين يهتمون بهذا الموضوع ، ومع الأسف في الوطن العربى لانزال نجهل هذا الموضوع .

السبب يعود بطبيعة الحال الى ان وثائق « الموريسكيين » - اى المسلمين الذين كانوا موضعا لتعقب محاكم التفتيش - كُتبتْ باللغة الاسبانية بحروف عربية ولهذا فان العمل في هذه الوثائق يقتضى معرفة جيدة وعميقة باللغة الاسبانية .

وأعتقد اننا لو انتجنا جيلا جديدا يتقن اللغة الاسبانية فانه يستطيع ان يشارك في هذا الميدان .

ومن بين الباحثين الاسبان المهتمين بهذه القضايا اذكر « خوليو كاروباروخا » الذى اصدر في السبعينات كتابا عن المور يسكيين في غرناطة اعتمد فيه على كثير من الوثائق التى ذكرتها والتى تبين فظاعة الجرائم التى قامت بها محاكم التفتيش والتى كشف فيها كثيرا من تلك المحاكمات التى تعرض لها المسلمون ، والقى « خوليو » بذلك ضوءا كاشفا على أوضاع أولئك المورسكيين .

نحن مازلنا في البداية ، وفي دور الوثائق الاسبانية عدد كبير جدا من تلك الوثائق ، واشير بصفة خاصة الى دير « السيمنكس » الذى يحوى الافا من المخطوطات والوثائق التى لم تنشر حتى الان ونأمل ان تكون موضعا للدراسة من قبل الباحثين الذين يتوفرون على تلك الوثائق وحاليا هناك من يعمل في هذا الاتجاه ومن بينهم الاستاذ « ميدريكو فورنسيتى » والاستاذ « البدوغولميز فوينتيه » وغيرهما من الباحثين الاسبان .

قلت -

التوجه الاوروبى نحو العالم الجديد ، وبالتحديد التوجه الاسبانى البرتغالى الى ماوراء المحيط ومـا ارتكب في حق مسلمي الاندلس وشمال افريقيا يبدو أنه في احد مساراته استمرار للحروب الصليبيـة في الشرق وفي مسـار آخـر كان بهدف نشر الكـاثـوليكية ، اى أن التوسع الكاثوليكى واستئصال شأفة المسلمين في الاندلس ثم التوسع في بقاع اخرى من العالم يبدو في مجمله كتعويض عما كان يحدث في الشرق ، الا أن البعض لا يميل الى هذا الراى .

د . محمود على مكى : أعتقد ان الكشف عن العالم الجديد والامتداد الاسبانى والبرتغالى ليس فقط في العالم الجديد وانما في افريقيا وآسيا انما كان الهدف الاول منه وهو الهدف غير الظاهر هو

الناحية الاقتصادية ، ولكن تزامن بالطبع مع الناحية الاقتصادية الاستمرار في الحروب الصليبية ، ذلك لان اسبانيا خلال العصور الوسطى وحينها كانت الحروب الصليبية على اشدها لم تشارك في تلك الحروب لانها كانت مشغولة بهؤلاء المسلمين الذين كانوا في الداخل « في الاندلس » ، واذكر ان احد البابوات أصدر مرسوما اعفى بموجبه الاسبانيين المسيحيين من الاشتراك في الحروب الصليبية ، وعليهم أولا ان يحاربوا المسلمين في داخل الاندلس .

أظن ان هذا هو الوضع الصحيح لهذا الامر .

قلت :-

يبدو أن مساحة الاهتمام بالاندلس لاتزال محدودة على الرغم من أنها أصبحت قضية حيوية تتعلق بتصحيح بعض جوانب التاريخ ، وتتعلق بازالة كثير من الشوائب التى علقت بتاريخ الاندلس خاصة فيما يتعلق بالعروبة والاسلام . . الاهتمام لايزال محدودا بشكل عام .

د . محمود على مكى :

هناك عدد من العلماء والمتخصصين والباحثين في سائر انحاء الوطن العربى يهتمون بهذه القضايا ولكنى الاحظ - وهذا نقد ذاتى لانفسنا - ان هذا الاهتمام مازال مقصورا على اقلية من الباحثين .

ان هذه الموضوعات تفرض علينا ان نشارك في ايضاحها بكل قوة لاننا نعرف ان الماضى هو ذاكرة التاريخ واننا لانستطيع ان نقيم بناء صالحا في حاضرنا وفي مستقبلنا الا اذا احسنا معرفة ماضينا ، ولذا فانا ادعو الى مزيد من الاهتمام من قبل العلماء والباحثين بهذه القضايا لاعلى اساس من المفاخرة والمنافرة غير القائمة على اسس علمية .

قلت :-

ولا على اساس البكاء على الاطلال .

قال :

نعم ، كل ذلك لايقدم ولا يؤخر ، علينا أن ننظر الى كل هذه القضايا بناء على دراسة علمية فاحصة حقيقية .

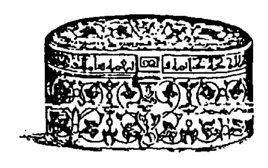
قلت :-

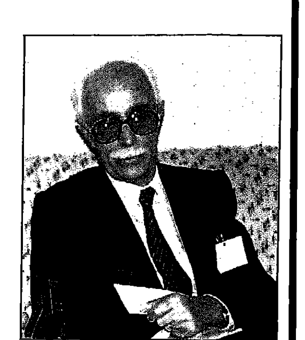
أخيرا ، هل هناك قضيه معينة تود طرحها لم يتناولها هذا الحوار وترى انها مهمة ؟

د . محمود على مكى : اننا ونحن ندرس الدور الذى قام به العرب المسلمون عبر التاريخ

علينـا ان لا نقتصر على الادب والثقـافة ، هناك ميادين اخرى بطبيعة الحال لست انا الحجة في التحدث عنها : الطب والجراحة والهندسة والكيمياء والفنون ، كل المسارات ينبغى ان تكون جميعها على بساط البحث .

هذا الحديث لم يكن الا في اطار أوراق اندلسية تتسع احيانا لتصبح بمساحة الاندلس تاريخا وحضارة ، وتضيق تارة كما هى المساحة بين حرفين كوفيين في جدار اندلسى .




الاستاذ : عبد الكريم غلاب

الانسياح الحضاري

الحديث عن الاندلس ، ليس مملا حينما يرتبط الماضي بالحاضر ، ولأنني أبحث من خلال هذه الاوراق الاندلسية عن معلومة وتحليل فانني لم أترك « الانبهار » بالماضي يحاصرني ومن ثم يحاصر ما أحاول وضعه بين يدي القارىء الكريم ، صحيح أنني لا أملك القدرة على التخلص وبشكل نهائي من ماضي الاندلس ، وصحيح أن كل باحث وكاتب وأديب لا يملك إلا أن يترك الاندلس تحتل كامل مساحة اهتمامه ولو لبضع ساعات ، الا انني وأنا أمني النفس بأن أوفق فقط في وضع معلومة أو ايضاح أو رأي وجدت أن من الصعب ان لم يكن من المستحيل فصل الامور بشكل قسري .

الاندلس قديما لا يمكن أن ينساه من يتحدث عن اسبانيا اليوم . والحديث عن الاندلس القديم لا يمكن الا ان يمر بأهم قضايا عصرنا الحاضر : العروبة والاسلام .

والحديث عن الاندلس قديما وحديثا في أي اطار يختاره المرء لا بد وأن يقودنا جميعا - شئنا أم لم نشأ - الى قضايا تتشابك وتتداخل مثلما تتشابك وتتداخل نقوش الحمراء وقصور اشبيلية .

كل ذلك يحدث حينما يكتب المرء عن الاندلس ، وقطعا سيحدث ما هو اكثر من ذلك حينما يحاور المرء طرفا آخر ويكون موضوع الحوار هو : الاندلس .

انني هنا لا ازعم انني اقدم جديدا وان كنت في الحقيقة اتمنى ذلك ، لكنني - وهذا يكفي في الغالب الاعم - ازعم انني أقدم ورقات يتحدث من خلالها من في امكانهم ان يضيفوا جديدا أو يصلحوا خطأ أو يوضحوا غامضا .

وضيف « الاوراق الاندلسية » في هذا الحوار هو الاستاذ : عبدالكريم غلاب .

ولا أعتقد انني سأنصف الرجل فقط حينما اتبع اسمه بسلسلة من التعريفات العلمية والادبية والتاريخية والصحفية .

أعتقد - جازما - انني أنصفه حينما اقول : الاستاذ عبدالكريم غلاب من المغرب .

كان حوارا قال عنه انه حوار مفيد ، ورغم يقيني بأن ما قاله كاف بحد ذاته لنشر هذا الحوار

الا انني أتمنى أن يجد كل قارىء لهذه الاوراق شيئا مفيدا ، لا اقول ذلك من قبيل الانتقاص مما أدلى به ضيفنا ، وانما أقوله من حيث استطاعتي طرح اسئلة ذات قيمة وفائدة .

وكالعادة دائما ، لم أكن أحمل ورقة بها اسئلة محددة وانما حملت « الاندلس » في الذاكرة وبدأت .

قلت :-

الى حد الآن ليس ثمة اتفاق حول اصل كلمة « الاندلس » البعض يرى انها مشتقة من «الوندال» وآخرون يذهبون الى انها مشتقة من اسم جزيرة « اطلانطيكوس » المفقودة ، لكنها - اعني كلمة الاندلس - رغم هذا الاختلاف تحمل اشارات محببة الى النفس سواء بالنسبة للعرب أو الاسبانيين ، الآن نرى ان التسمية تطلق فقط على الجزء الجنوبي من اسبانيا وهي تاريخيا شملت تقريبا شبه الجزيرة الايبيرية .

عبدالكريم غلاب :

اسم « الاندلس » اخذ معنى حضاريا وثقافيا وتاريخيا اكثر من كونه يرتبط بمعنى لغوي ، ولذلك فان البحث عن اسباب التسمية لا يهمنا كثيرا في هذا الموضوع ، الذي يهمنا هو ما تعطيه الكلمة من دلالات حضارية وتاريخية وانسانية وثقافية .

من هذا المنطلق نرى ان كلمة « الاندلس » يمكن ان تطلق على الاقسام العامة التي عاش فيها المسلمون وبنوا فيها حضاراتهم وكذلك الاقسام التي استلمها فيها بعد اسبان الشمال بالطرق التي نعرفها ، وهي طرق لا تخلو من عنف ومن محن تجرعها المسلمون والعرب عموما في المراحل المختلفة . . . لذلك فانا لا اجيز مطلقا لنفسي أن أطلق كلمة « الاندلس » على القسم الجنوبي فقط من شبه جزيرة ايبيريا وانما تشمل في العرف الحضاري فيما اعتقد القسم الشرقي كذلك كمنطقة « اراغون » وكذلك « البرتغال » التي عاش فيها المسلمون وتركوا فيها آثارا حضارية* .

غير ان بعض الاسبانيين من الجنوبيين يهتمون الآن باطلاق اسم « الاندلس » على الجزء الجنوبي ، ويعتزون بانتمائهم الى هذا القسم حتى ان بعضهم يقول بأنهم ليسوا اسبانيين ولكنهم اندلسيون .

المهم عندنا ان كلمة « الاندلس » بمعناها الحضاري والثقافي يجب ان تشمل جميع المناطق التي عاش فيها العرب والمسلمون وبنوا فيها حضارتهم سواء في جنوب شبه الجزيرة أو في شمالها الشرقي أو في غربها مما تشمله الآن دولة « البرتغال » .

قلت :-

في بعض المراحل التاريخية وصف الوجود العربى الاسلامى في اسبانيا بأنه وجود استعمارى . وقدم العرب من قبل بعض المستشرقين في صورة الغزاة ونحن نعلم ان عدة قبائل اجتاحت اسبانيا من الشمال كالوندال والقوط ، وقبلهم الرومان الا ان تلك القبائل لم توصف بالغزو .

عبدالكريم غلاب :

الواقع ان فكرة وصف العرب بالغزاة آتية من منطلق نصرانى صليبى .

قلت : ومتعصب .

قال : بالتأكيد ، لاننا حينما نقول « الصليبى » فانها تعنى : التعصب ، لان فكرة الصليبية او كلمة « الصليبية » لم تعد تعطى فقط معنى « الصليب » وانما أصبحت تعطى المدلول الحضارى والتاريخى .

وصف المسلمين والعرب بأنهم غزاة هو وصف صليبى اكثر منه أى شىء آخر .

والواقع ان المسلمين والعرب لم يكونوا غزاة بالمعنى الذى نعرفه للغزو ، ولكنهم كانوا « انسياحا حضاريا » والحضارات دائما « تنساح » سواء بأفكارها أو بلغتها او بثقافتها أو بدينها كذلك .

الذى نعرفه ان العرب لم يستعملوا العنف الذى استعمله الصليبيون عند استرداد (الاندلس) ، بل ان العرب كانوا مبشرين . صحيح انه في بعض الفترات كان هناك بعض العنف لكن ذلك من ضمن الظواهر البشرية التي لاتخلو منها أية فترة تاريخية .

لكن الظاهرة العامة هي أن (الانسياح) العربي كان انسياحاً فكرياً يحمل ديناً ويحمل لغة ويحمل حضارة ويحمل تسامحاًكذلك .

العرب الذين فتحوا شمال افريقيا والذين انطلقوا الى الاندلس وبنوا فيها حضارتهم كانوا (انسياحاً حضارياً) ، لم يرغموا احداً على اعتناق هذه الحضارة سواء في جانبها الديني (الاسلام) أو في جانبها اللغوي والثقافي ، بل كانوا يبشرون ، وكان كثير من المتقبلين من ذوي النفوس المتقبلة يطمئنون الى هذه الحضارة فاعتنقوا الاسلام ، ومن ثم اتقنوا اللغة العربية ومن ثم كذلك تعاملوا وتزاوجوا واندمجوا مع العرب الذين وفدوا سواء كانوا عرباً أتوا من المشرق أو عربا أتوا من المغرب .

من هنا نجد ان مجتمعاً جديداً تكون في (الاندلس) شمل العرب والاسبان من مختلف المناطق ، هناك اسبانيون من الشمال وفدوا الى الجنوب واعتنقوا الاسلام .

هذا المجتمع الجديد هو مجتمع لغوي ، مجتمع ثقافي ، مجتمع حضاري تكوَّن لا أقول بمحض الصدفة والارادة ولكن بحكم الانفعال الحضاري الذي لم يكن العنف هو سبيله الاساسي ، قد يكون هناك عنف ، وهذا لا ننكره ولكنه لم يكن هو الظاهرة الاساسية كما نجدها عند عملية غزو الاندلس من الصليبيين من جديد .

قلت : العرب مبشرون ، والامة العربية امة رسالة ودعوة وجهاد في سبيل الرسالة والدعوة ، امة من مهامها الاساسية : التبليغ ، هذا يقودنا الى اثارة قضية قد لاتكون مرتبطة بشكل واضح بسياق هذا الحوار الاندلسي ، لكنها اطلت من خلال استعمالكم لكلمة (الانسياح الحضاري) ومن خلال التسليم بأن العرب مارسوا التبشير واعني بالتحديد ملامح الفصل بين الاسلام والعروبة .

هذا الارتباط العضوي بين العروبة والاسلام يتعرض الآن الى التفكيك ، النقطة الاساسية والعمود الفقري (ان صح التشبيه) للثقافة الاسلامية هو القرآن الكريم الذى نزل بلسان عربى مبين والذى لايقرأ الا باللغة العربية ، هذا الارتباط يتعرض الآن الى محاولات حثيثة للفصل بين جزئيه .

عبد الكريم غلاب :

الحقيقة ان هذا خطأ في التفكير ، واعتقد ان محاولات الفصل بين الاسلام والعروبة ـ ونحن نتحدث من منطلق ثقافي وفي ميدان ثقافي ـ تلك المحاولات تسيء الى االثقافة وتسيء الى الفكر بقطع النظر عن ماهو ذلك الفكر . وهي (أي محاولات الفصل) تسيء الى الفكر الاسلامي والى الثقافة العربية .

ان العروبة لم تكتسب معناها الحقيقي والحضاري ومعناها (الانسياحي) الذي تحدثت عنه الا بالاسلام الذي اعطى المدلول الواضح للعروبة .

العروبة كجنس أو كعرق ربما تتعرض لما تتعرض له كل الاجناس التي لم تصمد للتاريخ . فلو ان العرب بقوا عرباً كجنس أو عرق دون ان يحصنهم الاسلام ويسمو بهم الى نطاق حضاري وثقافي وعقيدي لانتهوا . لأنهم كانوا معرضين ـ كما هو الحال الآن ـ لغزوات عديدة ، كانوا معرضين لغزوات من الفرس والروم ، وحديثاً من الفرنسيين والانجليز وغيرهم ، ولذلك فان الاسلام هو الذي حمى العروبة .

كما ان اللغة العربية هي لغة الاسلام وكما تفضلت في حديثك من ان الاسلام في جوهره لايقرأ الا باللغة العربية ، والقرآن الكريم لايقرأ ولايفهم إلا باللغة العربية .

صحيح ان هناك ترجمات (لمعاني القرآن الكريم) ، ولكنها مجرد محاولات تقريبية . وتظل مع ذلك كله اللغة العربية هي الاساس .

ان الارتباط العضوي بين العروبة والاسلام موجود دائماً ، وصحيح ان هناك ظاهرة جيدة وهي ان بعض الشعوب التي لم تكن عربية احتضنت الاسلام وحمته وخدمته بلغاتها المختلفة كالفرس والاتراك والهنود وغيرهم من الشعوب التي استخدمت لغاتها في فهم الاسلام وتقريبه للمفاهيم العامة ، لكن ذلك لم يكن يغنيهم مطلقا عن اللغة العربية لانهم ما كانوا ليدركوا ما يريدون تبليغه بلغتهم الا عن طريق اللغة العربية ، ولذا نجد ان كثيرا من العجم كما كانوا يُسمَّوْن من قبل نبغوا كعلماء وكانوا جميعا يتقنون اللغة العربية . وكثير من علماء اللغة والفلسفة وعلوم القرآن لم يكونوا عربا ، كانوا يتعلمون اللغة العربية وعن طريقها يتعلمون هذه العلوم وغيرها وينقلونها الى لغاتهم ، ولذلك كانت اللغة العربية هى الاداة الواصلة بين الفكر عموما في مختلف البلدان التى لم تكن تتكلم العربية وبين الفكر الاسلامى .

قلت : احيانا يقول البعض بأن التاريخ يمدنا بما يستفاد منه ان الحضارات التى تندثر لا يمكنها ان تصحو ثانية ، ويسوقون في هذا الاتجاه جملة من الحضارات التى سادت ثم بادت ولم يكتب أو يقدر لها ان تصحو من جديد ، لكن الامر من وجهة نظرى يبدو مختلفا فيما يتعلق بالحضارة العربية الاسلامية ، لاننا نجد فيها بذرة الاستمرار وهى خصوصية معينة - مع عدم التسليم المطلق بأن الحضارة العربية الاسلامية تلاشت - تلك الخصوصية هى المزاوجة الواضحة بين الجانبين : القومى والدينى . . وبين الجانبين : المادى والروحى .

انها حضارة متوازنة لاتنتصر للمادة على حساب الروح ، ولاتطغى فيها الروح على المادة ، اضافة الى ما سبق ذكره من ان الامة العربية امة دعوة ورسالة ، بحيث يمكننا ان نقول : مادامت الامة العربية موجودة فان تجدد الحضارة العربية الاسلامية امر ممكن وربما محقق . من هنا أرى ان ما يحاول البعض وصفه بالمقاييس التاريخية ليس قطعيا فيما يتعلق بهذه القضية .

اننا قلما نجد ان هناك حضارة استطاعت ان تحافظ على هذا التوازن ، واكاد اقول جازما اننا لن نجد شبيها لذلك .

عبد الكريم غلاب :

نعم هذا صحيح تماما ، ذلك لان سر بقاء الحضارة العربية - ولوانها ضعفت في بعض الفترات التاريخية خاصة في العصر الحاضر - ان سر بقائها وسر قدرتها على استعادة مجدها المستقبلى يكمن في

انها قابلة للتطور وقابلة لان تكون حضارة متفهمة ، لانها مثلما نشرت الاسلام نقلت ونشرت العلوم المتعددة : العقلية والعملية .

الاسلام ليس دين فلسفة وطب انه دين وعى وارشاد وتوجيه وهداية .

اذن سر بقاء اللغة العربية ومن ثم الحضارة العربية انها زاوجت بين مفهوم الاسلام وبين المفاهيم العصرية التى عاشتها دائما وفي مختلف مراحل التاريخ .

قلت : الاسلام من حيث المخاطبة هو للبشرية جمعاء ، ومن حيث الاعتقاد هو كذلك للبشرية جمعاء ، لكنه من حيث الدعوة ومن حيث كونه رسالة ينبغى ان تصل الى الناس كافة فانه يدخل من ضمن واجبات الامة العربية ، ومن هنا فان الامة العربية مدعوة لان تمارس هذا الواجب .

عبد الكريم غلاب :

نعم ، هذا من مهام الامة العربية ثم من مهام كل مسلم بحيث لاكهنوتية في الاسلام ، لاوصاية في الاسلام ، لأحد يمكن ان يكون قديسا مثلا او راهبا أو مفتيا أو شيخ الاسلام حتى يبلغ الدين ابدا ، بل وبناء على ما جاء في الاثر ينبغى ان يقوم كل الناس بتبليغ الاسلام .

قلت : عودة الى « الاندلس » وأود هنا ان اشير الى ان ثمة مطبوعات عديدة بدأت تظهر في اسبانيا في اطار الاهتمام والتهيئة للاحتفالات التى ستبلغ الذروة سنة 1992 م . من بين تلك المطبوعات كتاب « سفاراد 92 » . الذى يتحدث عما يسمى « الاثر اليهودى » في اسبانيا ، وهذا الادعاء مقطوع بعدم مصداقيته وصحته تاريخيا من خلال مظاهر الحضارة العربية الاسلامية : لغة وثقافة وعمارة وفنا .

ومع ذلك فان الجانب العربى والاسلامى سيكون امام خيار ين أحلاهما مر كما قال بعض مسلمى الاندلس . يخشى البعض ان ترتبط احتفالات عام 1992 بالذكرى المئوية الخامسة لسقوط « غرناطة » وتسليم ابى عبد الله محمد الصغير مفاتيح الحمراء للكاثوليك الزاحفين من الشمال ، ومن هنا طغت على السطح اشكالية حول المشاركة من عدمها ، اذ ربما توجه الاحتفالات نحو احياء ما من شأنه ان يسىء الى العرب والمسلمين** .

من جهة أخرى هذه مناسبة ربما لن تتكرر بهذا الحجم قبل مرور 500 عام .

الموقف بهذه الصورة لايمكننا من اثارة سؤال محدد . . فقط كل ما يمكن هو استجلاء وجهات النظر .

عبد الكريم غلاب :

أعتقد ان هذه المناسبة تثير شجنا ، وتثير كذلك نقدا ذاتيا : لماذا اخرج المسلمون ؟ ولماذا وصلوا الى هذا الحد الذى طوردوا فيه في كل الاندلس ؟ ولماذا انهارت حضارتهم ؟ لماذا انهارت مقاومتهم للزحف الشمالى الصليبيى ؟ كل هذا يثار في هذه المناسبة الا اننى أعتقد انه ينبغى علينا ان نستغل هذه المناسبة لنبنى صرحا من التعاون الحضارى الجديد .

قلت : ومحاولة ترميم جسور الحوار .

عبد الكريم غلاب :

نعم ، ويجب ان نعى تماما ان الماضى بكل تفاصيله لايمكن ان يعود ولو بقينا نبكى الاندلس طوال حياتنا ، ومن فكر في ذلك فاننا لاننكر عليه هذا الصنيع ولا نصادر أحلامه ، ومع ذلك فان الحديث حيال هذا الموضوع يثيرشجنا ويدفعنا الى نقد ذاتى ، ولكننا لسنا على ما يبدو في عصر النقد الذاتى أو محاسبة النفس فيما يتعلق باحداث تاريخية معينة مضت عليها خمسمائة سنة . نحن نريد ان ننتهز هذه المناسبة لنفتح صفحة جديدة مع اسبانيا مثلا وهى الدولة الكبيرة التى خرج منها الاسلام وهى آخر معاقل المسلمين في الغرب ، ومع فرنسا التى وصل الاسلام اليها .

لنفتح افاق التعاون بين الحضارتين العربية والاوروبية على اسس جديدة . هم يجب ان يلغوا من ذهنهم فكرة الاستعمار وفكرة العنف الصليبي الذى كان سواء في عصره القديم أو الذى تجدد على عهد الاستعمار .

يجب ان نفتح صفحة جديدة اساسها بناء الجسور الحقيقية بين الشعوب ، واساسها كذلك دراسة القدر المشترك بين الحضارتين ، واساسها كذلك التعاون في الميادين العلمية والثقافية .

ولان نتعاون بمبادرات مشتركة أفضل من ان يفرض علينا التعاون من جانب واحد وبعقلية واحدة وباستلاب من عقليتنا ومن ارادتنا .

لذلك فان هذه المناسبة « 1992 م » يجب ان تكون مناسبة للتفكير في بناء مستقبل مشترك مع تلك الدول ولا ينبغى ان نتجاهل ان الجغرافيا تتحكم دائما في المصائر .

نحن كعرب وخاصة في غرب الوطن العربى والعالم الاسلامى لايمكن ان نهرب من ذلك ، التاريخ ذاهب والجغرافيا باقية .

انه لمن الحرى بنا ونحن نفكر في بناء جسر بين افريقيا وأوربا عن طريق المغرب واسبانيا ان نفكر في ان يكون هذا الجسر نفسه جسرا ثقافيا وعلميا وحضاريا .

قلت : قرأت كغيرى ما روى عن « عائشة » والدة ابى عبد الله محمد الصغير آخر امراء بنى الاحمر في « غرناطة » حين قالت له وهو يغادر قصور الحمراء نهائيا : ابك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال ، وعلمت حديثا بأن الجملة لم تكن بهذه الصيغة بل كانت حسب رأى البعض كالاتى : لاتبـك كالنسـاء ملكـا حافظت عليه كالرجال . وهناك من يعلن بأن الكنيسة الكاثوليكية حرفت هذه الجملة وعملت على بثها بصيغتها التى أصبحت متداولة .

عبد الكريم غلاب :

انـا في الحقيقة لا استبعد الرأيين معا ، ولكنه فيها أعتقد ان الجملة « شاعرية وتأثرية » ، والحقيقة انه لم يحافظ على الملك كا لرجال لانه تعاون مع الاسبانيين ، الا انه في الوقت نفسه كان رجلا شجاعا محبا لبلده في بعض الفترات . ومع كل ذلك حدث ما نعرفه جميعا ، الذنب ليس ذنب « ابى عبد الله محمد الصغير » وحده ، ولكنه ذنب المحيط الذى كان يعيش فيه .

تلك المأساة ليست مأساة ابى عبد الله أو « عائشة » وحدهما ولكنها مأساة اجيال سابقة وذلك حينها تمزقت الاندلس الى دويلات بسبب ملوك الطوائف وأصبح في كل جهة مملكة وامارة الامر الذى وصفه « لسان الدين بن الخطيب » بدقة وبطبيعة الحال انهارت الاندلس .

المهم ان الجملة التى قالتها « عائشة » قد تكون صدرت بهذه الصيغة او تلك ، وهى في كل الاحوال عبارة تأثرية ، وبالفعل ما كان لابى عبد الله محمد ان يبكى ، بل كان عليه ان يكون رجلا يتحمل المأساة .

قلت : الم يصل البحث الى نتيجة ولو مبدئية للسبب الحقيقي الكامن وراء عدم بقاء الاسلام في الاندلس ؟

عبد الكريم غلاب :

الحقيقة انه حتى الآن لايمكن ان نجزم الا بما جزم به التاريخ ، والتاريخ يقول بان الصليبية قامت باعمال شنيعة جدا في مقاومة الاسلام .

كانت تمنـع المسلمـين او المـور سكيـين الذين بقوا في الاندلس والمدجنين الذين اختلطوا بالمسيحيين كانت تمنع عليهم التحدث باللغة العربية وتمنعهم من الصلاة .

قلت : رغم العهود والمواثيق .

عبد الكريم غلاب :

نعم ، رغم كل العهود والمواثيق ، وكانت تقتل الرجال والنساء والاطفال ، بل انها كانت

تحرض الابناء على ابائهم مما اضطر البعض الى الصلاة سرا - كما يقول التاريخ - خشية ان يتجسس عليهم ابناؤهم فيبلغون عنهم ، لذلك هناك جيل عاش المحنة ، وجيل رحل الى المغرب العربى عمـومـا ، وجيل آخر بقى يعانى في الداخل حتى انقرض ، الجيل الذى يليه نسى اللغة العربية والاسلام . اما الجيل الثالث فليست له اية علاقة باللغة العربية والاسلام .

الا ان الغريب حقا هو ان بعض الاسبانيين وبعض المثقفين الآن بدأوا يفتخرون بأنهم ابناء ذلك الجيل ، وان اجدادهم ساهموا في هذه الحضارة وانهم - على كل حال - ان لم يستطيعوا اعادة تلك الحضارة فلا اقل من ان يعيشوا على ذكراها .

قلت :- في عام 1987 م خطب ملك اسبانيا معتذرا لليهود ومدينا فترة العاهلين الكاثوليكيين « اى فرديناند وايزابيلا » وما قاما به في حق اليهود من طرد كما قال . لكنه لم يشر الى العرب ولا الى الاسبانيين المسلمين الذين طردوا من بلادهم وديارهم .

ولك مطلق الحرية في عدم التعليق على هذا .

عبد الكريم غلاب :

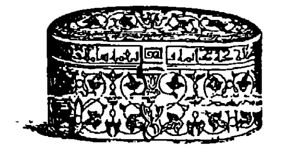
أنا لا ارفض شيئا و لكنى ادلى برايى وعلى الآخرين ان يرفضوه اذا ارادوا .

أنا اعتقد ان الموقف ناتج عن الضغط الذى وقع على اسبانيا من « اسرائيل » بل من حليفتها الولايات المتحدة الامريكية ، وحليفة « اسرائيل » لم تطالب ملك اسبانيا بأن يتحدث عن العرب وانما طلبت منه أن يعتذر للاسرائيليين وقد اعتذر .

---

* القارىء لكتاب « الذخيرة » لابن بسام الشنترينى « ت 542 هـ 1147 م » يلاحظ ان المؤلف جعل الاندلس ثلاثة اقسام : شرق الاندلس « خصص لها مجلدين » ، غرب الاندلس « خصص له مجلدين » موسطة الاندلس « خصص لها مجلدين » .

** سقوط غرناطة كان فى 2 / 1 / 1492 واكتشاف أمريكا « وهو مناسبة الاحتفالات » كان فى 12 / 10 / 1492 م بعد الابحار من بالس Palos فى 2 / 8 / 1492 م





د . ماريا خيسوس بيغيرا

ملامح حضارية متميزة

الدكتورة : ماريا خيسوس بيغيرا « متخصصة فى الدراسات العربية والاسلامية » استاذ كرسى فى الجامعة المركزية فى مدريد باسبانيا ، رئيسة قسم الدراسات العربية والاسلامية بالجامعة المذكورة .

التقيتها وأنا موقن بأن محاورتها ستكون ذات اهمية خاصة ، فهى تجيد اللغة العربية وتتحدثها بطلاقة وحتى لا ادخل فى تفاصيل عدة حول اللغة العربية وكيفية اتقانها لها قالت ونحن فى طريقنا الى احدى قاعات مركز « الدار البيضاء الثقافى » بمدينة « تيرويل » اللغة العربية لغة بليغة جدا ، وعلى الرغم من اننا لا نتحدثها بطلاقة فاننا كمتخصصين اوربيين نحب هذه اللغة كثيرا ، ولقد تعلمتها فى الجامعة المركزية .

والواقع ان اجادة محدثتنا للغة العربية تفوق بشكل واضح مستوى عدد من أبناء لغة الضاد ! .

ولحرصها على عدم نطق أى اسم بشكل غير دقيق طلبت الى اثناء تسجيل هذا الحوار أن اعيد تسجيل اسم احد الباحثين العرب لانها شعرت بأن نطقها لاسمه قد لا يكون دقيقا .

تشعَّب هذا الحوار كثيرا وكنت فى قرارة نفسى أبحث عن البصمات الايجابية للمرأة الاندلسية التى قيل عنها بأنها ساهمت بشكل غريب فى انهيار الاندلس من خلال ما تعارف بعض الباحثين على وصفه بالبذخ وحب الامتلاك الذى كانت تغرسه المرأة الاندلسية فى نفوس ملوك الطوائف .

وللمرة الاولى احتفظ لنفسى ببعض الآراء التى تضمنها هذا الحوار لعدة أسباب من اهمها أن موضوع المرأة الاندلسية سيكون مثار بحث مستقل .

ومن خلال هذا الحوار الذى هو فى بعض اجزائه تكملة لحوار مع الدكتور « محمود على مكى » لمست مدى التقصير أو القصور حيال كمٍ هائل من المخطوطات والوثائق الاندلسية التى لا تزال تنتظر من يوليها اهتماما وعناية ودراسة .

والواقع أن قضية المخطوطات والوثائق والمصادر الاندلسية كانت هى النقطة المشتركة التى

اثارها كل من التقيته من المهتمين والمختصين فى تاريخ الاندلس على المستويين العلمى والرسمى .

ومثلما اتفق المهتمون بتاريخ الاندلس على أهمية هذه القضية لابد من الاشارة هنا الى رأى دقيق قدر لى أن أسمعه - وأنا أناقش جملة من النقاط المتعلقة بالاندلس - من أحد الاساتذة من الجماهيرية ويتعلق بالتنبيه الى أن جزءا من تاريخ الاندلس سيكون نقطة اهتمام « الصهيونية » بهدف استغلاله اذا لم يبادر العرب الى اخذ زمام المبادرة !

عودة الى ضيفة هذه « الاوراق الاندلسية » ودعوة مفتوحة للاهتمام والمشاركة والاثراء .

قلت لها :-

الملاحظ أن الاهتمام بتاريخ الاندلس والتاريخ العربى الاسبانى المشترك بات من الاموراللتى لايخطئها اى مهتم بمثل هذه القضايا ، وهذا الاتجاه يبدو اكثر اتساعا خلال السنوات الاخيرة وأصبح يشمل اضافة الى تاريخ الاندلس القديم التاريخ المعاصر .

د. ماريا خيسوس بيغيرا :

فيما يتعلق بدراسة تاريخ الاندلس فان النشاط العلمى في اسبانيا يتركز بشكل واضح في الجامعات ، وخاصة فى جامعة غرناطة وجامعة مدريد الحرة وجامعة مدريد المركزية ، في كل هذه الجامعات هناك اقسام للدراسات العربية والاسلامية .

ويمكن القول بأنه في اسبانيا الآن ما لا يقل عن 15 استاذا متخصصين في التاريخ الاسلامى وخاصة في الاندلس والمغرب العربى .

هذا النشاط اتسع في السنوات الاخيرة لعدة اسباب وأظن أن النصف الاخير من هذا القرن شهد تبلور وانتشار الثقافة العربية من خلال وسائل النشر ومن خلال القوة المالية العربية ولاننسى نشاط الطباعة الذى أصبح قويا في الوطن العربي كله ، من هنا أصبح الاوربيون على اطلاع واسع على المصادر العربية .

وفيما يتعلق باسبانيا فان نشاطنا في هذا الاتجاه أصبح واضحا وملموسا منذ ما يقرب من 15 سنة ويعود ذلك الى ازدياد عدد المتخصصين الشباب ومن الجيل الجديد حيث بدأنا تقريبا في فترة متقاربة نهتم بهذا الاتجاه من خلال نشر المؤلفات ومن خلال اصدار أربع مجلات ننشر بها جميع ما نكتبه في هذا الاطار .

وفيما يتعلق بآفاق المستقبل فاننى أرى ضرورة القيام بعمل مشترك يهدف الى تكملة تدوين تاريخ الاندلس السياسى وكما تعرف فانه لايوجد في الوقت الحاضر الا كتاب « بروفنسال » عن

تاريخ الاندلس ، وهذا الكتاب انتهى بانتهاء عهد الخلافة في الاندلس « القرن الخامس الهجرى » .

توجد بلاريب بعض الكتب عن تاريخ الاندلس السياسي ولكنها مبثوثة هنا وهناك مما يستدعى العمل على جمعها لتكملة ما لم يكمله « بروفنسال » .

هذا الاتجاه أراه مهما .

ثم علينا اثر ذلك ان نهتم بالتاريخ الاقتصادى والاجتماعي والثقافى للاندلس . . اذن امامنا عمل كبير ومجال بحث واسع .

والحمد لله امامنا مصادر جديدة تكتشف باستمرار ربما في كل سنة يتم العثور على مخطوطات جديدة ومن شأن ذلك ان يساعدنا في مسيرتنا هذه .

ومن خلال المخطوطات التى اكتشفت حديثا خاصة المصادر الفقهية والنوازل والوثائق والفتاوى يمكننا ان نلمس احوال المجتمع الاندلسي بوضوح اكثر .

نحتاج بلا ريب الى تحقيق الكثير من هذه المصادر الجديدة .

قلت : من خلال هذا النشاط ، وهذه المصادر والمخطوطات التى تكتشف تباعا ، ومن خلال دراسة أوجه التاريخ الاجتماعى والثقافى هل يمكن تلمس الوضع العام للمرأة الاندلسية خاصة في مناطق الشمال مثل « اراغون » ؟

د . ماريا بيغيرا :

حسب علمى لاتوجد في المصادر التى اطلعت عليها معلومات كثيرة عن المرأة في الثغر الاعلى « اراغون » ، ولا نستطيع من خلال هذا الوضع تكوين صورة واضحة عن المرأة .

اما بالنسبة لسائر الاندلس فان لدينا معلومات عديدة عن المرأة الاندلسية في المصادر التى أشرت اليها واتذكر من بينها كتاب « المعيار » للونشريسى وهو مصدر متسع ملء بالاشارات والمعلومات عن المرأة الاندلسية . . وهناك أيضا كتاب « نوازل ابن سهل » ونوازل القضاة وفتاوى فقهاء غرناطة .

نحن في البداية نبحث في المجتمع الاندلسى ، ومن ضمن هذا المجتمع « المرأة » .

والى الان فان الدراسات التى انصبت على المرأة كانت فقط من خلال المصادر والمراجع الادبية ، ويبدو أنه من الضرورى الاطلاع على المصادر والمراجع الاخرى حتى نستطيع ان نرسم صورة كاملة عن المرأة الاندلسية .

قلت : المجتمع الاندلسى بما اشتمل عليه من فنون راقية وحضارة تألقت عبر التاريخ ولاتزال محط الانظار ذلك المجتمع لا أعتقد انه كان احادى البناء أعنى لااظن ان كل ملامح المجتمع الاندلسى كانت فقط من صنع الرجال دون النساء .

د . ماريا بيغيرا :

هذا أمر مؤكد ، وفي هذا الاطار ثمة عدة أسماء اشتهرت في عدد من الفنون ومن بينها الشعر ، وللتدليل على مكانة المرأة الاندلسية يكفى أن نشير الى ان ذكر « الخليفة المستكفى » يكون دائما باعتباره والد « ولادة » ولقد قرأت تاريخ « ابن حيان » ووجدت أنه حينما يتحدث عن « المستكفى » يقول عنه « أبو ولادة » وهذا أمر له معناه ومغزاه ويشير بوضوح الى مكانة المرأة الاندلسية المتميزة . . . .

قلت : الاندلس 1992 م . . قضية تشغل بال الكثيرين أود أن اتعرف على ملامح المشاركة العربية في تلك الاحتفالات اعنى ما هو متوقع من العرب حيال ذلك خاصة وان تاريخ الاحتفالات يتوافق مع تاريخ سقوط « غرناطة » . . ولاننسى ان بعض الاراء تتجه الى اعتبار ما حدث سنة 1492 م انتصارا قوميا على المستوى المحلى وعلى مستوى حركة الكشوفات :

د . ماريا بيغيرا :

انا سعيدة جدا لاثارة هذه النقطة ، وأعتقد ان مشاركتكم كعرب هى بالنسبة لعرب الامس وخاصة عرب الاندلس تعنى أنه من الضرورى ان تعرضوا على الاوربيين والاسبانيين ذلك التراث الاندلسى وان تبرهنوا على عمق ذلك التراث وان تذكرونا جميعا بملامحه من خلال المعارض الفنية ومن خلال طبع المخطوطات مثلما نفعل نحن الان في الجامعة وفي المجلس الاعلى للبحوث العلمية حيث قمنا بطبع عدد من المخطوطات والمصادر والمراجع الاندلسية بمناسبة 1992 م .

أعتقد انه من خلال هذه الجهود تستطيعون ان تتحدثوا الى العالم وتقولوا بكل فخر : هذه هى الحضارة الاندلسية من خلال مصادرها .

اظنك توافقنى في ضرورة ان يتحدث العرب الى كل الشعوب من خلال هذه المناسبة .

اننى أطالب دائما بطبع المخطوطات الاندلسية التى تحتاج الى جهد كبير سواء من حيث التحقيق أو الطبع .

سألتها :-

هل هناك تعاون بينكم كمهتمين بالاندلس وبين الباحثين في الوطن العربي ؟

د . ماريا بيغيرا :

نعم التعـاون موجود خاصة مع بعض المراكز العلمية العربية المهتمة بالثقافة الاندلسية ، وهناك عدد من الباحثين يؤدون دورا ملموسا في هذا الاطار خاصة في المغرب والجزائر وتونس ومصر وسوريا والعراق .

قلت : الآن تطلق كلمة « الاندلس » على الجزء الجنوبى من اسبانيا بينما نعرف تاريخيا ان اسبانيا بكاملها او بالاحرى شبه الجزيرة الايبيرية عرفت بالاندلس .

د . ماريا بيغيرا :

« الثغر الاعلى » كان من الثغر الاندلسى المتقدم وهو يقع في الشمال .

قلت : لماذا اذن انحصرت التسمية في الجنوب ؟

د . ماريا بيغيرا :

لانها المنطقة الاخيرة من الاراضى الاندلسية التى بقيت اسلامية تحت سلطة « بنى نصر » في غرناطة والمرية ومالقة علما بأن النصارى اطلقوا اسماء جديدة على الاراضى الاخرى .

قلت : هناك من يقول بأن « الاندلس » مشتقة أو محرفة عن « الوندال » .

د . ماريا بيغيرا :

نعم يقال ذلك .

قلت : ويقال غير ذلك كثير ، انتم كباحثين مختصين هل استطعتم التعرف على التسمية ؟!

د . ماريا بيغيرا :

النقاش لايزال قائما حيال هذا الامر ، ويبدو انك مطلع ومتخصص فى هذا المجال .

قلت : موضحا لا مقاطعا : اننى مهتم فقط .

استرسلت وهى تبتسم : ونظرا لذلك فاننى ربما لن أضيف جديدا ، لكننى اود الاشارة الى تعدد وجهات النظر ، مثلا الاستاذ « بلديه » كتب حول هذا الموضوع مقالين يرجح فيهما وجهة نظر قديمة تذهب الى ان اسم الاندلس لم يأت من « الوندال » هذا مستحيل وانما اشتق كما يقول من كلمة « أطلانطيكوس » اسم الجزيرة المفقودة وكل الاساطير المنسوبة الى « أطلانطيك » في المصادر اليونانية تذهب الى أن جزيرة « اطلانطيك » كانت تقع في بقعة ما قريبة من منطقة « جبل طارق » .

قلت : هذه اسطورة معروفة ومتداولة .

د . ماريا بيغيرا :

وعلى الرغم من انها اسطورة الا اننى اميل الى ان التسمية لابد وان تكون جغرافية . . وهذا يعنى ضرورة فهم اسلوب الجغرافيين العرب ، وأظن ان اسم الاندلس مشتق من اسم « جزيرة اطلا نطيكوس » .

قلت : ترجحين هذا . وربما من قبيل التكملة أضيف ما يقوله الكثيرون من ان كلمة « الاندلس » كانت نتيجة للتطوير والابدال بتقادم الزمن على الكلمة الاساسية « اطلانطيكوس » .

د . ماريا بيغيرا :

نعم ذلك صحيح تماما .

قلت : اننى المس ظاهرة غريبة جديرة بالاهتمام حين نطق كلمة « الاندلس » . . انها في اللغة العربية تبدو وكأنها كلمة تنتمى الى هذه اللغة لايشعر المرء حين نطقها بأنه يلفظ كلمة غريبة ، وذات الامر يحدث حين نطق ذات الكلمة باللغة اللاتينية وستظل هذه الكلمة تثير في الذاكرة شيئا محببا يحوطه الغموض بالنسبة للجميع : العرب والاسبانيين والاوربيين ، انها تشير الى فترة تاريخية وحضارية متميزة مما يسوقنا الى وضع اكثر من علامة استفهام حول ظاهرة شدت - ولا تزال - اهتمام الباحثين في التاريخ العربى الاسلامى الاندلسى وأعنى : اختفاء المسلمين من الاندلس مما جعل عددا من الباحثين يقول : مادخل الاسلام أرضا الا وبقى فيها ماعدا الاندلس :

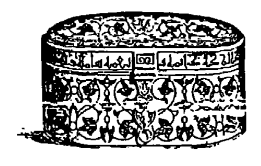
هناك من يحاول تلمس الاسباب في ظاهرة الهجرة الى المغرب العربى ، وهناك من يرجعها الى فظاعة محاكم التفتيش ، وهناك من لايحبذ الخوض في مثل هذا الامر . . وأنت باعتبارك أحد المتخصصين في التاريخ الاندلسى هل لديك ماتساهمين به في هذا الموضوع ؟

د . ماريا بيغيرا :

لقد طرحت على نفسى هذه القضية مرات عديدة ، خاصة عندما أحاضر امام الطلاب في الجامعة عن تاريخ الاسلام ، ولم أستطع تحليل هذه المعضلة الكبيرة والمهمة والمعقدة ، الا اننى اطلعت على رأى يرجح الاسباب الناشئة عن حروب « الاسترداد » ، ثم هناك من يشير الى المنافسة بين مملكة « شارلمان » والاغالبة في تونس والتى لها أثرها في بروز هذه الظاهرة واشار الى ذلك الاستاذ « الطالبى » بشكل ممتاز .

ولقد اثير هذا التساؤل من عدد من الباحثين ، ومن بينهم « شارل مانويل » الذى كتب بحثا حول هذه القضية ، وهناك بحث بعنوان : لماذا الافتراق بين التطور التاريخي في المغرب والتطور التاريخي لشبه الجزيرة الايبيرية للباحث « ارمان أجيل » .

لضيفتنا في هذه الاوراق مساهمات متعددة في مجال اهتمامها بتاريخ الاندلس حيث نشرت خمسة كتب وعددا غير قليل من الابحاث في المجلات المتخصصة ، وهى ذات حضور ملحوظ في مختلف الملتقيات والندوات والمهرجانات التى تنظم في اطار احياء التاريخ الاندلسى .



المدجنون والخيار الصعب

د . باتريك هارفي

مسلمو الثغر الاعلى والذين عرفوا أحياناً بالمدجنين هم في ذاكرة الاندلس حكايا لاتزال تتردد بين الجنبات ، قصص ووقائع وفنون كلها تشير الى أن ماحاول بعض المؤرخين اثباته حول (مغادرة الاسلام للاندلس) ووصف تلك المغادرة بأنها كانت نهائية يحتاج الى اعادة نظر .

لقد اتجه الباحثون العرب ممن فتنوا بالاندلس الى استخراج ملامح التميز والتفرد للحضارة العربية الاسلامية في تلك الربوع ، ويبدو ان تلك الخطوة كانت مهمة في المرحلة الاولى للتعرف على الاندلس من باب الانبهار واستخراج كنوز الفكر والمعرفة والفن .

لكن المهم الآن هو التعامل مع حقائق التاريخ مهما تكن مؤلمة ، وحقائق التاريخ لاتقول بان الاندلس كان غناء وقصورا وعطرا سحريا وثراء وعلما فحسب ، ان تلك الحقائق تقول بأن الاندلس اضافة الى ماذكر كان اضطهادا ودماء ومحاكمات ظالمة قاسية وصليبية لاتقلّ عنفا عن الصليبية التي استهدفت الجزء الشرقي من الوطن العربي .

في الاندلس لم يتعرض المسلمون الى غزو بالمعنى الواضح لهذه الكلمة بل تعرضوا الى ماهو أسوأ وهو ماإصطلح المؤرخون على تسميته بالاسترداد ! وهذه الكلمة ذاتها تتطلب تحليلاً دقيقاً .

الاندلس لم يكن كما قدمه الباحثون العرب .

إنه في الحقيقة كان مأساة تاريخية لا لأننا فقدناه بل لأنه شهد أغرب وأقسى انواع الاضطهاد وهي أمور لم يتجه نحوها الا القليل من الذين يذكرون ذلك عرضا ، بينما يجب ان نتوقف وندرس بدقة وعمق تلك المرحلة الاضطهادية .

واذا كانت اسبانيا الكاثوليكية في القرن الرابع عشر ومابعده اعتقدت بأن من حقها ان تلزم العرب المسلمين بحضارة الاندلس والذين اصبحوا بموجب القانون الطبيعي لتشكل ونمو المجتمعات جزءا لايتجزأ من التركيبة الاجتماعية الاندلسية لاسباب عديدة من أهمها التزاوج الذي نشأ بناء عليه مجتمع اندلسي اختلطت فيه الانساب ولم يعد بالمستطاع الجزم بأي شكل بصحة الدعوى الكاثوليكية آنذاك . . اذا كانت اسبانيا الكاثوليكية في ذلك الوقت اعتقدت بصحة ما أقدمت عليه

بسبب التعصب العنصري فانها لم تكن تملك أية حجة حيال الاسبانيين المسلمين الذين شكلوا كل الاندلس ، وهؤلاء لم يضطهدوا بسبب جنسهم وعرقهم بل بسبب معتقدهم .

وفي كلا الحالين فان اسبانيا الكاثوليكية في القرن الرابع عشر ارتكبت عملا عنصريا .

من جانب كونها قامت بطرد العرب المسلمين .

ومن جانب كونها قامت بطرد الاسبانيين المسلمين ومحاكم التفتيش التي بدأت محاضرها وأوراق جمع استدلالاتها واحكامها ترى النور حديثا تقدم اكثر من دليل على عمق التعصب العرقي والديني .

وفي محاولة للاقتراب من هذا الواقع يتحدث الاستاذ الدكتور / باتريك هارفي من جامعة لندن عن نقطة واحدة يحاول أن يقترب منها حينا ويحاول ان يبتعد عنها حينا آخر ، ولعل السبب في ذلك يعود الى الواقع الذي تم فيه هذا الحديث .

وليس من نافلة القول الاشارة الى ان لاستاذنا الدكتور / أمين الطيبي اليد الطولى في ترتيب هذا اللقاء القصير والذي كانت لمداخلاته قيمة وأهمية لاتنكر ، مع ملاحظة ان جزءا من الحوار فقط هو الذي سيطالعه القارىء الكريم في هذه الورقة الاندلسية ، اما الجزء الذي لم ينشر فهو يتعلق بموضوع يحتاج الى تدقيق مهم لانه يتعلق بالأسر الاندلسية التي طردت من أرضها وانتشرت في كل ارجاء العالم وخاصة في منطقة المغرب العربي من مراكش الى طرابلس .

انطلق الحوار ، أو بدأ الحديث من نقطة اعتبرت ولاتزال اشكالية غامضة . . . وهي لماذا لم تبق وبشكل واضح صور الحياة الاسلامية في الاندلس ؟!

د . باتريك هارفي :

المشكلة الرئيسية الاولى التي عانى منها المسلمون القاطنون في المناطق الآهلة بالمسيحيين هي البقاء من عدمه في هذه المناطق ! وذلك لأنه تناهى اليهم ان بعض الفقهاء اصدروا فتوى تحث المسلمين على ضرورة مغادرة المناطق الآهلة بالنصارى ومن ثم العيش بجوار اخوتهم المسلمين في المناطق الاسلامية .

وبحوزتنا عدة نصوص من فتاوى أصدرها الفقهاء المغاربة تدعو المسلمين الى عدم البقاء في ارضهم (أو ارض النصارى كما عرفت) .

على الرغم من كل ذلك فان الكثير من المسلمين لم يأبهوا لتلك الفتاوى التي تحثهم على المغادرة ، وآثروا البقاء في الاراضى التي يحكمها النصارى ، وفي هذا الصدد أسرد عليك قصة أحد

المسلمين الذين آثروا البقاء في ارض النصارى وهو مسلم من (مارفيليا Marbella) منطقة ساحلية بالقرب من مالقة هذا الرجل اختار البقاء لأن أخاه كان مسجونا من قبل النصارى . لذا قرر الاخ بسبب اجادته للغة الاسبانية وبصفته محاميا بارزا الدفاع عن اخيه حتى تمكن من اطلاق سراحه ، ربما لايكون هذا مهما والاهم هو الاجابة عن هذا السؤال : هل يبقى هذا المسلم في هذه المنطقة أم يغادرها بعد أن رأى المعاناة فيها ؟ خاصة وان مسلمي تلك المنطقة في أمس الحاجة اليه ليدافع امام المحاكم .

لكن الفتاوى التي كانت لاتجيز بقاء المسلمين في (أرض النصارى) جعلت الامر اكثر تعقيدا هذا بشكل عام . ولم يكن أمامه الا ان يطلب الرأى في وضعه فأتاه الجواب من بعض فقهاء المغرب والذي يقول بأنه لاداعى لبقاء المسلمين في ارض النصارى .

مع كل ذلك بقى العديد من المسلمين ، وليس من حقنا كباحثين ان نسقط عنهم صفة الاسلام لانهم اصروا على البقاء في اراضيهم التي ولدوا بها بالرغم من انها اصبحت تابعة للنصارى . أذكر هذا لأدلل على مدى حاجة الناس الى من يعلمهم مايتعلق بالواجبات الدينية في منطقة بدأت تفقد صلتها بالعالم الاسلامي .

سألته : هل يمكننا ان نتعرف على الفترة الزمنية التي وقعت فيها هذه الاحداث وفي أية منطقة بالتحديد ؟

د . هارفي :

تلك الاحداث وقعت في فترة زمنية مبكرة ، وبالتحديد في اوائل القرن الخامس عشر في مكان قصي من شمال اسبانيا .

المهم أن اذكر ان المسلمين في تلك البقاع الشمالية كانوا في أمس الحاجة لمعرفة المزيد من المعلومات الخاصة بدينهم الحنيف . لقد كانوا جميعاً تواقين الى المعرفة حتى يتمكنوا من اداء واجباتهم الدينية على أحسن صورة ودون ان تشوب أداءهم للشعائر أية شائبة .

ان هؤلاء المسلمين المنبثين في مختلف المناطق الاسبانية وبمرور الزمن فقدوا القدرة على المحافظة على اللغة العربية وكان عليهم في المقابل ان يتعلموا اللغة الاسبانية ، هذا الواقع وضعهم امام اشكالية كبيرة وهي : هل يجوز لهم القيام بالفروض والواجبات الدينية باللغة الاسبانية خاصة الصلاة وقراءة القرآن الكريم ، وأصبح هذا السؤال وغيره شغلهم الشاغل ، اضافة الى واقع جديد بدأ يفرض نفسه يتعلق بالجيل الجديد : كيف سيتعلم هذا الجيل الفروض الدينية ؟ وهل يجوز لهم

التعامل باللغة الاسبانية ؟ وهل يمكنهم من خلال هذه اللغة معرفة مايريدونه ؟

هؤلاء المسلمون لم ينسوا واجبهم ، وحاولوا ترجمة معانى القرآن الكريم الى الاسبانية ، ويمكننا ان نقول بأنهم كافحوا في هذا المجال سنين عديدة وقوبلوا خلال ذلك بمواجهة شرسة من قبل النصارى والذين لايروق لهم ذلك العمل .

في منتصف القرن الخامس عشر وفي منطقة قشتالة وبالتحديد في بلدة شقوبية كان هناك عالم جليل هو (عيسى بن جابر) كتب عدة مؤلفات ربما اشهرها « ملخص واجبات المسلم » وهذا الكتاب عرف سبعة اسماء مختلفة منها « كتاب كيدوريانو » و « كتاب شقوبية » أي نسبة للبلدة المذكورة .

هذا الكتاب اصبح مهما جدا ، وتوجد منه الآن 7 نسخ فقط وبالتالي أصبح من الممكن نشره ومن ثم الاهتمام باعمال هذا الرجل ، وثمة دلائل كثيرة تشير الى اهميته الثقافية وانه كان مرجعا مهما في العديد من القضايا ، والاهم من كل ذلك ان (عيسى بن جابر) هذا قام بترجمته الى الاسبانية وبالتحديد الى « القشتالية » ومما لاشك فيه ان مسلمي المنطقة قد استفادوا كثيرا منه ومن امثاله خاصة فيما يتعلق بالامور الدينية .

قلت : في ظل هذه الوقائع كيف كان المسلمون في هذه المناطق الشمالية يمارسون الشعائر الدينية خاصة في ظل الوضع الجديد ؟

د . هارفي :

مع الاخذ في الاعتبار مختلف الظروف التي احاطت بهم فانهم حافظوا على دينهم في فترة حرجة ، وهو وضع استمر من القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر في تلك الفترة كانت الشعائر الدينية تمارس سرا ، ثم اصبحوا يؤدون شعائرهم علنا وأصبحت لهم مساجد عدة في كثير من مناطق اسبانيا .

اصبح وضعهم عاديا جدا ، بدأوا يدفعون الضرائب شأنهم شأن بقية المواطنين سواء كان ذلك في (اراغون) أو في غيرها ، وبشكل تقريبي يمكن القول بأنهم في وضع يشبه وضع أهل الذمة ، لكن الامور في نهاية الامر تغيرت تماماً وانعكس الوضع بشكل حاد .

وبين ايدينا الآن عدد من الوثائق المهمة التي تعطينا معلومات تفصيلية عن المسلمين بعد القرن الرابع عشر ، ومنها وثيقة من (اراغون) تقول بأن (ملك نبارة) وهي مملكة صغيرة في الشمال طلب

في رسالة موجهة منه الى جاره (ملك اراغون) توفير الأمان لسفر ستة اشخاص من الرعايا المسلمين لتأدية فريضة الحج .

ان هذه الوثائق التاريخية مهمة وممتعة لانها تمكّننا من تقليب صفحات التاريخ بشكل واضح . وتضيف تلك الوثيقة بأن عدد المسلمين كان قليلا جدا في (مملكة نبارة) .

أما سبب المعاملة الحسنة التي كان يلقاها المسلمون هناك فانه يعود الى الخدمات الجليلة التي كان يقدمها المسلمون (لملك نبارة) من بين تلك الخدمات قيامهم بمهام تدريب قوات (مملكة نبارة) .

قلت : بعد سقوط غرناطة عام 1492 م وجد المسلمون انفسهم امام خيارين احلاهما مر : إما الرحيل عن بلادهم واما تغيير دينهم ثم بدأت أخبارهم تتلاشى ، لكن المعلومات التي اكتشفت حديثاً من خلال الوثائق والمخطوطات تمدُّنا بصور شتى . . كيف ترون الفترة التي اتت إثر سقوط غرناطة ؟

د . هارفي : وضع المسلمين يختلف حسب توزعهم في المناطق الاسبانية فمثلاً بعد الاجتياح النصرانى لغرناطة بقى المسلمون هناك فترة قصيرة لم تتعد ثماني سنوات ، ثم بدأت النوايا المسيحية تظهـر جليـا ، حيث طلب من المسلمـين أحـد الامـرين (كما اشرت) اما ان يتخلّوا عن دينهم (يتنصروا) أو ان يرحلوا قسرا عن ديارهم . حدث ذلك ايضا لبقية مسلمي المناطق المتاخمة لغرناطة مثل : اراغون وبلنسية وقطالونيا اعتبارا من عام 1520 م .

بعـد هذه السلسلة من المحن من بقى من المسلمـين أصبحـوا يعـرفـون بالموريسكيين اي (نصارى) على الاقل ظاهرياً كستار لبقائهم في بلادهم ، ان من الاوصاف التي اطلقت على هؤلاء كونهم (مسلمين نصارى) .

قلت : اعتقد ان الامور بدأت تتداعى منذ ذلك الوقت .

د . هارفي : نعم وبشكل واضح تماماً .

في اسبانيا اليوم هناك من يعلم بأنه ينحدر من الاسر التي عرفت بالمدجنين ، وممن أعلن لنا ذلك راعي كنيسة تيرويل (أو طرويل) كما عرفت قديما ، قال ذلك باعتزاز ظاهر وهو يشير الى الفن المدجن في مدينة (طرويل) .

★ د . بات هارفي .

- استاذ انجليزي دكتوراه حول (الاعجمية والمدجنون) سنة 1958 م ، جامعة اكسفورد .
- ليسانس باللغة الاسبانية من جامعة اكسفورد .
- ليسانس في اللغة العربية من جامعة اكسفورد .
- أستاذ فى اللغة الاسبانية بجامعة لندن .
- رئيس دائرة اللغة والادب الاسباني بجامعة لندن .
- استقال من الوظيفة سنة 1983 م ليتفرغ للبحث العلمي .
- له عدة ابحاث ومقالات ويبحث في تحقيق الوثائق ذات العلاقة بالاندلس ، خاصة فيما يتعلق بالمدجنين .



د . مارجريتا سرانو

فقدنا العادات العربية

طيلة الاقامة فى مدينة « تيرويل » وخلال فترة الظهيرة ولمدة لا تقل عن ساعتين كانت الطبيبة « مارجريتا سرانو » حاضرة سواء بمداخلاتها أم بنتائج الابحاث فى التغذية والغذاء الاندلسى .

وذات ظهيرة قال أحد المترجمين الفوريين تعليقا على المحاضرة اليومية عن الغذاء الاندلسى « اذا كانت كل وجبة غذائية ستأخذ منا كل هذا الجهد فان الجوع سينتصر لا محالة » كانت مداعبة قبلت منه فى حينها .

كنا نلتقى لنستمع أولا الى شرح عام حول الوجبة الغذائية المراد تقديمها ، ثم يبدأ الطهاة فى اعداد نموذج للتذوق ، ثم يبدأ حوار حول طريقة الاعداد والمقادير ، ولا ضرر من الاشارة الى ان نساء تيرويل وغيرهن من متتبعات ايام مهرجان « اراغون تعيش تاريخها » كن حريصات على فهم كل شىء تقريبا .

لذلك كانت وجبة الغذاء لا تبدأ قبل مرور ساعتين من الشرح والاعداد والمناقشة .

واذكر أننا كنا لا نجد حرجا فى ابداء تعليق أو انتقاد تعقبه ابتسامات جماعية ، قال أحدنا : كان لابد من أن نطلب تأمينا على الحياة مادمنا نتناول وجبات يتم اعدادها من كتب التاريخ .

والحقيقة أن كل من تذوق وجبات الغذاء الاندلسى أبدى استحسانه وتمنى الجميع أن يحفظ ويدون طريقة اعداد تلك الاكلات ، لكن فتيات « تيرويل » كن الاحرص على ذلك . . وما علينا نحن ضيوف « تيرويل » الا أن نتذكر تلك الوجبات حين تذكرنا لتلك الايام !

انتهت ايام « اراغون تعيش تاريخها » وتفرق الجمع كل الى حيث يريد ، وفى مدريد التقيت الطبيبة « مارجريتا سرانو » ، ولا شك أن الغذاء الاندلسى كان حاضرا من حيث كونه موضع حديث ، وللتدليل على ذلك خصصت الاذاعة المرئية الاسبانية جزءا من وقتها لهذا الموضوع .

التقينا لنواصل حوارا بدأ منذ اكثر من اسبوع ، وكانت « إليس » المصورة أثناء أيام المهرجان ترافقها وتدلى فقط بملاحظات عابرة ، اما الزميل خليل حسن صدقة فكان مضطرا للحديث باعتباره ممن يتقنون لغة ضيفة هذه الاوراق . . قالت الطبيبة « مارجريتا » :

انني كسيدة غربية عاشت في مجتمع مادي بحت فان من اهم ماشد انتباهي واثار اهتمامي بالاسلام هو نظرته الشمولية للفرد ، وغني عن القول ان (الغذاء) يعكس بشكل واقعي الكثير من العوامل التي تساعدنا في التعرف على ملابسات الحضارة بكافة او جهها السياسية والاقتصادية .

اقول ذلك منطلقة من ادراكي العميق لما يعاني منه المجتمع الغربي من (تخصصات) أفقدت الانسان القدرة على الرؤية بوضوح . والمجتمع الغربي ينظر الى الانسان على انه مجرد (حيوان ذي اهمية فيزيولوجية) ، وهذه النظرة « غير الشمولية » ادت الى خلق امراض جديدة يعيشها المجتمع الغربي .

وعلى سبيل المثال ثمة عدة امراض ازدادت انتشارا ، ولها علاقة وطيدة بالتغذية ، واعني بذلك : مرض الاعصاب الذي تعاني منه الفتيات في المجتمع الغربي حيث لوحظ انهن يفقدن الشهية ويمتنعن عن الاكل ، ويتقيأن كل ما يأكلنه ، وغالبا ما تنتهي الحالة الى الضعف العام والوفاة . وهذا المرض لاعلاج له في الطب الحديث ، وله عواقب وخيمة على المجتمع الغربي الحالي ، ولقد حاولنا التعمق في تحديد ودراسة اسباب هذا المرض ، واعتقد شخصيا باننا سنتوصل الى نتائج مثيرة تتفق الى حد بعيد مع فلسفة الاسلام في الغذاء .

وبناء على ذلك اعتقد بأن الحاجة ماسة الى التعرف على كل مظاهر الثقافة الاسلامية التي تخدم مصلحة الانسان ، ولا يجب ان نلغي الجانب العلمي من هذه الثقافة .

قلت للطبيبة مارجريتا :

أعلم ان تخصصك الاساسي هو امراض النساء والولادة ، ولذا اتمنى ان نسمع رايك في اهم المعضلات في هذا الجانب وعلاقة هذه المعضلات بالدراسات التي تتم حاليا والتي تحاول ان تتلمس الحلول من خلال مايقرره الاسلام .

قالت : في مجال تخصصي وهو (الطب النسائي) لوحظ في السنوات الاخيرة ظهور وانتشار اعراض مرضية جديدة منها :

العقم ، ازدياد الاجهاض الطبيعي ، رفض الامومة لاسباب نفسية ناجمة عن حاجة المرأة للعمل خارج بيتها ، مما ادى الى ضرورات مستجدة لايمكن ان تتمشى مع ظروف الامومة . . ونتج عن ذلك ازمة نفسية خطيرة .

كما ان ازدياد (الانحلال الخلقي في المجتمع الغربي) ادى الى تفشي امراض يصعب التغلب عليها حيث اصبحت أمراضا مزمنة تؤدي غالبا الى فقدان الحاجة الطبيعية الى (الجنس) والنتيجة

النهائية هى : العقم .

اما بالنسبة لعملية تربية الاطفال فهناك ظاهرة عدم تأقلم الاطفال مع الجو المدرسى ، وهذا ناجم عن فصل الطفل فى سن مبكرة عن امه بايداعه دور الحضانة مما يؤدى الى نقص فى النمو والتطور النفسى . . والنتيجة هى ظهور امور غريبة وامراض نفسية تتمثل فى فقدان الاطفال المقدرة على فهم مايقرأون . . وهو أمر ملموس فى المجتمعات الغربية وهذا الامر اظهر الحاجة الى توظيف طبيب نفسانى فى كل مدرسة .

ولا تخفى على احد تلك الاضرار التى قد تترتب على مثل هذه الامراض فى سن مبكرة والتى باتت تقلق المجتمع الغربى . . لقد لاحظ المدرسون بان النوع الذى اشرت اليه من الاطفال يتميز بكل وضوح عن الاطفال الذين تلقوا تربية عائلية . حيث تبدو على الاطفال الذين يودعون دور الحضانة مظاهر العنف ، وفقدان الثقة بالنفس ، وعدم القدرة على التركيز او ابداء الاهتمام اللازم بما يحيط بهم ، والغضب .

لذلك اعتقد بان اسلوب التربية والتعليم الحالى ضار بالمجتمع الغربى ، ولعل من اهم النتائج التى نلمسها بناء على ذلك ازدياد معدل الجريمة فى المجتمعات الغربية .

قلت : افهم من هذا ان الامور الطبيعية هى التى يحتاجها الانسان فى هذا العصر . . بمعنى ان القانون الطبيعى المنسجم مع حكمة الله فى خلقه يجب ان يظل سائدا ، لذا فما رأيك فى المجتمع الاندلسى باعتبارك تشرفين على ادارة فريق من المختصين فى بحوث التغذية فى العهد الاندلسى كيف ياترى كان (الغذاء) الاندلسى من حيث ارتباطه بالطبيعة غير الصناعية ؟

قالت : الوجبات الغذائية التى كانت سائدة فى الاندلس تنقسم الى قسمين :

الوجبات الغذائية عند الطبقة الارستقراطية والتى لم تكن تتمشى فى معظم الاحيان مع التعاليم الدينية .

الوجبات الغذائية التى كانت متفقة مع ماقرره الاسلام واوضحه الرسول صلى الله عليه وسلم .

تلك التعاليم التى لم تكن تميل الى التعقيد ، والتى كانت تدعو الى (غذاء) متوازن يتألف فى الغالب من الفواكه والحبوب .

واود هنا ان اتحدث عن موقف شغل بال الكثيرين ، وهو الموقف من الغذاء الذى يتكون من (اللحم) .

روى ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : بان أكل اللحم يوميا يزيد القلب قساوة ، وهذا ماثبت علميا ، حيث اجريت عدة تجارب فى عدد من السجون بحيث اعطى بعض السجناء وجبات غذائية تتألف من الخضروات واعطى آخرون وجبات تعتمد على اللحوم ، وكانت النتيجة برهانا على صحة قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث تأكد الباحثون بان من تناولوا وجبات غذائية من الخضار هم اشخاص هادئون ، اما الذين اعتمد غذاؤهم على اللحوم فقد برهنوا على مزيد من العنف والرفض .

ان ضرورة التوازن فى الوجبات الغذائية بين المواد الحيوانية والمواد النباتية شيء اساسى ، وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم التى كانت تدعو الى هذا التوازن قولا وعملا لم تتناقض مع الحقائق العلمية ، بل ان كل البحوث فى هذا المجال تبرهن على ضرورة الاقتداء والسير على منهاج الرسول صلى الله عليه وسلم .

ان التوجيهات النبوية المتعلقة بعدم الافراط فى الاكل من شانها ـ ان هى روعيت ـ ان تحول دون تفشى العديد من الامراض وفى مقدمتها « مرض تصلب الشرايين » وماله من مخاطر على القلب .

الاسلام (ومن خلال نظرته الشمولية للانسان) لم يغفل مثل هذه القضايا التربوية . انه حينما يدعو الى التصرف برصانة والامتناع عن الاكل فى بعض الحالات لم يفعل ذلك عقابا من الله للانسان كما يدعى المسيحيون . . انه فى الحقيقة يقدم التعاليم التى تعود بالنفع والفائدة على الانسان ويوجهه الى الطريق المستقيم .

تعاليم الاسلام هى لمصلحة الانسان ، اذا لم يتمسك هذا الانسان بها فالنتيجة الحتمية هى وقوعه فريسة للامراض .

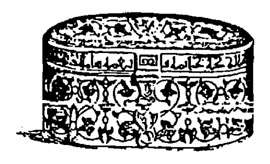
قلت : يلاحظ ان الاندلس باق فى الذاكرة وباق بمعالمه ، واظن انه باق ايضا من خلال بعض العادات والتقاليد . . والواقع ان لا احد بامكانه ان يسقط الاندلس من التاريخ ومن الحاضر فهو بتميزه وتفرده واحد من اهم الاقاليم التى اسبغ عليها العرب والاسلام فضل البقاء . . ولذا قالت الطبيبة مارجريتا سرانو فى خاتمة حديثها :

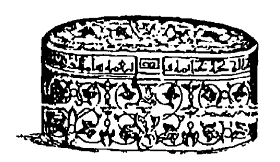
فى مراحل متأخرة بدأت اسبانيا توجه نظرها الى اوروبا ، مما ادى الى تفشى امراض هذه القارة

فى المجتمع الاسبانى الذى كان خاليا منها حتى عهد قريب قبل ذلك ، فكرم الضيافة كان ميزة شائعة فى اسبانيا ، وهو امر افتقدناه الان .

الكثير من العادات والتقاليد العربية فقدت . . هناك العديد من العناصر الغذائية التى لاتزال مستعملة حتى الان .

ولحسن الحظ هناك عودة الان الى مراجعة هذه المرحلة من تاريخ الاندلس العربى الذى جرى التعتيم المتعمد عليه ، والان بالامكان دراسة هذه المرحلة .





أندلسيون : نعم

عميد بلدية تيرويل « طرويل »

في احدى قاعات « الدار البيضاء » اسم المركز الثقافى بمدينة تيرويل كان لنا لقاء مع عميد البلدية في أول لقاء له مع الصحافة العربية :

س :- الذى يتبادر الى الذهن يتعلق باحساس المواطن في هذه المدينة عندما يرى هذه الآثار العربية الجميلة ؟

جـ :- يمثل الفن الموجود بهذه المدينة جزءا هاما من حياتها ، واعتقد بانه معروف من قبل الجميع ، والمواطن العادى ينظر الى كل ما حوله على انه ثمرة لفترة طويلة من التعايش بين شعوب عديدة ، ساعدت في تطوير وخلق هذه الحضارة . كما ان المواطن يشعر بنوع من الحزن لان هذه الحضارة التى سادت في بلده قد وصلت الى طريق مسدود ، ونحن الآن نسعى الى تحطيم هذا الجمود الذى تعاني منه .

س :- هل هناك اعمال في طور التنفيذ او الاعداد حول تاريخ المدينة ؟

جـ :- بالفعل ، لقد عقد في هذه المدينة اللقاء الثالث الذي يتعلق بالفترة المدجنة كمحاولة لمواصلة البحث والتدقيق في تلك الفترة ، وهذه اللقاءات تعقد مرة كل ثلاث سنوات لاتاحة الفرصة لمزيد من الدراسات العلمية القيمة ، وهذا يعني اننا في هذه المدينة نواصل البحث في الماضى وسنعمل على استمرار ذلك . كما ان هناك مجموعات عديدة تعمل في هذا المجال سواء على مستوى المدينة « تيرويل » او على مستوى العاصمة سرقسطة وباعتراف منظمة اليونيسكو بان هذه الآثار المدجنة هى ثروة للانسانية قد تلقى هذا الدراسات دفعة جديدة وهامة .

س :- هل قمتم باية حفريات او ابحاث في هذا الصدد ؟

جـ :- لم نقم حتى الآن بعمليات حفريات بحثاً عن مخطوطات او آثار محددة الجهود التى بذلت في هذا الصدد تقتصر على تحليل ودراسة للآثار القائمة الموجودة فوق السطح .

س :- هل هناك خطط لصيانة الفن المدجن في المدينة ؟

جـ :- لقد تمت الموافقة على خطة شاملة لاصلاح مركز المدينة التاريخي ، وتجدر الاشارة الى

عدة امور اهمها ان مركز المدينة القديمة لم يتعرض للتغيير بل بقى الى حد ما على ما كان عليه ، الا ان التطورات المعمارية الحديثة القت بظلالها على المدينة وهى تتطلب ايضا جزءا من الصيانة ، والخطة المذكورة تحاول تحقيق التوازن بين الحاجيات الماسة للمساكن ، والمحافظة على طابع المدينة القديم .

س :ـ هل هناك توجه شبابى ذاتى في المدينة لمحاكاة هذا الفن المتميز ؟

جـ :ـ اعتقد بان ذلك مرهون بمستويات ثقافية ، وارى بان المراكز التعليمية تنظم الان مجموعات شبابية لتشجيعهم على العمل في هذا الصدد ، لاظهار الفن الذي تمتاز به المدينة وتعريف الشباب به وانوه في هذا المجال بان الشباب يلمون جيدا بالفن المدجن ، اما الكبار فهم يجهلونه تقريبا على الرغم من كبر سنهم وتجربتهم ، هناك حملات في هذا المجال ، ويشعر السكان باهمية المدينة القديمة الآن واستطيع القول بأن السكان الذين نزحوا من مركز المدينة بحثا عن حيز اوسع للعيش قد بدأوا بالعودة بشروط افضل .

س :ـ لاحظنا خلال تجولنا في المدينة مظاهر الترحاب بالمشاركين في هذا الملتقى والاهتمام بهم فهل تملك سلطات البلدية خططاً مستقبلية لتنمية هذا الشعور بالتعاون مع الوطن العربى ؟

جـ :ـ لقد تركزت في العديد من المناسبات على أن الخاصية التى تميز سكان هذه المدينة ، هى كرم الضيافة وهذا ما يستطيع اى انسان ان يلاحظه بعد وصوله الى المدينة مباشرة ، كما ان بلدية المدينة قد بدأت عدة مشاريع بهدف اظهار صورة هذه المدينة في الخارج بشكل ايجابى وبذلك فنحن نقوم دائما باقناع السكان بان هذه القضية هامة وضرورية . وهذه هى الخطوات الاولية في هذا الصدد ، صحيح ان المدينة ربما تعانى من نقص في الضروريات التى يتطلبها مثل هذه العطاءات الا اننا نسعى الى تجاوز ذلك بالحماس والجهد وسنواصل العمل في هذا المجال .

س :ـ الا توجد اثار للمساجد خاصة في مناطق الابراج الموجودة حاليا ؟

جـ :ـ يعود تاريخ هذه المدينة الى القرن الحادى عشر ولم يبق من تلك الفترة الا القليل مثل بعض الحمامات . اما بالنسبة للابراج والتى شيدت على مقربة منها المساجد كانت ايضا مواقع للعبادة خلال العهد الاسلامى .

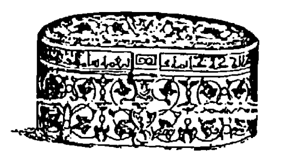
س :ـ تعرف الاندلس في الماضى بانها تضم جغرافيا شبه الجزيرة الايبرية بالكامل ، اما التاريخ المعاصر فالتسمية تقتصر فيه على منطقة محددة فما رايك في شمول الاندلس لمدينة تيرويل ؟

جـ :- نحن نعلم بان التـأثر الاندلسى في تيرويل هام جدا ، ونحن عندما نراجع تاريخنا القديم نشعر بالميول نحو الجنوب اى نحو الاندلس اكثر من توجهاتنا نحو الشمال .

س :- هل سبق للصحـافة العربية ان زارت هذه المنطقة ، ومن خلال هذا الحديث ماذا تودون ابلاغه للمهتمين بالاندلس ؟

جـ :- اننى سعيد جدا بهذه الفرصة وهذا الحوار الاول مع صحافة عربية وفي هذا المجال اريد التأكيد على الانطباع الذى تمكنتم انتم من الخروج به وهو ان هذه المدينة ترحب بالجميع ، **وسكانها يستقبلون الزواربصدر رحب ، كما انها تملك كنوزا فنية هامة وادعو اؤلئك الذين ياتون** لزيارة اسبانيا أن يضموا مدينة ترويل الى برنامج زيارتهم لاهميتها ليس فقط في ارغون بل وفي اسبانيا ككل .






شعيب محمد عبد الرحمن

عودة الاسلام الى الاندلس أمر حتمى

شعيب محمد عبد الرحمن ، العمر 32 سنة ، أعمل في صناعة الخزف .

منذ 6 سنوات مضت كنت مسيحيا . . وكنت أبحث بعمق عن الرسالة التى بشَّربها « عيسى » عليه السلام ، الاانني لم أجدها في التعاليم الكنسية رغم انها مبثوثة في بعض الاناجيل مثل « انجيل برنـابـا » . . واطلعت بطريقتى الخاصة على عدد من التعاليم عن الصيام وعدة احكام أخرى . واطلعت على جملة من الحقائق التى لم اكن على علم بها حين كنت اتبع الكنيسة الكاثوليكية .

كنت اصوم حسب الاحكام الانجيلية وكنت اعتكف للعبادة ، لكننى في الواقع كنت اشعر بأننى افقد شيئا ما . . تساءلت عن كنه ماكنت في حاجة له . . وهو الامر الذى بدأت في البحث عنه .

كنت أقيم في مدينـة « مُرسيـة » وأعمل مدرساً ، ثم سمعت عن « مسلمى غرناطة » . . استقلت من وظيفتى وقدمت الى غرناطة ، تعرفت على « مسلمى غرناطة » بقيت مدة معهم ، وعن طريقهم عرفت المعنى الصحيح للصلاة والصيام ، واحسست بأننى اهتديت الى ما كنت أبحث عنـه . . ثم اشهـرت اسلامى واخترت الاقامة في غرناطة ، أعمل بمصنع اسسته صحبة بعض المسلمين في مجال صناعة الخزف .

جميع افـراد اسرتى الصغـيرة مسلمون ، زوجتى أسلمت في نفس اليوم الذى اشهرت فيه اسلامى ، أبنائى أطفال صغار 7 و 8 سنوات متمسكون بتعاليم الاسلام ويحفظون بعضا من القرآن .

كان اللقاء بالاخ « شعيب » في بيته الذى يعود الى القرن الثامن عشر ، الوقت كان يقترب من منتصف الليل ، ومن نافذة بيته يبدو « قصر الحمراء » تنعكس على جدرانه الاضواء لتحيله الى قطعة فنية رائعة تضفى على غرناطة تميزا قلَّ ان تخطئه العين .

حدثته عن الاحساس الذى غمرنى حينما ارسلت بصرى لارى « الحمراء » من نافذة بيته وسألته ان كان مثلى يشعر بعمق اللحظة رغم انه ربما يكون معتادا على منظر كهذا . . أجاب وهو

يرسل بصره صوب « الحمراء » :

كلما أطل على قصر الحمراء أتذكر تلك الايام التى كان فيها المسلمون فى هذه الربوع ، واتذكر ذلك العصر الذهبى للاسلام فى هذه الديار . . .

قلت وانا مشدود رغم انفى الى (ماض عريق) : ألا يعنى ان ثمة خصوصية لانبعاث الاسلام من جديد فى غرناطة ؟ أجاب :

ان انبعاث الاسلام من جديد فى الاندلس وهنا فى غرناطة بالذات قضية لا مفرَّ منها . . كيف لا وانت أنَّا ذهبت فى (غرناطة) وجدت الاسلام يناديك . تحت كل قطعة حجر، دليل على ان الاسلام كان هنا . . ولذا فان عودة الاسلام من جديد أمر لابد منه ليس فى غرناطة فحسب بل فى كل الاندلس .

الاندلس كانت من أهم معاقل الاسلام وخطه الامامى ، وغرناطة مدينة اسلامية . . ومن البديهى ان يعود الاسلام من جديد الى مكانه الطبيعى ، ولا غرابة فى ذلك .

قلت : ولماذا فى هذا الوقت بالذات ؟ قال الاخ (شعيب) :

فى القديم كانت هناك تحفظات حول كل ما هو اسلامى ، وكانت هناك رقابة صارمة تفرض على الاسلام والمسلمين ، لكن الامر الان يختلف ، هناك تسامح ملحوظ . . ولذا انبعث نور الاسلام من جديد فى ربوع غرناطة بالذات وباذنه تعالى سيعم كل ربوع الاندلس .

وفيما نحن نتحدث عن بعض التفاصيل التاريخية حضر احد ابناء الاخ / شعيب ، وكأنى بدخوله العفوى والقائه التحية يريد ان ينبهنا الى ان الواقع أجدر بالحديث . . كيف لا وها هو جيل جديد من ابناء (غرناطة) يسعى الى عالم جديد .

قلت للاخ / شعيب : ماذا بالنسبة لابناء مسلمى غرناطة ؟! قال :

قبل مدة كان هناك مدرس مسلم يقوم بتعليم أبنائنا فى مدرسة اسلامية خاصة ، ولكن بسبب بعض المصاعب اضطررت الى نقل ابنائى الى مدرسة عمومية (حكومية اسبانية) ، ومع البحث اهتديت الى شخصين من موريتانيا يقومان باعطاء دروس فى اللغة العربية والعقيدة الاسلامية فألحقت أبنائى بهما ، بالتأكيد ثمة صعوبات ، ولكننا نحاول تجاوزها .

سألته : هل هناك مطبوعات اسلامية تساعدكم على تعليم ابنائكم ؟ أجاب :

لا اثر لأية مطبوعات إسلامية ونحن فى أمس الحاجة الى مثل تلك المطبوعات سواء كانت كتبا او مجلات أو صحفا .

قلت : اذن ما هى صلتكم بالعالم الاسلامى ؟ قال :

فى الواقع ليست هناك أية صلة او اى نوع من العلاقات . . ولكن بين الحين والاخر نفاجأ بزوار مسلمين ، نلتقى بهم ، يحاولون مساعدتنا بتقديم بعض العون لنا . ولا توجد اية علاقات مع الحكومات فى العالم الاسلامى .

سألته : كيف تمارسون حياتكم كمسلمين ؟!

أجاب بهدوء وثقة : اننى كاسبانى أمارس حياتى بشكل عادى وطبيعى فى عملى وعلاقاتى مع الاخرين وعلاقاتى مع دواوين الحكومة . الا اننى كمسلم لى كيانى الخاص أؤدى واجباتى الدينية فى حرية كاملة ، واشارك المواطنين داخل حينا (حى البيَّازين) قضاياهم الاجتماعية . . لايمكن ان اكون منطويا انطلاقا من ان الاسلام دين معاملة . . ازور الاصدقاء ، وأسأل عن احوالهم ، أعـود المـرضى والعجـزة ، وأحـاول مساعدة الفقراء . . الامور كلها بالنسبة لنا عادية فى حياتنا العامة . . ويضيف : لكننا كمسلمين لنا عدة طلبات أو رغبات نأمل ان تتحقق . . منها :

مكان نقيم فيه شعائر ديننا . . فالمسجد الحالى مكان صغير ومؤجر ونتمنى ان يكون لنا مسجد بحجم مناسب تلتقى فيه جموع مسلمى غرناطة . . ندرس فيه القرآن ونحفظه لابنائنا ، نتدارس فيه أمور ديننا ، نضع فيه الحلول لمشاكلنا الاجتماعية . . انه أهم ما نتمناه فى الوقت الحاضر .

قلت : ماذا تود ان تنقل لاخوتك المسلمين ؟!

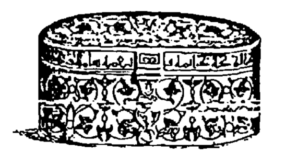
أجاب :

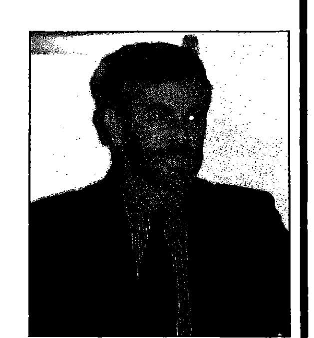
أولا : أود ان أؤكد بأنه لم يسبق لاى صحفى عربى ان زارنا ، وهذه هى المرة الاولى التى نلتقى فيها بالصحافة العربية والاسلامية .

لا انكر ان بعضا من مندوبى بعض الهيئات الاسلامية زار هذه المنطقة ، وكانوا يستمعون الى وجهات نظرنا ، ولكن وبكل أسف لم نسمع منهم أو عنهم اى شىء .

ثانيـا : ما أود قوله لا يتعلق بى شخصيا ولكنه يتعلق بكل مسلمى اسبانيا ، وربما يتعلق بالمسلمين جميعا . . اننى أود ان أقول للجميع :

انسوا خلافاتكم الشخصية ، ولنهتم جميعا بقضيتنا الاساسية الكبرى وهى : الاسلام ، علينا ان نتحد وان نعطى المثل الاعلى والقدوة الحسنة حتى نكون جديرين بالانتماء الى الاسلام ، ان مسلمى اوربا عامة ينتظرون من جماهير المسلمين مثل هذا الامر ومن شأنه ان حدث ان ينعكس ايجابيا على كل مسلمى اوربا فهم جزء من الجسم الاسلامى الواحد .





د . ماريانو الونسو بورون

النظرة الايجابية نحو العرب

ما ان انبأنى الصديق الدكتور على الحلو بصعوبة الاتصال بالدكتور ماريانو النسو بورون رئيس المعهد الاسبانى العربى للثقافة ورئيس لجنة الاندلس لعام 1992 م حتى تداعى الى الذاكرة المثل القائل : لا بد من صنعاء وان طال السفر .

ولا ادرى هل قلت هذا علنا أو رددته فى الذاكرة ، الا ان الامر المؤكد هو اننى قررت لقاء رئيس لجنة الاندلس لعام 1992 م ، لعدة اسباب من اهمها اننى حين اطلاعى على بعض محاضر اجتماعات السفراء العرب فى مدريد مع الدكتور « ماريانو » وجدت ان للرجل آراء ومقترحات ايجابية حيال عدد من القضايا العربية .

لذا توجهنا الى مبنى المعهد الاسبانى العربى للثقافة دون موعد أو اتصال وكانت الخطوة ايجابية بشكل لم نتوقعه ، حتى ان اللقاء بدأ فى الدقائق الاخيرة من ساعات الدوام لكن الدكتور « ماريانو » الذى شعر بما كنا نخشاه بادر الى القول بأنه أولا يعتذر عن هذا التأخير مشيرا الى فترة الانتظار مضيفا انه على استعداد لمواصلة الحديث بغض النظر عن الوقت .

قلت فى نفسى : بداية مشجعة ، ولذا آثرت أن ادير حوارا لا ان اكتفى بمجرد تصريح صحفى عن الاندلس 1992 م .

ولكون محدثنا يرأس هذه المؤسسة الثقافية ذات الصلة الوثيقة بأى نشاط ثقافى اندلسى ولكونه رئيسا للجنة « الاندلس لعام 1992 م » فقد كان من الطبيعى ان ينطلق فى حديثه عن هذه النقطة فقال مشيرا الى سنة 1992 م بشكل عام :

كما تعلمون ستعيش اسبانيا هذه السنة 1992 م احداثا هامة : على المستوى الاوروبى .

السوق الاوربية الموحدة .

أوربا بدون حدود .

الالعاب الاولمبية فى مدينة برشلونة .

والاهم من ذلك كله الاحتفالات بمناسبة مرور الذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف القارة الامريكية .

وفيما يتعلق بهذه المناسبة فان اسبانيا لا تريد النظر الى الماضى فقط ، بل ستسعى الى تجسيد انعكاسات ذلك الماضى على المستقبل .

علاقاتنا بالوطن العربى نرى انها ستستفيد من هذه المناسبة « 1992 م » والتى ستكون فرصة سانحة لاظهار دور العرب خاصة فى عملية الكشوفات نفسها .

من ناحيـة ثانيـة فاننا نسعى الى ابراز الشخصية الاسبانية والتى يرجع الفضل بالنسبة لها للحضارة العربية .

التقطت الخيط المهم حول العلاقات الاسبانية العربية وبخاصة ما تركته الحضارة العربية الاسلامية من أثر فقلت : لاشك ان الجانب الثقافى يجسد بوضوح مدى الترابط بين اسبانيا والعرب .

قال : هذا شىء واضح ، ويستطيع كل من يتجول فى اسبانيا ان يكتشف دون عناء الاثر الذى خلفه الماضى ، وهو ما لا نشاهده فى فرنسا ، اضافة الى ادلة ملموسة على ماض مشترك ، وبعد ذلك اذا نظرنا بتعمق قصد التعرف على اسبانيا فاننا سنجد الكثير من القرى والاماكن تحمل حتى الآن اسماء عربية ، كما ان هناك عددا كبيرا من الكلمات فى اللغة الاسبانية تعود الى اصل عربى ، اضافة الى الكثير من مظاهر الآثار فى الفنون والفلكلور والتقاليد ، كما أن اسلوب المعمار والتشييد مرتبط بجذور عربية .

كل ذلك يعنى لنا كدولة اوربية الشىء الكثير ، فنحن نمثل اكبر دولة اوروبية من حيث العادات والتقاليد قربا من العرب ، وعليه فنحن لذلك نفهم اكثر من غيرنا ونتعاطف مع القضايا العربية .

لقد قمنا بعدة اتصالات عن طريق جامعة الاقطار العربية ، وقمت شخصيا بزيارة السيد / الشاذلى القليبى امين عام جامعة الاقطار العربية واجتمعت بمدير منظمة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، هناك عدة قرارات صادرة من الجامعة تقوم على مبدأين :

الاول هو ان الاقطار الاعضاء تؤيد احتفالات 1992 م .

الثانى دعوة الاقطار العربية للمساهمة فى سلسلة المعارض المتعلقة بالاندلس .

كما ان جامعة الاقطار العربية أمرت بتشكيل لجنة لبحث سبل المساهمة ، وأعتقد بأن هناك تنسيقا كبيرا مع جامعة الاقطار العربية فى هذا المجال .

قلت :

فى بداية العام 1988 اطلعت على ما نشرته جريدة « الباييز » الاسبانية عن لجنة الاندلس لعام 1992 حيث قالت الصحيفة بأن اعمال اللجنة تلقى بعض الصعوبات ، ولذا سألت الدكتور « ماريانو » عن طبيعة الصعوبات التى تعترض اللجنة وهل تمكنت هذه اللجنة من تجاوز تلك الصعوبات .

آجاب :

لم تكن هناك صعوبات ، صحيح ان المشكلة الرئيسية والمزمنة تتعلق بالتمويل ، وبشكل عام استطيع القول بأنه لابد من الابتعاد عن المشاريع الضخمة واستغلال الاموال المتوفرة بشكل سليم وادارة جيدة وخيال واسع حتى نتمكن من تنفيذ المشاريع المقترحة ، ربما لا نستطيع القيام بأعمال كبيرة ومثيرة ولكنها ستكون ذات مغزى هام .

اخيرا : كيف ينظر المعهد الاسبانى العربى للثقافة الى التطور الملحوظ فى تناول القضايا المتعلقة بالوطن العربى على المستويين الاسبانى والاوروبى ؟

قال الدكتور « ماريانو » :

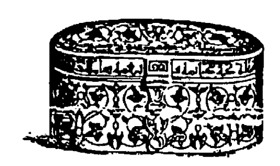
هناك نقطة جوهرية من المهم الاشارة اليها لفهم الوطن العربى ، وهى انه يجب الا ننسى بأن الغالبية الساحقة من الوطن العربى كانت قد استعمرت من قبل الغرب ومن دول اخرى لم تكن تحسب على الغرب وأعنى بذلك الاتراك الذين استعمروا العرب فترة طويلة ، كما أن العرب خرجوا فى مرحلة من المراحل وأثروا في دول كثيرة وفى هذا المجال فقد جرت العادة ان الدول المستعمرة غالبا تستعمل ثقافة الدول المستعمرة « بفتح الميم » كاداة طيعة فى يدها ، والهدف من ذلك تبرير وجودها فى تلك البلاد .

عليه فان العالم فى احدى المراحل نظر الى الثقافة العربية باعتبارها موضوعا يستحق الدراسة من حيث الماضى وبتجاهل تام للحاضر وللواقع الراهن .

وبعد التخلص من الاستعمار لم يعد ثمة مجال للابتعاد عن الواقع العربى . لذلك فان النظرة الى العرب لن تكون ايجابية الا اذا انطلقت من فكرة مسلمة وهى انهم احد اطراف التاريخ المعاصر القادرون على التأثير فى الآخرين والتأثر بهم .

فى نهاية هذا الحوار الذى استمر طيلة فترة الظهيرة ، وهى الفترة التى ربما كان من المتوقع أن تكون على خلاف ما حدث بالنسبة لرئيس المعهد الاسبانى العربى للثقافة خاصة وأننا بدأنا الحديث فى نهاية فترة العمل الاولى وانهيناه قبيل بداية فترة العمل المسائية ـ فى نهاية هذا الحوار تسلم الدكتور ماريانو النسو بورون درع جمعية الدعوة الاسلامية العالمية كهدية لتوثيق عرى التعاون .

وكم كانت سعادتنا غامرة حينما عدنا فى اليوم الثانى لنجد أن هديتنا تصدَّرت مكتب رئيس المعهد العربى الاسبانى للثقافة ورئيس لجنة الاندلس لعام 1992 م .



الثقافة العربية منطلق لثقافتنا



مديرة ادارة العلاقات الخارجية
بوزارة الثقافة الاسبانية

ها أنذا اقترب من نهاية هذه الاوراق التي حاولت من خلالها اعطاء صورة تقريبية لموضوعين رأيت انهما يستحقان جزءا من الاهتمام .

أولهما : بقايا حضارة اعطت العالم اضافات لا مجال الى انكارها بأي حال ، وجسدت طيلة ثمانية قرون أحد اهم ملامح الشخصية العربية التي صهرها الاسلام ودفع بها الى عالم الابداع والتألق .

ثانيهما : حدث اختلفت الاراء حوله ، فمن داع الى ضرورة الاهتمام به واعتباره من أوليات القضايا المعاصرة باعتباره حدثا يعيد الى الاذهان ذكريات تشعر كل الاطراف بأنها تخصه مثلما تخص غيره ، وأعني به الاندلس 1992 م .

ولا ازعم أنني استطعت خلال هذه الاوراق الاندلسية تناول الموضوعين بشكل دقيق ومتكامل .

لكني استطيع ان أقول بأنني حاولت . والمحاولة ذاتها أمر مهم بالنسبة لي على الاقل .

ولعل القراء الكرام قد وجدوا في هذه الاوراق ماذكّرهم بمعلومات كانت حبيسة الذاكرة .

وفي محاولة متواضعة ها أنذا أقترب من تحديد مبدئي لوجهة النظر التي كانت مقبولة مني ، وأعني بها : وجهة النظر التي تدعو الى ضرورة مساهمة فعالة في التظاهرات التي تتبناها (لجنة الاندلس لعام 1992 م) .

في هذه الورقة سنلتقي : مديرة ادارة العلاقات الخارجية بوزارة الثقافة الاسبانية ، والدكتور الهادي ابو طالب مدير عام المنظمة الاسلامية للتربية والثقافة والعلوم ، والدكتور فيدريكو مايور مدير عام المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم ، فما الذي ستقوله مديرة العلاقات الخارجية بوزارة الثقافة الاسبانة ؟

قلت :في اسبانيا بدأت منذ فترة التحضيرات بشأن الاحتفالات بمناسبة الذكرى المئوية الخامسة

لاكتشـاف أمـريكا ، وكما تعلمين فان هذه المناسبة تتصادف مع الذكرى المئوية الخامسة لسقوط (غرناطة) آخر المدن الاسلامية المستقلة ، هل هناك أي اتجاه يهدف الى التأكيد على أن مايجري منذ **الآن وحتى سنة 1992 م ليس موجها بأي شكل الى احياء بعض من معاني (سقوط غرناطة) ؟**

قالت: لقد زرت مؤخرا امريكا اللاتينية ، ولمست شعورا بالحساسية تجاه هذه الاحتفالات حيث رفض الامـريكيون الجنوبيون عبارة (اكتشاف امريكا) وهذا من حقهم ، وعليه فقد اتفق على تسمية ذلك (اللقاء الثقافي بين العالمين القديم والحديث) مما كان له الدور الملموس في اثراء ثقافة الطرفين .

لذلك فان مانخطط له الآن وحتى عام 1992 م ليس محاولة لأحياء صدامات بل للتأكيد على أوجه الالتقاء الايجابي . وهذا ماينسحب على (سقوط غرناطة) ، يجب الا ننظر الى ذلك الحدث على أنه ضياع أو فقدان لشيء محدد بل من الضروري النظر دائما الى أن الثقافات تمتد الواحدة بعد الاخرى .

العرب تعايشوا ثقافيا مع بقية السكان في اسبانيا وتفاعلت الثقافات الاصيلة ذات الجذور الرومانية والاغريقية مع الثقافة العربية الاسلامية ، وتولدت نهضة جديدة تمكنت من التوصل الى عصرها الذهبي اللامع .

لكل ذلك فان وزارة الثقافة لم تفكر لحظة واحدة بان هذه المناسبة (1992 م) ستكون فرصة لاحياء انتصارات على أحد ، لا على العرب ولا على سكان امريكا .

قلت : كيف تنظرون في وزارة الثقافة الى مساهمة العرب في تظاهرة 1992 م ؟

قالت: العرب يملكون حيزا واسعا للمشاركة ، وعليهم أن يقرروا ما اذا كانوا يرغبون في استغلال هذه الفرصة مع الاخذ في الاعتبار أن العلاقة التقليدية بين اسبانيا والعرب علاقة ممتازة ، ونحن نشعر بأن العرب ينظرون الى الاسبان بشكل خاص مثلما ينظر الاسبان الى العرب بشكل متميز .

قلت : ثمة اهتمام ملموس بالثقافة العربية الاسلامية على المستوى الاوربي والاسباني بشكل خاص ، على أي اساس تفسرون هذا الاهتمام ؟

قالت: أود ان يعلم الكل بأن العالم يسير بخطى حثيثة نحو مواقف تعايش وتفاهم واحترام متبادل ، والتخلي عن التعصب ، لان الاساس هو ان يفهم الجميع بأن الحق والحقيقة هي الاساس في التفاهم .

وهذا لم يكن قائما خلال السنين الطويلة الماضية حيث تميزت تلك السنين بالتعصب لافكار ذاتية .

قلت :كان الاسلام يقدَّم مشوها فى كل اوربا ، هل هناك أي تغير فى تلك النظرة من ناحية المناهج والمقررات التعليمية لتتغير بالتالي وجهة النظر ؟

قالت : أعتقد ان ذلك ممكن ، واتحدث عن تجربتي الخاصة حيث تعلمت في مدرسة كاثوليكية وأؤكد لكم بأنني لم اشعر في أية لحظة بأن هناك محاولة لبث العداء في نفوسنا ضد الاسلام .

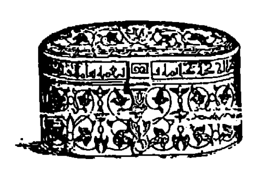
لقد قدم لنا الاسلام بما فيه من مساهمات فنية وتقنية للنهضة العلمية المعاصرة .

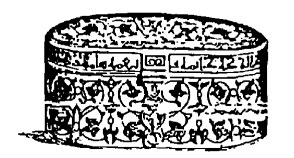
حتى من الناحية الدينية لمست محاولات لايضاح نقاط الانسجام والتوافق بين الاسلام والمسيحية .

قلت : نلمس اهتماما واضحا في عدد من الدول الاوربية بالادب العربي المعاصر من خلال حركة واسعة في مجال الترجمة . هل هناك أية مساهمات اسبانية في هذا الاطار ؟

قالت : نعم هناك مجال واسع ويزداد اتساعا ونموا ، وأرى انه من الضروري أن يتجسد اي تقارب ثقافي من خلال ترجمات تنقل الاعمال الثقافية بين الطرفين .

لقد اتهمنا دائما بأننا غير اوربيين بسبب علاقتنا المتميزة مع العالم العربي وامريكا اللاتينية ، وهذا شيء نعتز به .






د . عبد الهادى ابو طالب

الحضارة العربية جزء من الحضارة الاسبانية

وللدكتور عبد الهادي ابو طالب مدير عام المنظمة الاسلامية للتربية والثقافة والعلوم وجهة نظر وصفها بأنها (فكرة مثيرة) ، وجانب الاثارة فيها يتضح من موقفه من التظاهرات التي تشهدها اسبانيا منذ الآن وحتى العام 1992 م ، ذلك الموقف الذي يحاول من خلاله الدكتور / ابو طالب لفت انتباهنا الى جانب يراه أهم من أية تظاهرة .

قال لي الدكتور أبو طالب حين اثرت امامه موضوع هذه الاوراق الاندلسية :

سأقول لك فكرة مثيرة ، أنا أعتقد أن صفحة العرب بالاندلس طويت ولن نعود اليها .

قلت : ولكن صفحات الحوار لم تطو .

قال : لايجب مطلقا أن يحس أحد أو أن يخامره ادنى حنين الى الماضى ، لقد مررنا بالاندلس وتركنا بصماتنا هناك .

علينا ان ننمي اليوم التراث التاريخي مع المعنيين به في الاندلس دون ان يصبح عملنا من نوع : الغزو الفكري الذي نشكو نحن منه من الآخرين وقد يعيب علينا الآخرون اننا نباشره أو نمارسه .

اليوم هناك حركة داخلية عند الاسبان أنفسهم ـ ويعتبرون ذلك تقدما كبيرا ـ تقول بأن التراث العربي والماضي العربي جزء من تراث اسبانيا . وفي رأيي تشجيع هذا الاتجاه سيظل ايجابيا اكثر من تشجيعنا لان تكون هناك احتفاءات بتواريخ انقضى عهدها .

وأود ان اخبرك بأنني تلقيت من هيئة اسبانية دعوة للمشاركة في احياء الذكرى المتعلقة بخروج العرب من الاندلس ، (اي سقوط غرناطة) فرفضت .

علينا ان نحور تلك الاحتفالات الى اتجاه ايجابي لا الى البكاء على حدث نقف فيه على الاطلال أو نقول فيه قصائد الرثاء ، على العكس من ذلك يجب ان نقول بأن امتداد الحضارة العربية هو جزء من الحضارة الاسبانية ، وان نؤكد هذا الشعور .

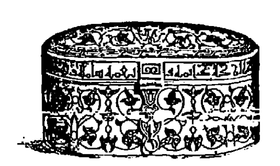
علينا ان نتعاون مع الاسبانيين بدلا من ان نناصبهم العداء في موضع يتعلق بنبش الماضى . واحيانا يكون نبش الماضى ليس الا نبشا للرفات عوضا عن ان يكون احياء للتراث .

لذلك فانني اعتقد بأن الفكرة التي يجب أن ننتصر لها هي تلك التي تتبناها لجنة الاندلس التي اشعر بأنها مشدودة للتاريخ العربي ، هذه الهيئة الاسبانية اتمنى أن نشجعها وأن نعمل معها دون ان نقع في لبس أو التباس تاريخي غير وارد في الاذهان الآن ، لأنه استنفد اغراضه في مرحلة معينة .

العرب أدوا رسالتهم ، وتركوا بصماتهم . علينا ان نعمل ليشعر الاسباني بأن هذه البصمات تدل على ان مرور العرب من هنا (في اسبانيا) كان مرور رسالة خيرة بانية وليس غزوا استعماريا أو استيطانيا .

قلت والدكتور ابو طالب يتهيأ لموعد مهم : رغم أن هناك دعوات تحاول ترسيخ مفهوم الغزو حين يدور الحديث حول مرحلة الاندلس .

قال : ليقولوا ماشاءوا .



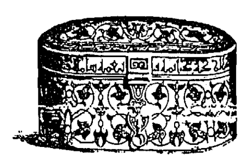


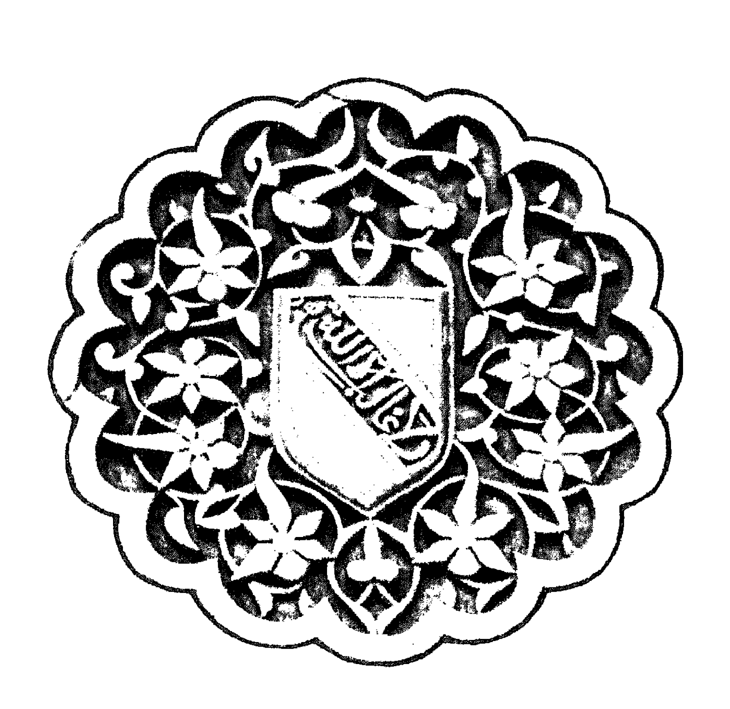
د . فيد ريكو مايور

مثال حي للتسامح

وحين طرحت موضوع الاندلس 1992 م على السيد فيدريكو مايور مدير عام المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم في سياق حديث ليست له صلة بهذه القضية ، حينما فعلت ذلك صمت الدكتور (مايور) برهة وخيل الى ان تلك البرهة من الصمت امتدت بمحدثي عبر احقاب زمنية ومسافات جغرافية ، شعرت وكانه يستحضر ملامح الاندلس من خلال استلهام مابقى من مظاهر الحضارة العربية الاسلامية في ربوع بلده اسبانيا .

لقد كان متفائلا في حديثه ، لكنه آثر فقط أن يؤكد على ان الامتزاج الحضاري كان مثالا حيا للتسامح والتعاون ، مضيفا بأن اسبانيا ستعيش خلال الفترة حتى 1992 م مهرجانا حضاريا متميزا .





رثاء الأندلـــــس

ابن الأبّار

أدْرِكْ بخَيْلِكَ خَيلَ الله أندلسَـــــا ... إنّ السَّبيلَ إلى منْجاتِها دَرَسَا
وَهَبْ لَها مِنْ عَزيزِ النَّصْرِ ما الْتَمسَتْ ... فَلَمْ يَزَلْ مِنْك عِزُّ النَّصْرِ مُلْتَمسا
وحاشِ ممّا تُعانيه حُشاشَتها ... فَطالما ذَاقت البَلْوَى صَباحَ مَسَا
يَا للجَزيرة أضْحَى أهلُها جَزَرًا ... للحَادثَات وأمْسَى جَدُّهَا تَعَسَا
فـي كُـلِّ شـارِقَـة إلْمَامُ بَائقَةٍ ... يَعُود مَأتَمُها عند العِدى عُرُسـا
وكلِّ غَاربةٍ إجْحَافُ نائبَةٍ ... تثْنِي الأمَانَ حِذَارًا والسرورُ أسَى
تَقاسَمَ الرومُ لا نَالتْ مَقاسمُهم ... إلاَّ عَقائلَها المَحْجوبَةَ الأنُسَا
وفى بَلَنْسيةٍ منها وقُرْطُبَةٍ ... ما يَنْسِفُ النَّفسَ أو ما ينزفُ النَّفَسَا
مَدائنٌ حَلَّها الاشراكُ مُبْتَسِمًا ... جَذْلاَنَ وارتَحَلَ الايمانُ مُبْتَئِسا
وصَيَّرَتْها العَوادي العَابثَاتُ بها ... يَسْتَوحِشُ الطَّرْفُ مِنها ضِعْفَ ما أنِسا
فمِنْ دَساكِرَ كَانَتْ دُونَها حَرَسا ... ومِنْ كَنائس كَانَتْ قَبْلَها كُنُسا
يَا لَلْمَسَاجدِ عَادَتْ للعِدَى بيَعًا ... وللنِّداءِ غَدَا أثْناءهَا جَرَسا
لَهْفِي عَليها الى استرجَاع فائتِها ... مَدارِسًا لِلمَثاني أَصبحتْ دُرُسا
وأربعًا نَمْنَمتْ يُمْنَى الرَّبيع لها ... ما شئت مِنْ خِلَعٍ مَوْشيَّةٍ وكُسَى
كانَتْ حدَائقَ للأحْدَاقِ مؤنقةً ... فَصَوَّحَ النَّضْرُ من أدْواحِها وعَسَا
وحَالَ مَا حَوْلَهَا مِنْ مَنْظرٍ عَجَبٍ ... يَسْتَجْلسُ الرَّكْب أوْ يَسْتَرْكِبُ الجُلُسا
سُرْعَان ما عاثَ جَيْشُ الكُفْرِ واحَرَبا ... عَيْثَ الدَّبى فى مَغَانِيهَا التي كَبسا
وابْتَـزَّ بِزَّتَـها مِمَّا تحيَّفَهـا ... تحَيُّفَ الأسَدِ الضَّارِى لمَا افترسا
فَأيْنَ عَيْشٌ جَنَيْنَاهُ بها خَضِرًا ... وأيْن غُصنٌ جَنَيْناهُ بها سَلِسا
مَحَا محَاسنَها طاغٍ أُتيحَ لَهـا ... مَا نامَ عن هَضْمِها حِينًا ولاَ نَعَسا
ورَجَّ أرْجَاءَهَا لَمَّا أحاطَ بها ... فغادر الشُّمَّ مِنْ أعْلامِها خُنُسا
وأكْثَرَ الزَّعْمَ بالتَّثليث مُنْفردًا ... ولَوْ رأى رايَةَ التَّوحيدِ مَا نَبَسا
صِلْ حَبْلَها أيُّها المَوْلَى الرَّحيمُ فَما ... أبقى المِراسُ لَهَا حَبْلاً ولا مَرَسا

المقصورة في رثاء الأندلس

القرطاجني

قَادُوا الى أنْدلُس كتائبًـــا   أمامَها النّصْرُ العزيزُ قد قَدَى ؛
وجلَّلُوا شطَّ المَجازِ سُبَّقًـا   تعدُو إلى غزوِ الأعادى الجَمَـزى ؛
وصبَّحُوا الأرْكَ بجيشٍ غَط فـى   آذيِّه أذْفُنْشَ لمَّا أن غَطـا ؛
وخَلَفوا بالبيضِ قُرْصَ الشَّمسِ فى   أرْهَاجِه حتّى رأوْهُ قد صَغـا ؛
فوقَب الغاسقُ عن يومٍ بـه   كيومِ ذى قَارٍ ، ويومِ الوَقَبـى ؛
بل كلّ يوم دونَ ذاك اليوم فـى   ما نصَّ عن غُرِّ الفتوحِ وَجَـلا :
ما كان مَا قد أنجزَ اللهُ لهـم   من موعد منصر حديثا يُفتـرى ؛
فلم يدَعْ جِهادُهم للشّرك مـن   دارٍ ، ولم يترُكْ لَهُم من مُـدَّرَى ؛
ثُمَّ دعاهُم ربُّهم فابْتَدَرُوا   إلى محلِّ القُرْبِ منه والرّضـا ؛
وأصبحتْ مِن بعدِهم فريسـةً   لِمنْ بغِي ، وفُرْصَةً لِمَنْ بعـا ؛
وآضَ ما قدْ كان منها خافيـا   بعدَ الظُّهورِ ظاهِرًا بعد الخفـا .
لهفي لذكرى مَعْهَد عَهِدْتُـهُ   يُراحُ للأنس به ويُغْتـدى !
غصَّ امتلاءً بالرُّوَيْم عندمـا   أقفرَ من أمّ الرُّوَيْم وَخَـلا ؛
تُلقَى به أمّ السُّبَيْع بعدمـا   كانت به أمُّ الخُشَيْفِ تُلْتقـى .
أخلَى ذَراها اللهُ من ألّا فهِ   من بعد ما أنْمى بها اللهُ الـذَّرا ؛
دعا الغرابُ ببَنِيه وبنـى   جَلْوى ، فلبَّتهُ ليجلو مَنْ جـلا .
كأنما لِحْياهُ شِقًّا قَلَمٍ   فأى بِسكّين شَباهُ مَن فَـأى :
مَتى يُبَاينْ أَحَدُ الشِّقَّيْنِ مِنْ   صاحبِه أثبَتَ بيْنا ووَحـى .
فأنشأتْ أيدي الجيادِ فوْقَهَـا   غيْمًا كثيفا غيرَ شفَّاف الغمـى :
قد طبَّقَ الآفاقَ مِنْ أندَلُسٍ   ودارَ فى أرجائها دوْرَ الرحـى ؛
فَأشْرَق الشَّرْقُ بما أشجَى المَلاَ   وما أغصَّ كلَّ جوٍ ومَـلا ؛
فصيَّر البيضاءَ برقُ بيضهـا   وزُرقِها تشكو الخَلاء والجـلا .
ودمَّرتْ تُدْميرَ سُحْب فتنةٍ   وبارقٌ مِن مطلع البغْي بغـى ؛

ومحقتْ قُرْطُبةً كَمثل مـا   قد محقَ البدرَ السِّرارُ ومحـــا ؛
وَصَار للوَحشة كلُّ منـــزل   قد كان للأنس بحمصَ يعشـــرى :
واخترمت وُسطى الثغور وثبـــة   من كل ضارٍ طالما دب الضَّـــرا :
طُوفان هيجاءٍ أطاف هيجُـهُ   بها فلم يدَعْ عَرى إلاّ عَـــرا .
وفتنة عمياءُ سال سيلُهـــا   ففضَّ شَمْلَ المسلمين وعَمـــى :
فمِن رَدٍ طاحَ جُفاءً فوقه ،   ومُلفتٍ به المِهادُ قد جفـــا ؛
فكم صدىً فيها وهامٍ مُجتلـىَ   يشكُو الصّدى ما بين هامٍ مُختلَـى !
وتسأل الأسيافَ فيها ريَّهـــا   هامُ جواثٍ فوق هامٍ فى جُثـــى .
أضحت لسانُ الحال تُملى شجوَها   فى كل حفلٍ ، وعلى كلّ مـــلا :
فقد بكَتْ أنهارُها بمدمـــعٍ   هامٍ من الوجْد لِهامٍ ما ارْتـــوى ؛
فالنّهر الابيض يبكى شجـــوه   بكلِ دمع مستفيض ما زقـــا ،
وقد بكى النّهر الكبيرُ صنْوُه ،   إذ لم يُطِقْ يُرْوِي صدى هامٍ زقـــا ،
وكاد شُقرٌ أن يغيضَ عندمـــا   غِيظ بعَيْث الشُّقْر فى كلِّ عــــرَى ،
وأنَّ وادي أنَّة فى غَرْبــه   وغربُهُ ملآنُ من دمعٍ جـــرى ؛
ووادِيا الثّغر المُنيف تَاجُه   وإبْرُه كلاهما قد اشتكـــى ؛
وقد شكى الثّغرُ صداه ولَهًـا   والماءُ منه بين ثَغْرٍ ولَهـــا .
وكم بها مِنْ سِلك نهرٍ قد حوى   كرسيَّ مُلْك سِمْطُه فيها حـــوَى !
قد ندبَتْ أمصارُه أنصـــارَهُ   إذ لا أذاةَ مِنْ عَدُوٍّ تُشتكـــى .
فيا لها من دُررٍ تُخُرِّمَـتْ   بالغُرِّ من دُرِّ السّلوك تفتـــدى ،
أضحتْ على أيدى العِدى منثورةً   وأرخصَ الاشراكُ منها ما غَـــلا ؛
واحْتُويَتْ ذخائرُ الدّين التى   قد طالما أعيا العِدى أن تُحْتـــوى .
ولو سَما خليفة الله لهـــا   لافْتكَّها بالسّيف منهم وافتـــدى ؛
ففى ضمانِ سعده مِنْ فَتْحِهـــا   دَيْنٌ على طرْف العوالي يُقتضـــى ؛
فقد أشادت ألسُنُ الحالِ بــه :   حيَّ على استفتاحها ! حيَّ علـــى !
أثْأى العِدَى ما كان مَرْؤوبا بها   وهو الذى يُرْجَى به رأبُ الثـــأى .
يُزجى إليها كلَّ ريح زعـــزعٍ ،   عاتيةٍ ، عاصفةٍ بمَنْ عتـــا ؛

تجلو طَخاريرَ العِدَى عن أفْقِها   وتطْحَر الأقذاء عنها والطُّخَا ؛
تُبكي الأعادِى بعدَ طول ضِحكِها   وتضحِكُ الأضبعَ مِنْ بعد الضَّهى .

كتائبُ قد ظلَّلتْ راياتُها   عَراعرَ القوْم وأشجار العُرى :
كم ليثَ بأسٍ فوق طِرْفٍ قد سطا   فيها ، وطِرفٍ تحت ليْثٍ قد سَطا !
لو شامتِ الأذواءُ منها بَرْقةً   لآبَ ذو الأذعار مَذْعور الحَشى ؛
وطأطأ الرأسَ المنارُ المُعتلى   لعزّ مُلكٍ قد تسامى واعْتلى ؛
وأصبحَ الرَّائشُ غيرَ رائشٍ   سهمًا ، ولا مُفوّقٍ لَمَا برى ؛
وذلَّلتْ ذَا يزَنٍ بمَا انتمَى   إليه مِن سُمر الرّماح واعْتَزَى ،
وأبدلتْ ذَا جَدَنٍ مِن نُونِه   ثاءٍ ، وأدَّتْه إلى وَشْك الرّدى .
قد أصبحتْ دولته تختالُ مِن   إقباله فى جِدَّةٍ لا تُنتضى :
ما زال يُملى المَلَوَانِ نصرَهُ ،   وسيفُه يختطُّ ما يُملى المَلا .
خطَّ النَّدَى فى كفِّه خطًّا به   ذكرُ سماحِ حاتمٍ قد امْتَحى .
كمْ آضَت الانضاءُ فى مَسْرَحه   بُدْنًا ، وكم آلتْ به إلى ألى !
ولو عَدَتْهُ كان يشكو ظاهرٌ   منها الضِّوى وباطنٌ يشكُو الصَّوى ؛
فكم سَرى ركبٌ يُخِفُّ نحوَه ،   وآبَ عنه مُثقلاً بما سَرَى !
وكم حبا النَّاسَ ، وكم أسدَى لَهُمْ   من نائلٍ ، وكم أنالَ مِنْ سَدى !
رَخا به ما اشتدّ مِن عيْشِهِمُ   واشتدّ من عيش العُداة ما رخَا .
إذا بغَى الدّهرُ فأمسى جارحًا   أسا نداهُ كلَّ جُرْحٍ قد بَغى :
فكم شفَى مِن أنفسٍ مكلومةٍ   بالدّهر قد أعيَا الأسَى فيها الأسى !
يأسو بآلاف النُّضار كَلْمَنا   مَنْ يَحسِبُ القِنطار منْه كالمَنا .
طاعتُه من طاعة الله ، فمَنْ   دعا إلى هذى الى تلك دَعا ؛
وطاعةُ الله أجلُّ نعمةٍ   حقيقةٌ لذاتها أنْ تُبتَغى .
ليس السعيدُ غيرَ من أسعدَهُ   إلهُه بالعفو عنه والرّضا ؛
ولا السخيُّ غيرَ مَن بذاتِه   قد جادَ فى ذات الاله وسَخا ؛
من اشترى الباقِىَ بالفانى يفُزْ   به ، ويُحمَدْ رأيُه فى ما اشترى .

يا أيّها الانسانُ إنّى ناصحٌ ، فاستمع النُّصح وكن ممَّن وعى :
لا تغترِرْ بالعُمْرِ ، واعلم أنّ ما لم يمْضِ من أيّامه كمَا مضى ؛

ابو الحسن : ت 684 هـ / 1285 حازم القرطاجنى : المقصورة فى كتاب « قصائد ومقطعات صنعة ابى الحسن حازم القرطاجنى » تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجه ، الدار العربية للنشر 1972 .
و « المقصورة » هذه تقع فى ألف بيت واخترت بعضا من ابياتها لأنها ـ اضافة الى خصائص عدة ـ تحوى ذكرا لمعظم المناطق الاندلسية .

نكبة الأندلس

أبو البقاء الرندي

لكلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نُقصانُ ... فلا يُغرُّ بطيب العيشِ إنْسانُ

هى الأمورُ كما شاهدْتَها دِوَلُ ... من سرَّه زمنٌ ساءتْه أزمانُ

وهذه الدَّارُ لا تُبقي على أحدٍ ... ولا يدومُ على حَالٍ لَها شانُ

يمزِّق الدَّهرُ حتمًا كُلَّ سابغةٍ ... إذا نبَتْ مشرْفياتٌ وخُرصانُ

وينتضي كُلَّ سيفٍ للفَناء ولو ... كان ابن ذي يزنٍ والغمدُ غمدانُ

أين الملوكُ ذُوو التِّيجان من يَمنٍ ... وأين منْهم أكاليلٌ وتيجَانُ

وأين ما شَاده شدَّادُ فى إرمٍ ... وأين ما سَاسَه فى الفرس ساسانُ

وأينَ ما حَازه قارُون مِنْ ذهبٍ ... وأين عادٌ وشدَّادٌ وقحْطانُ

أتى على الكلِّ أمرٌ لا مردَّ لهُ ... حتَّى قضوا فكأنَّ القومَ ما كانُوا

وصارَ ما كان من مُلكٍ ومن مَلكٍ ... كما حكى عن خَيال الطَّيف وسْنانُ

كأنَّما الصَّعبُ لم يسهُل لهُ سببٌ ... يَومًا ولا مَلك الدُّنيا سُليْمانُ

فجائعُ الدهرِ أنواعٌ منوَّعةٌ ... وللزمانِ مَسرَّاتٌ وأحزانُ

وللحوادث سُلوانٌ يُسهِّلها ... ومَا لِما حلَّ بالاسلام سُلوانُ

دَهى الجزيرَة أمرٌ لا عَزاء له ... هَوَى له أحدٌ وانهدَّ نهْلانُ

أصابها العينَ فى الاسلامِ فارْتزأت ... حتَّى خَلتْ منْه أقْطارٌ وبُلدانُ

فاسألْ بلنسيةً ما شأنُ مُرسية ... وأين شاطبةٌ أم أين جيَّانُ

وأين قرطبةٌ دارُ العُلوم فكم ... من عَالِمٍ قَد سمَا فيها له شانُ

وأين حمصٌ وما تحْويه من نُزَهٍ ... ونهرُها العذبُ فيَّاضٌ وملآنُ

قواعدٌ كُنَّ أركانَ البلادِ فما ... عَسى البَقاءُ إذا لم تبْقَ أركانُ

تبكي الحنيفية البيضاء من أسفٍ ... كَما بكى لِفراق الالفِ هيْمانُ

عَلى دِيارٍ من الاسلام خالية ... قدْ أقْفرت ولَها بالكُفْر عُمْرانُ

حيث المساجدُ قد اضحت كَنائسَ ما فيهنَّ إلا نَواقيسٌ وصُلْبـانُ
حتى المحاريبُ تبْكى وهى جامدةٌ حتّى المنابرُ ترثى وهى عِيدانُ

* * *

يا غافلاً وله فى الدَّهر موْعظـة إن كنت فى سنة فالدَّهرُ يقظـانُ
وماشيًا مرحًا يلهيه مَوْطِنُـه أبَعْد حمص تغُرُّ المرءَ أوطـانُ
تلك المَصيبةُ أنستْ ما تَقدَّمهـا ومَا لها مَعَ طُولِ الدَّهر نِسْيـانُ

* * *

يا راكِبين عِتاقَ الخيْل ضَامرةً كأنَّها فى مجَالِ السَّبق عِقْبانُ
وحامِلين سُيوفَ الهِنْد مرهَفةً كأنَّها فى ظَلام النَّقع نـيرانُ
وراتعين وراءَ البحْرِ فى دَعَة لهُم بأوطانِهم عِزٌّ وسُلطَانُ
أعِنْدكم نبأٌ من أهلِ أندلُـس فقد سرَى بحديث القومِ رُكبـانُ
كم يستغيثُ بنا المُسْتضعفونَ وهُم قتْلى وأسرى فما يهتزُّ إنسـانُ
ماذا التقاطعُ فى الاسلام بيْنكمُ وأنتمُ يا عبادَ الله إخـوانُ
ألا نُفوسٌ أبيَّاتٌ لها نِعـمٌ أما على الخَيْر أنْصارٌ وأعوانُ

* * *

يا مَن لِذلّةِ قوْمٍ بعْدَ عِزِّهم أحالَ حَالهم جُورٌ وطُغيـانُ
بالأمسِ كانوا مُلوكًا فى مَنازِلهِمْ واليومَ هم فى بلادِ الضدِّ عبْـدانُ
فلوْ تَراهم حَيارى لا دَليلَ لهم عليهُمُ من ثِيابِ الذُّلِّ ألْـوانُ
ولو رأيتَ بُكاهُم عِنْد بيْعِهم لَهالَك الأمرُ واستَهوتْك أحـزانُ
يا رُبَّ أمٍّ وطِفْلٍ حِيل بينهُما كما تفرّقُ أرواحٌ وأبـدانُ
وطفلةٍ مثل حسنِ الشَّمس إذ طلعَت كأنَّما هِيَ ياقوتٌ ومرْجـانُ
يقودُها العِلْجُ للمكروهِ مُكْرهةً والعينُ باكيةٌ والقلبُ حـيْرانُ
لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كَمـدٍ إن كان فى القلْب إسلامٌ وإيمـانُ

حسرة على الأندلس

شاعر مجهول

أحقًا خَبَا من جوّ رُنْدَة نُورُهــــا ... وقد كُسِفَت بعْدَ الشّموس بُدورُها

وقد أظْلَمَتْ أرْجاؤها وتَزَلْزَلَتْ ... مَنَازِلُها ذاتُ العُلاَ وقُصُورُهــا

فيا ساكني تلكَ الديارِ كريمــةً ... سقى عَهْدَكم مُزْنٌ يصوبُ نميرُهــا

أحقًّا أخِلاَّئِي القَضَاءُ أَبَادَكُمُ ؟ ... ودَارَتْ عليكم بالصروفِ دهورُهـا

فَقَتْلٌ وأسْرٌ لا يُفَادَى وفُرْقَةٌ ... لدى عَرَصَات الحَشْرِ يأتى سفيرُهـا

فَوَا حسْرَتَا كمْ مِنْ مَسَاجِدَ حُوّلَتْ ... وكانتْ إلى البَيْتِ الحرامِ شُطُورُها

وَوَا أسَفَا كَمْ مِنْ صوامعَ أوْحَشَتْ ... وقدْ كانَ مُعْتادُ الأذانِ يَزورُهـا

فَمِحْرَابُها يَشْكُو لمنبرِها الجَوَى ... وآياتُها تشكو الفِراقَ وسُورُهـا

وكم طفلةٍ حَسْناءَ فيها مصونةٍ ... إذا أسْفَرَتْ يَسْبي العقولَ سُفُورُهــا

فأضْحَتْ بأيدى الكافرينَ رَهينَةً ... وقد هُتِكَتْ بالرّغم منها سُتُورُهـا

وكَمْ فيهمُ منْ مُهْجَةٍ ذَاتِ عِفّةٍ ... تودُّ لو انْضَمّتْ عَلَيْهَا قُبُورُها

لَهَا رَوْعَةٌ مِن وقْعةِ البَيْنِ ، دائمٌ ... أسَاها ، وعينٌ لا يَكُفُّ هَدِيرُهـا

وكم من صغيرٍ بَدّلَ الدّهْرُ دينَه ... وهلْ يَتْبَعُ الشّيطانَ إلا صَغيرُها

لأنْدَلُسُ ارْتَجّتْ لَهَا وَتَضَعْضَعَتْ ... وَحُقّ لَدَيها مَحْوُهَا وَدُثُورُهَا

منازِلُهــا مَصْدُوعَــةٌ وبطَاحُهـا ... مَدَائِنُهــا مَوتُورَةٌ وثُغُورُهـا

تَهَائِمُها مَفْجُوعَةٌ ونُجُودُهَـا ... وأحجارُها مصدوعَةٌ وصُخُورُهــا

وقد لَبِسَتْ ثوْبَ الحِدادِ ومُزّقت ... ملابسُ حُسْنٍ كانَ يزهو حُبُورُهــا

فأحياؤها تبدى الأسى وجَمَادُهَــا ... يكادُ لفَرطِ الحُزْنِ يَبْدو ضَمِيرُها

فمالقةُ الحَسْنَاءُ ثكلى أسيفـةٌ ... قد استفرغتْ ذَبْحًا وقتلاً حُجُورُهــا

وجُزّتْ نواصِيهَا وشُلّتْ يَمِينُها ... وبُدّلَ بالويلِ المبينِ سُرورُهــا

وَقَدْ كانَتْ الغَرْبيّةُ الجنَنَ التي ... تَقِيهَا فأضْحَى جُنّةَ الحَرْبِ سورُها

وَ« بلّش » قطّتْ رجْلَهَا بيَمِينِهَا ... وَمِنْ سَرَيَانِ الدّاءِ بَانَ قطورُها
وبالله إنْ جئْتَ المُنَكّبَ فَاعْتَبِرْ ... فَقَدْ خفّ نَادِيها وَجَفّ نَضِيرُهَا
ألاَ وَلْتَقِفْ رَكْبَ الأسى بمعَالِمٍ ... قد ارْتَجّ بَادِيهَا وَضَجّ حُضُورُها
بدَارِ العُلا حَيْثُ الصّفَاتُ كأنّهَا ... مِنَ الخُلْد والمأوَى غدَتْ تَسْتَطِيرُها
مَحَلِّ قَرَارِ المُلْكِ غِرْنَاطَةَ التى ... هى الحضْرَةُ العُلْيَا زَهَتْها زُهُورُهَا
تَرَى بالأسى أعْلامَهَا وهي خُشّعٌ ... ومِنْبَرُهَا مُسْتَعْبِرٌ وَسَرِيرُهَا
ومَأمُومُها ساهى الحِجَى وَإمَامُهَا ... وَزَائِرُهَـا في مأتَـمٍ ومَـزُورُهَـا



الرحلة الى الأندلس

أحمد شوقى

أنْظِمُ الشرقَ فى (الجزيرة) بالغـــر   بِ ، وأَطْوِى البلادَ حَزْنًا لدَهس

فى ديارٍ من الخَلائـــــف دَرْسٍ   ومَنارٍ من الطوائف طمـس

ورُبًى كالجنانِ ، فى كنف الزيتو   ن خُضْرٍ ، وفى ذَرا الكَرْمِ طُلْس

لم يَرُعْنى سوى ثَرًى قُرْطُبِــىٍّ   لمستْ فيه عِبْرَةَ الدهر خَمْسى

ياوقَى اللهُ ما أُصَبِّحُ منـــه   وسَقَى صَفْوَةَ الحيا ما أُمَسِّــى

قَرْيَةٌ لا تُعَدُّ فى الأرض ، كانـت   تُمسكُ الأرضَ أن تَميدَ وتُرْسى

غَشيتْ ساحلَ المحيط ، وغطَّـــتْ   لُجَّةَ الرُّومِ من شراعٍ وقَلْـسِ

ركب الدهرُ خاطرى فى ثراهـــا   فأَتى ذلك الحِمَى بعد حَـدْس

تجلَّتْ لىَ القصورُ ومن فيــــ   ـها من العزِّ فى منازلَ قُعْـس

وضفتْ قَطُّ فى الملوكِ على نَـذْ   لِ العالى ، ولا تردَّتْ بنَجْـس

وكأنى بلغتُ للعلم بيتًـــا   فيه ما لِلعقولِ من كـل دَرس

تَبُنا فى البلاد شرقًا وغربًـــا   حَجَّهُ القومُ من فقيهٍ وقَـسّ

وعلى الجمعةِ الجلالةُ ، و (النـا   صرُ) نـورُ الخميسِ تحت الدَّرفس

يُنزل التاجَ عن مفارق (دُونٍ)   ويُحَلِّى به جبينَ (البرنـس)

سنةٌ من كرًى ، وطيفُ أَمـــانٍ   وصحا القلبُ من ضلالٍ وهَجْـس

وإذا الدارُ ما بها من أنيـــسٍ   واذا القومُ ما لَهم من مُحَسِ

ورقيق من البيوت عتيـــق   جاور الألفَ غيرَ مذموم حَـرْس

أَثَرٌ من (محمَّدٍ) ، وتُــراثٌ   صار (للروح) ذى الولاءِ الأمَـسِّ

بَلَغَ النَّجمَ ذَرْوَةً ، وتناهَى   بينَ (ثَهْلاَنَ) فى الأساس و (قُـدس)

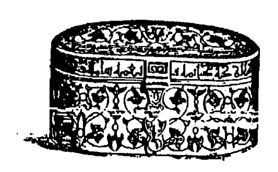
مَرْمَرٌ تسبَحُ النواظرُ فيـــه   ويطول المدى عليها فتُرسى

وسَوارٍ كأنها فــــى استواء — ألِفاتُ الوزير فى عَرْضِ طِــرْس
فَتْرَةُ الدهر قد كست سَطْرَيْها — مـا اكتسى الهدبُ من فتور ونعـس
وَيْحَهَا ! كَمْ تزيَّنَتْ لعليم — واحِدِ الدَّهْرِ ، واستعدت لخمـس
وكأنَّ الرفيفَ فى مســرح العيـ — ـن مُلاءٌ مدنَّراتُ الدِّمَقْـسِ
وكأن الآياتِ فى جانبيــــه — يتنزَّلن فى معارج قــدس
منبرٌ تحت (مُنذرٍ) من جــلال — لـم يزل يكتسيه ، أو تحتَ (قُسٍّ)
ومكانُ الكتاب يُغريك رَيَّـــا — وَرْدِه غائبًا ، فتدنو لِلَمْـس
صَنْعَةُ (الداخِل) المباركِ فى الغر — ب ، وآلٍ له مَيامِينَ شُمْـس

* * *

مَنْ (لحمراءَ) جُلِّلَتْ بغُبار الـ — ـدهر ، كالجُرح بين بُرْءٍ ونُكس
كسَنا البرقِ ، لو محا الضوءُ لحظًا — لمحتهَا العيونُ من طول قَبْـس
حِصْنُ (غرناطة) ، ودارُ بنى (الأحـ — ـمر) : من غافلٍ ، ويقظانَ نَـدْس
جَلَّلَ الثلجُ دونَها رأسَ (شِيرى) — فبدا منه فى عصائبَ بـرس
سَرْمَدٌ شَيْبُهُ ، ولم أرَ شَيْبًا — قبلَه يُرجى البقاءَ ويُنْسى
مَشَت الحادثاتُ فى غُرَف (الحمـ — ـراءِ) مَشْىَ النَّعِيِّ فى دار عرس
هَتَكَتْ عِزَّةَ الحجاب ، وفضَّـت — سُدَّةَ الباب من سمير وأنـس
عَرَصاتٌ تخلَّت الخَيلُ عنهـا — واستراحت من احتراسٍ وعَـس
ومَغَانٍ على الليالى وِضَـاءٌ — لم تجد للعَشِىِّ تَكرارَ مَـسٍّ
لا ترى غيرَ وافدين على التـا — ريخ ، ساعِينَ فى خشوع ونكـس
نقَّلوا الطرفَ فى نضــارَةِ آسٍ — من نقوش ، وفى عُصـارة وَرْس
وقِبابٍ من لا زَوَرْدٍ وتِبــرٍ — كالرُّبى الشُّمِّ بين ظل وشمـس
وخطوطٍ تكفَّلَتْ للمعانــى — ولألفاظها بأزين لُبْــس
وترى مجلسَ السباع خَـلاءً — مُقْفِرَ القاع من ظباءٍ وخنـس
لا (الثُّريَّا) ، ولا جوارى الثريـا — يتنزَّلْنَ فيه أقمارَ إِنْـس

مرْمَرٌ قامت الأسودُ عليـــــه	كَلَّةَ الظُفر ، لَيِّنات المَجـــسّ
تنثر الماءَ فى الحياض جُمانـــا	يَتنزّى على ترائبَ مُلـــس
آخرَ العهدِ بالجزيرة كانـــت	بعد عَرك من الزمان وضَـــرس
فتراها ، تقول : رايةُ جيــــشٍ	بادَ بالأمس بين أسرٍ وحَـــسّ
ومفاتيحُها مقاليدُ مُلـــكٍ	باعها الوارثُ المضُيعُ ببَخْـــس
خرج القومُ فى كتائبَ صُـــمٍّ	عن حفاظ ، كموكب الدَّفْن خُـرْس
ركِبوا بالبحار نَعْشًا ، وكانت	تحت آبائهم هى العرش أمـــس



أحزان في الأندلس

نزار قباني

كتبتِ لي يا غاليَهْ . .
كتبتِ تسألينَ عن إسبانيَهْ
عن طارقٍ ، يفتحُ باسم الله دنيا ثانيَهْ . .
عن عُقْبة بن نافعٍ
يزرعُ شَتْلَ نخلةٍ . .
في قلب كلِّ رابيَهْ . .
سألتِ عن أُميَّةٍ . .
سألتِ عن أميرها معاويَهْ . .
عن السرايا الزاهيَهْ
تحملُ من دمشقَ . . في رِكابها
حضارةً . . وعافيَهْ . .
لم يبقَ في إسبانيَهْ
منّا ، ومن عصورنا الثمانيَهْ
غيرُ الذي يبقى من الخمرِ ،
بجوف الآنيَهْ . .
وأعينٍ كبيرةٍ . . كبيرةٍ
ما زال في سوادها ينامُ ليلُ الباديَهْ . .
لم يبقَ من قُرطبةٍ
سوى دموع المئذنات الباكيَهْ
سوى عبير الورد ، والنارنْج والاضاليَهْ . .
لم يبقَ من ولّادةٍ ومن حكايا حبِّها . .
قافيةٌ . ولا بقايا قافيَهْ . .

* * *

لم يبقَ من غرناطةٍ

ومن بني الأحمر . . إلا ما يقولُ الراويَهْ

وغيرُ (لا غالبَ إلاَّ الله)

تلقاكِ بكلِّ زاويَهْ . .

لم يبقَ إلاّ قصرُهُم

كامرأةٍ من الرخام عاريَهْ . .

تعيشُ - لا زالتْ - على

قصَّة حبٍّ ماضيَهْ . .

* * *

مضَتْ قرونٌ خمسةٌ

مُذْ رحَلَ (الخليفةُ الصغيرُ) عن إسبانيَهْ

ولم تزلْ أحقادُنا الصغيرَهْ . .

كما هيَهْ . .

ولم تزل عقليَّةُ العشيرَهْ

في دمنا كما هيَهْ

حوارُنا اليوميُّ بالخناجرِ . .

أفكارُنا أشبهُ بالأظافرِ

مضَتْ قرونٌ خمسةٌ

ولا تزال لفظةُ العروبَهْ

كزهرةٍ حزينةٍ في آنيَهْ . .

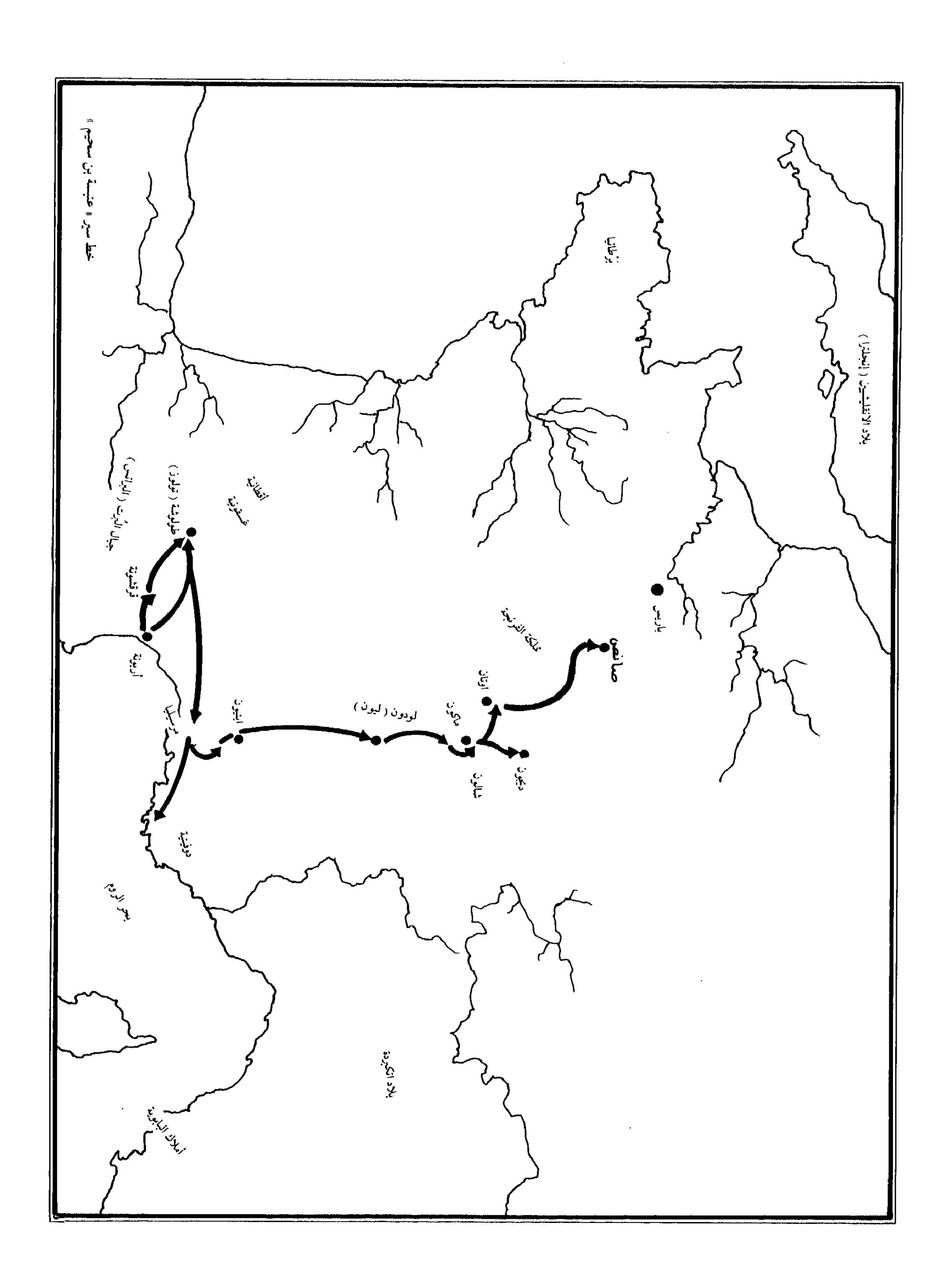
كطفلةٍ ، جائعةٍ . . وعاريَهْ

نصلُبُها . . على جدار الحقد والكراهيَهْ . .

* * *

مضَتْ قرونٌ خمسةٌ . . يا غاليَهْ

كأنَّنا . . نخرجُ هذا اليومَ من إسبانيَهْ . .


بلاد الانقليشيين (إنجلترا)
باريس
برطانيا
صانص
ديجون
مملكة الفرنجة
اوتان
شالون
ماكون
لودون (ليون)
بلاد انكبردة
ابنيون
أقطانية
غسقونية
طولوشة (تولوز)
قرقشونة
أربونة
مرسيليا
دوفينة
بحر الروم
أملاك البابوية
جبال البُرت (البرانس)
خط سير « عنبسة بن سحيم »

أسقف « سانس »
يطلب رأس « عنبسة بن سحيم »

(عنبسة بن سحيم) الذي اجتاز بخيله ورجله جبال البرانس متجها نحو الشمال الاوربي ، وبشكل أدق مخترقا عمق بلاد الفرنجة حتى وصل مدينة (سانس SANS) على بعد ثلاثين كيلو مترا جنوبي باريس ، بين (عنبسة) هذا وفرسان القديس يوحنا ـ الذين دخلوا بخيلهم ورجلهم مدينة طرابلس في الشمال الافريقي ـ فترة زمنية تقدر بنحو ألف عام ، الا ان الفرق بين الحدثين أو الامرين أو الجيشين ان شئتم ليس زمنيا فحسب ، انه فارق حضاري بعمق اكثر من ألف عام .

أحفاد (عنبسة) بنوا هناك ماجعل : طليطلة وسرقسطة ومالقة واشبيلية وقرطبة وبلنسية ومرسية والمرية وغرناطة ترتقى في سلم الحضارة ، وتنتقل من مجرد قرى نائية الى مدن لايملك التاريخ الا ان يمنحها اهتمامه ويعتز بالتفرد الذي تبديه .

احفاد (ابن سحيم) ابدعوا الحدائق الغناء ونوافير المياه .

غرسوا النخيل والزيتون .

عطّروا الاندلس بالطيب .

وجعلوا لكل فصل زياً .

بل لكل وقت من اوقات اليوم زياً .

رصدوا النجوم .

وعلموا القوم ركوب البحر .

احفاد (عنبسة) ألّفوا الكتب .

واتقنوا الموسيقى .

وانتشلوا القوم هناك من مجاهل النسيان .

وألبسوهم بردة الخلود .

احفاد (ابن سحيم) هم الذين (ماتوا ليعيشوا) بعلمهم وفنهم وشعرهم ، وفوق كل ذلك عمق ايمان تحولت به تلك البلاد من عصور مظلمة حالكة الظلام الى عهود غمر فيها الدنيا نور العلم والخلود .

وفي المقابل :

ما الذي احضره فرسان ذلك القديس ؟

هل أحضروا نتائج التحاليل التي قام بها (الزهراوي) ؟

أم أحضروا باقات ورد من الحدائق الغناء في بلنسية ؟

أم احضروا (اسطرلاب القادر بن ذى النون) من طليطلة ؟

هل احضروا سنابل القمح من (سهلة بني رزين) ليزرعوها في بلادنا ؟

أم احضروا مجلدات العلم من ساحات قرطبة ؟ أم احضروا (ريشة) من كساء (عباس بن فرناس) الذي به حلق كالصقر في سماء الاندلس ؟

كل ذلك وغيره لم يحضره فرسان القديس يوحنا .

بل :

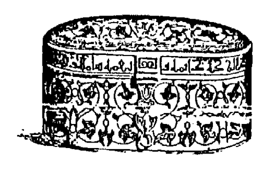
عاثوا في ديارنا فسادا .

لم يتركوا جدارا واحدا ينبئنا عن غاية نبيلة ، لم ينشئوا في كل البلاد التي غزوها دارا للصناعة أو مدرسة للعلم .

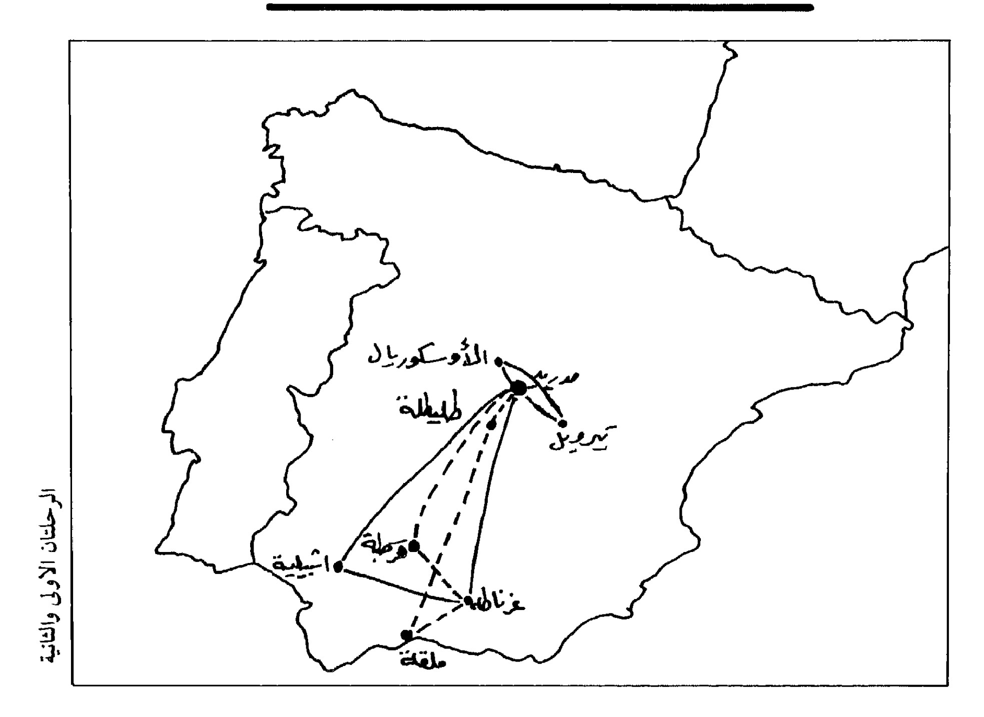
كانوا فقط يبحثون عن (عنبسة بن سحيم) في طرابلس أو في القيروان او في سواحل الجزائر أو في زقاق خلف جامعة القرويين في فاس ، يبحثون عنه رغم علمهم بأنه قد مات منذ ألف عام .

ولأن (عنبسة) كان يقود حملة ناجحة بقصد تأسيس حضارة على مشارف باريس فقد أوصى (ايبون) أسقف (سانس) بأن يظل (عنبسة بن سحيم) مطلوبا حتى تندثر تلك الحضارة .

ولأنها حضارة العروبة والاسلام لم ولن تندثر سيظل رأس (عنبسة) مطلوبا الى ان يرث الله الارض ومن عليها .



الاندلس والخطأ الكبير



الرحلتان الاول والثانية

ذات امسية من أمسيات شهر النوار (فبراير) 1988 م ، وبينما كنت اغادر شارع (غويا) في مدينة مدريد باسبانيا ارتسمت في مخيلتي هذه العبارة : « اوراق اندلسية في نهايات القرن العشرين » ، واذكر أنني رددتها بصوت مسموع ، لاقت الجملة استحسانا . وبدأت كلمات وجمل وأسطر هذه الاوراق تتجمع ، بدأت بالفعل تحتل الذاكرة وغدت هاجسا يوميا بعد ان كان (الاندلس) ذاته مجرد حلم .

ولم اكن اتوقع حينذاك ان تتوالى هذه الاوراق الواحدة تلو الاخرى وتظل هماً يومياً طيلة عام بأكمله .

كانت البداية من (مجريط : القرية العاصمة) والتي تعرف اليوم بمدريد ، ثم طليطلة ، ثم غرناطة ، ثم قرطبة ثم مالقة .

وما ان انتهى الجزء الاول من هذه الاوراق في شهر الفاتح (سبتمبر) 1988 م حتى وجدت

نفسي في ربوع الاندلس للمرة الثانية ، وكان الاستمرار بدءا من (طرويل أو تيرويل) كما تعرف اليوم ، ثم زرنا (البراثين أو بني رزين) كما عرفت في تاريخنا ، ثم غرناطة ، ثم اشبيلية ، ثم بعض نواحي (وادى الحجارة) ثم الأوسكريال .

الابحار في ذاكرة الاندلس أمر مؤلم ، والتجول في ربوعه اشد ايلاماً !

والاهتمام به والكتابة عنه هو الالم ذاته !

وفي (الاندلس) ادركت مامعنى ان يهب الله بعض عباده نعمة (الشعر) الذي عن طريقه يستطيع الانسان ترجمة احاسيسه ومشاعره ، لكن الذين لم يتمتعوا بنعمة (الشعر) وأنا احدهم سيضطر الى الجنوح للصمت رغم مافيه من حزن وألم .

تساءلت : هل اخطأت حينما احببت الاندلس ؟

وهل اخطأت حين زرت الاندلس ؟

وهل اخطأت حين كتبت عن الاندلس ؟

اما التعلق بالأندلس ومحاولة محاكاة كل ما ابدعه العرب المسلمون في تلك الربوع فأمر لايعاب . . . .

لكن الكتابة عن (الاندلس) كانت خطأ . . خطأ كبيرا و فادحا !

لم اكن وأنا اكتب عن (الانـدلس) مؤرخا حتى ازعم أنني قدمت جديدا ، أو اكتشفت مجهولا ، أو اوضحت غامضا ، أو رتبت متفرقا ، أو صححت خطأ .

ولست ممن يمتهنون صناعة الادب أو حتى يجيدون أحد فنونه حتى ازعم انني ـ حين كتبت ماكتبت ـ قد دخلت ربوع الاندلس من باب الشعر أو النثر أو من نافذة احد اعلام هذه الصناعة من ابناء تلك البلاد .

من هنا ادركت ان الكتابة عن الاندلس كانت خطأ .

كما انني لم اكن باحثا متخصصا انكبَّ على قضية بهدف التوصل الى نتائج ذات بال متبعا منهجا من شأنه اعطاء القارىء الكريم معلومات هي نتيجة ذلك البحث .

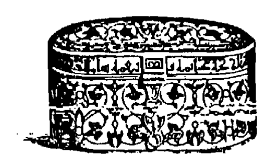
ومن هنا ايضا ادركت ان الكتابة عن الاندلس كانت خطأ كبيرا .

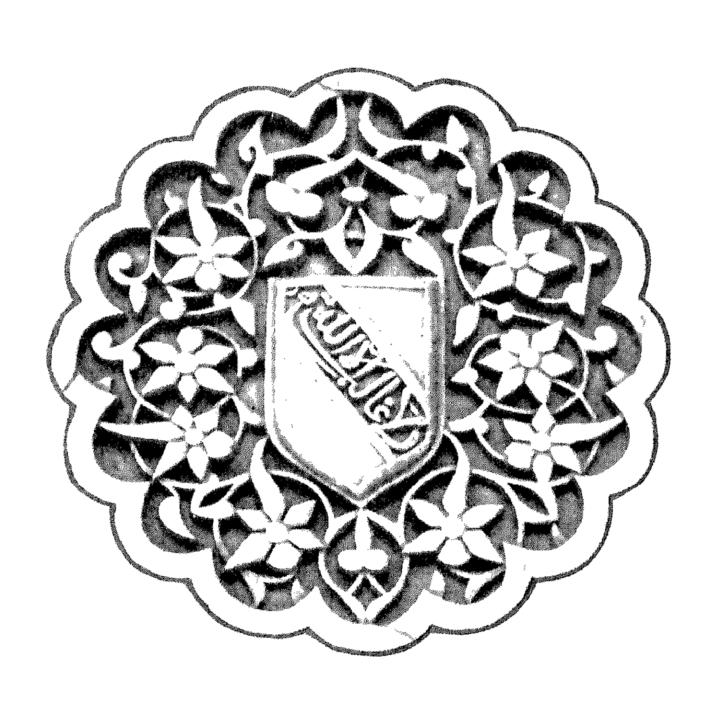
ولم اكن رحالة يجوب البلاد شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا يدون ويوثق بالصورة والكلمة كل شاردة وواردة بهدف تقديم وصف دقيق لبلاد كانت بحضارة ـ ولاتزال بآثار تلك الحضارة ـ مهوى الافئدة والمبدعين .

ولم اكن وانا اكتب عن (الاندلس) صحفيا تفتح له الابواب وتتدفق من حوله المعلومات ، فيقابل من يشاء أو ينتقى أدق وأحدث المعلومات .

ولم اكن أمضيت أكثر من اسبوع في الرحلة الاولى واسبوعين في الرحلة الثانية الى الاندلس تضمنت كلتا الرحلتين تنقلا بمختلف الوسائل : الطائرة والحافلة والقطار وعربات تجرها الخيول .

لكل ذلك ادركت أن الكتابة عن (الاندلس) كانت خطأ كبيرا . . . وفادحا !





الفهـــــــرس

